موسوعة

الدكتور

محضير بن محمد

رئيس وزراء ماليزيا

المجلد الثامن

السياسة والديمقراطية وآسيا الجديدة

الناشرون

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

دار الكتاب المصرى
القاهرة

دار الفكر - كوالالمبور

دار الكتاب - ماليزيا

اهـــــداء 2004

د.محضير بن محمد

ماليزيا

موسوعة

الدكتور

محضير بن محمد

رئيس وزراء ماليزيا

المجلد الثامن

مَوسُوعَة

الدكتور

محضير بن محمد

رئيس وزراء ماليزيا

● الترجمة والمراجعة
نخبة من كبار المترجمين والأساتذة المتخصصين من جامعات القاهرة والأزهر والأسكندرية وعين شمس وحلوان.

د. عبدالرحمن الشيخ
د. ياسر شعبان
أ. فاروق لقمان
أ.طلعت الشايب
د.توفيق علي منصور
أ.احمد محمود
أ.عبدالحميد دابوه
د.رمضان بسطاويسي
أ.احمد عبدالحميد
أ. محمد رشدي

دار الكتاب المصري
٣٣ شارع قصر النيل تليفون : ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٣٠١ / ٣٩٢٤٦١٤
القاهرة ص.ب: ١٥٦ عتبة الرمز البريدي ١١٥١١ – برقيا: كتا مصر – القاهرة
فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
Fax: (202) 3924657 القاهرة Att: Mr. Hassan El-Zein

دار الكتاب اللبناني
بيروت
شارع مدام كوري – تجاه فندق بريستول – بيروت
تليفون: ٧٣٥٧٣٢ / ٧٣٥٧٣١ ص.ب ٨٣٣٠ – ١١
بيروت – لبنان . برقيا: داكلبان – فاكسيملي ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
Fax: (9611) 351433 بيروت Att: Mr. Hassan El-Zein

DARULFIKIR – Kuala-Lumpur دار الفكر كوالالمبور
العنوان:– 329B Jalan Abd Rahman Idris, off Jalan Raja Muda, 50300 Kuala-Lumpur
Tel:- 603-26981636 / 603 – 26913892 Fax:- 603 - 26928757

First Edition 2004 A.D - 1424 H
I.S.B.N 977-238-738-7

الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤ م
رقم الإيداع ٢٠٠٣/٩٧١٢

المحتويات

١- عندما يكشف قبح الرأسمالية عن نفسه *

أوشك القرن العشرون على الانتهاء ، وقبل أن ندخل القرن الحادى والعشرين أرى أنه من المفيد أن نراجع أحداث القرن العشرين ؛ حتى نتعلم من تجربتنا ، وآمل أن نعرف كيف ندير شئون الإنسانية فى القرن الحادى والعشرين .

لقد شهد القرن العشرون أكثر الحروب دماراً ، تلك التى دُمِّر فيها من الممتلكات ما يساوى البلايين من الدولارات ، وقتل فيها الملايين من الناس . وشهد هذا القرن أعتى الأنظمة الديكتاتورية اللاإنسانية فى ألمانيا ، حيث عذب وقتل ستة ملايين من اليهود ، وشهد أول القنابل النووية التى قتلت مئات الآلاف من الأبرياء فى الحال ، وأكثر من ذلك نتيجة آثار القصف النووى فيما بعد .

وعندما انتهت أعظم الحروب فى تاريخ الإنسان أنشئت تلك المنظمة المهيبة وهى الأمم المتحدة ، وظننا أنه سيكون هناك سلام وأمن ؛ لأن القوى العظمى عملت معًا فى الأمم المتحدة ، ولكن ذلك لم يحدث ! وفى الحال قسم المنتصرون أنفسهم إلى معسكرين ، وبدأوا الحرب الباردة . إن التهديد بنشوب حرب ساخنة هو الذى أبقى على الحرب الباردة ، وبنى كل معسكر منهما ترسانات من الأسلحة النووية وغير النووية ، وتراشق الطرفان عبر هوة سحيقة من سوء الفهم ، وطالما شد كل منهما على زناد السلاح النووى .

وبالنسبة لمستعمرات الدول الأوروبية فقد كان هناك انقلاب ؛ فالخوف من قصور أحد الطرفين فى إخماد ثورة المستعمرين جعل كلا المعسكرين يخففان من إحكام قبضتهما على

* خطاب ألقى فى الجلسة ٥٤ للجمعية العامة للأمم المتحدة- نيويورك- الولايات المتحدة فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٩٩م .

الأقاليم المستعمرة ، صحيح أن هناك بلدانًا قد حصلت على استقلالها ، ولكن بقائها اعتمد بشكل ما على مهارتها فى اللعب على الكتلة الغربية ضد الكتلة الشرقية .

ولسوء الحظ ، فإن هذا الاختيار الذى نتج عن إيجاد عيب فى الطرف الآخر لم يستمر طويلا ؛ فجأة انهار الجانب الشيوعى ؛ فتحت إغواء الثراء الفاحش للديمقراطيات الليبرالية والسوق الحرة الغربية ؛ ألقى المعسكر الشرقى بكل الاقتصادات المركزية السلطوية فى البحر ، وتبنوا الديمقراطية الليبرالية والسوق الحرة فى يوم وليلة ، وظنوا أنه ما دام لديهم نظام مشابه لذلك المعمول به فى الكتلة الغربية فمن الممكن أن يلحقوا بهم ، وكانوا سذجا ؛ إذ كانوا يعتقدون أنهم بعد سبعين عامًا من الاقتصاد الموجه والديكتاتورية يمكنهم أن يتحولوا إلى اقتصاد السوق الحرة بين عشية وضحاها ! واكتشفوا بعد مضى وقت قصير أنهم لا يعرفون شيئًا عن كيفية جعل نظامهم الجديد يعمل بنجاح ، كما أدركوا أنهم لن يحصلوا على أى مساعدة من الدول الغربية ، بل إن تلك الدول استغلت تخبط هذه الأنظمة وعدم كفاءتها ، ووجدتها فرصة سانحة لتدمير الكتلة الشرقية وبخاصة حامل اللواء الرئيسى – روسيا– لكى تقضى عليها قضاءً مبرما .

وأسوأ من ذلك فإن عدم القدرة على إدارة السوق الحرة نتج عنه تعجيل فى التضخم ، وتدمير لمنشآت الدولة ومشروعاتها ، بل وزيادة البطالة بنسبة هائلة ، وضعف الأرصدة ، ومن ناحية أخرى تحركت المؤسسات المالية الغربية لتخفيض قيمة عملاتهم ، وجعلهم غير قادرين على سداد ديونهم بعد ماكانوا – فيما مضى – عدوًا قويا لا يقهر ، وبالرغم من معرفة الغرب أن هؤلاء الناس لن يتمكنوا من ممارسة الديمقراطية الليبرالية والسوق الحرة على الإطلاق إلاَّ أنهم دفعوهم دفعًا للاستمرار والمضى فى هذا الطريق الذى لا يمكن الرجوع عنه بالنسبة لدول الكتلة الشرقية .

لقد اكتمل دمار دول الكتلة الشرقية ، ولن تتمكن من تحدى ومواجهة الديمقراطيات الليبرالية أصحاب السوق الحرة عسكريًا مرة أخرى ، وأصبح المتاح الآن خيار واحد للعالم ،

ولن يسمح بأن يكون هناك خيار آخر محتمل لدول العالم كبيرة كانت أم صغيرة ، وبهذا فلن يرى رأسماليو السوق الحرة الديمقراطية الليبرالية حاجة لاسترضاء الآخرين وكسب ودهم فى نشر أنظمتهم أو الاستفادة منها . ولن يسمح لأى نظام سياسى أو اقتصادى آخر بالوجود إلا لتلك النظم التى تضع مواصفاتها الكتلة الوحيدة المهيمنة ، فلقد كشف القبح الحقيقى للرأسمالية الغربية عن نفسه مدعومًا بالقوة العسكرية ؛ وهى أعظم نصير للرأسمالية .

وبالنسبة للدول الصغيرة ، كان سقوط الكتلة الشرقية كارثة كبرى . فهى الآن معرضة لضغوط لا يمكن مقاومتها . وأدركت بسرعة شديدة أن أنصار السوق الحرة عازمون على استنفاد كل ثرواتهم حتى آخرها ، أما بالنسبة للسياسة فإن عدم استقرار النظام الديمقراطى الليبرالى - الذى يجىء مع نقص شديد فى فهم كل تعقيداته من قبل القادة ، وكذلك الشعب - فهو لا يعنى إلا شيئًا واحدًا ؛ وهو أن يبقوا فى حالة اضطراب مستمر مشرفين على حافة الفوضى .

وتمكنت بعض الدول بشكل واضح من أن تنمو وتزدهر ، ومع ذلك لم يدم هذا الأمر طويلاً ؛ فقد تمكن أثرياء تجار العملة والاستثمارات سريعة الكسب من إفقار هذه البلاد بخفض قيمة عملاتها ، وأسعار الأسهم فيها فى وقت قصير ، ووجدت هذه البلاد نفسها مرغمة على الاستدانة من صندوق النقد الدولى . وسواء أكان ذلك مخططا له أم ناتجًا عن مجرد قصور فى الفهم . . . فقد أدى النظام الاقتصادى الذى فرضه البنك الدولى إلى تدمير اقتصاد تلك البلاد بصورة أسوأ وأشد مما كانت عليه ، وتبع الدمار الاقتصادى دمار سياسى ، وأذعن الكثير من هذه البلاد إلى التوجيهات السياسية من البنك الدولى وإلا فلن يتمكنوا من الحصول على القروض المطلوبة ، وأدى الواقع العملى إلى فقدان الاستقلال .

وهكذا أصبح المستقبل أمام هذه الدول الصغيرة المستقلة فى العالم يبدو مكشوفًا تذروه الرياح ، ويطلب الآن من الدول النامية أن تفتح حدودها ؛ حتى تتدفق رؤوس الأموال

والسلع والخدمات بحرية بين البلدان دون أى تمييز ضريبى ؛ لحماية الصناعات المحلية أو المنتجات ، كما تسمح للمؤسسات والصناعات والمنتجات الوطنية أن تتنافس على قدم المساواة مع البنوك والأعمال التجارية الأجنبية التى تريد أن تؤسس عملياتها فى بلادهم ، والتى لابد من أن يتوفر لها وضع وطنى مثل الذى يعطى للأعمال المحلية ، هذه هى الطريقة – كما يقال – هى التى تؤدى إلى خلق ملعب مستوٍ يسمح بمنافسة عادلة .

ولكن هل المنافسة بين العمالقة والأقزام عادلة ، حتى ولو كانت أرض الملعب مستوية؟ مثل هذه المنافسة بين الدول الغنية والدول الفقيرة لن تكون عادلة أبدًا ! فقد تستطيع المؤسسات الكبيرة والصناعات الضخمة من الدول الغنية أن تتحمل خسارة أموالها عندما يمارسون أعمالهم فى ظل اقتصادات أصغر ؛ لأنهم يحققون أرباحًا طائلة من أسواقهم الكبيرة فى أوطانهم وفى أماكن أخرى . أمَّا الأعمال التجارية الصغيرة فى البلدان الصغيرة ستفلس لو أنهم خسروا أموالهم بصفة مستمرة ، وفى النهاية ستباع تلك المشاريع التجارية إلى الشركات الأجنبية الكبيرة ، أو تغلق أبوابها ، وعندما يحدث هذا فلن يكون هناك شركات وطنية كبيرة ، بل سيكون هناك فروع للشركات الأجنبية الكبيرة التى ستطلق العنان فى رفع الأسعار وتعيد إلى أوطانها معظم الأرباح .

أكثر من ذلك ؛ فإن العمالقة الأكفاء ينتجون سلعًا أفضل وأرخص مما لا تقدر عليه المشاريع التجارية الصغيرة ، ولا يمكنها التنافس فى مثل هذه الظروف ولا تلك البيئة غير المتكافئة . فلن تتمكن هذه الدول الصغيرة من شراء بضائع أجنبية لو لم تستطع تصدير منتجاتها لكسب عملات وتحويلات أجنبية ، والسلع الرخيصة ذات الجودة العالية لا تعنى شيئًا إن لم تكن معك نقود لشرائها ! ربما كانت أسواق الدول الفقيرة ليست كبيرة ، ولكن إفقارها سينجم عنه خسائر فى مبيعات الأغنياء ، وهذا ما حدث عندما أفقر تجار العملة البلاد التى هاجموها ، ومن ثمَّ لم تتمكن هذه البلاد من شراء منتجات الأغنياء ، وهو ما يعنى أن الأغنياء فقدوا أسواقهم ومن ثمَّ انكمشت التجاره العالمية .

إن التدفق الحر للسلع والخدمات بدون قيود عبر الحدود ربما يكون جيداً ومفيداً لبعض الوقت ، ولكن ذلك سيدمر الأسواق فى نهاية الأمر مما يتسبب فى انكماش التجارة العالمية ، وبالتأكيد سيصبح العالم أكثر فقراً بسبب التجارة الحرة .

لقد أدت المواجهة بين الشرق والغرب بعد الحرب العالمية الثانية إلى تحرير معظم المستعمرات واستقلالها ، ومعنى أنها أصبحت مستقلة ؛ أى أصبح لها الحق فى حكم نفسها . ولأن الكثرة من هذه الحكومات غير معتادة على تدبير شئون بلادها ، وسياسة أمورها فقد منيت بالفشل ، وأصبحوا بشكل بائس مدينين لبنوك الدول الغنية ، وقد عانت شعوب هذه الدول من انعدام كفاءة وقدرة تلك الحكومات فى إدارة شئون بلادها ، وعانت أيضًا من أساليب الحكم القمعية .

ولكن المبدأ الذى ساد فى الربع الثالث من القرن العشرين هو : أنه لا يجب أن يتدخل أحد فى الشئون الداخلية لأى دولة أخرى . وكان ذلك فى واقع الأمر هو جوهر الاستقلال ، وعندما كان العالم منقسمًا إلى كتلة شرقية وكتلة غربية فإن هذا المبدأ ظل محترمًا .

ولكن رئيس دولة ما قرر أن لبلاده الحق ، بل ومن واجبها التأكد من عدم انتهاك حقوق الإنسان فى أى مكان فى العالم بغض النظر عن الحدود واستقلال البلاد ، وبالرغم من أن أحدًا لم يعطه هذا الحق . وإذا اعترض أحدٌ فإن مثل تلك الأشياء الصغيرة لن توقفه ! إن النصر المزعوم للغرب فى حرب الخليج اعتبر حقًا أخلاقيًا ضمنيًا للتدخل بالقوة فى الشئون الداخلية لأى بلد ! ولم يعد الأمر قاصراً فقط على مسألة حقوق الإنسان ، بل أصبحت أنظمة الحكم والقضاء والأنظمة المالية والتجارية عرضة لمراقبة الدول القوية ، ويصرون على أنه لا يوجد سوى طريق واحد لإدارة البلاد ألا وهو الطريق الديمقراطى الليبرالى ! ويصرون على فرض نظام اقتصادى واحد لكل العالم وهو ؛ نظام السوق الحرة ! ويصرون كذلك على أنه لابد من أن تكون هناك صراحة وشفافية فى كل شىء وفصل

للقطاع العام عن القطاع الخاص ، وألاّ يكون هناك تمييز بين الجماعات الإثنية أو ضد الأجانب لصالح المواطنين الأصليين .

كل ذلك وأكثر منه قد يبدو طيبًا ، ومن الواضح أن كل ذلك قد تم لصالح دول الغرب المتقدمة ، فقد جعلهم أغنياء وأقوياء ووفروا لشعوبهم مستويات معيشة عالية . ولكن هل تصلح كل هذه الأمور لكل الناس كما صلحت معهم؟

يبدو أنهم نسوا أنهم قد استغرقوا قرونًا حتى تمكنوا من جعل نظامهم هذا يؤتى ثماره ، فكان الانتقال من الحكم الإقطاعى إلى نظام الحكم الليبرالى يتم خلال حمام غزير من الدماء ، فقد تعرض كل من الأغنياء والفقراء لمذابح كثيرة ؛ لأن الإصلاحات كانت قسراً فرضها بالتتابع عدد من الطغاه العتاة ، والكثير منهم كان منتخبًا من الشعب ! وحتى فى عصرنا هذا فإن أنظمتهم لم تحقق الحرية ولا المساواة لقطاعات عريضة من شعوبهم ، إلا أنهم يصرون على أن كل بلاد العالم القديم والحديث يجب عليها تبنى نظام الحكم الوحيد ألا وهو نظامهم ؛ النظام الديمقراطى الليبرالى .

أمَّا البلاد المستقلة حديثًا التى لا تعرف سوى نظام الحكم السلطوى فليس أمامها سوى الفشل ، وعلى سبيل المثال فقد وجدت البلاد الشيوعية السابقة نفسها غير قادرة على التوافق مع التغيرات غير المستقرة الموجهة لسلطة الحكومة فى الديمقراطيات الليبرالية .

ولن يسمح للدول الجديدة بأن تأخذ الوقت الكافى لتتعلم وتتولى تشغيل نظامها ، فلابد أن يغيروا الآن وفى الحال أنظمتهم ، حتى لو كانت بلادهم غير مستقرة ولو كانت شعوبهم تعانى ، أو كانوا متخلفين اقتصاديًا ، كل هذه الأمور ليس لها أهمية ! المهم أن يتحولوا إلى الديمقراطية وإلى الليبرالية ، ولو أنهم فشلوا فى إحداث هذا التحول فسوف يجبرون على فعل هذا من خلال لَيِّ الذراع ؛ أى بالقوة الجبرية ، مثل : فرض العقوبات الاقتصادية عليهم ، أو عن طريق العمل العسكرى إذا لزم الأمر ! ومع أن هذه الإجراءات أكثر قمعية من أنظمة الحكم والنظم الأخرى إلا أن ذلك أمر لا يهم ! ولو كان بناء هذا النظام

المتفق عليه سيؤدى إلى عدم استقرار البلدان أكثر مما هى عليه ويسبب مزيدًا من المعاناة ؛ فذلك أمر لا يهم أيضًا ! كل هذه الأمور لا تهم ؛ لأن أهم شىء هو تبنى هذا النظام ، وليس المهم الفائدة التى ستجنى من وراء ذلك .

وينطبق الشىء نفسه على الإدارة الاقتصادية ، فلابد من تطبيق الليبرالية وكسر النظم والإجراءات ، وكذلك لا يجب على الحكومة مساعدة قطاع الأعمال ، ولا يجب أن توفر أى حماية ! فلو تعرضوا لهجوم من قوى خارجية سواء أكان هجومًا عادلاً أم ظالمًا ، أو أصابتهم خسارة إذًا دعهم يموتون ! فلابد وأنهم غير جديرين ويستحقون الخسارة ، وليس لدى العالم وقت ولا عزاء لهؤلاء الخاسرين غير الأكفاء .

وهكذا فإن تجار العملة الذين زادت أرصدتهم مائة مرة وأكثر تحدوا البنوك المركزية ذات الأرصدة المحدودة ، قد دمروا اقتصادات بلاد ، بل وأقاليم بأكملها ، وضاعت صرخات هذه البلاد طلبًا لحمايتها هباء ولكنهم تجاهلوا نداءات الحماية هذه . المجال مفتوح أمام الجميع وحرية انتقال رؤوس الأموال هى جزء من التجارة الحرة المقدسة ! وكانت كل مساعى تجار العملة هى التحكم فى نظم الحكم من أجل التوافق مع النظام ، والتخلى عن أساليبهم الرديئة القديمة .

وفى الأزمات المالية لا تساعد الحكومات المشروعات التجارية كى يتحسن وضعها فليس هناك أصدقاء حميمين ، إذًا دعهم يموتون – دع الدماء تسيل – عندئذ ستدرك الحكومات مدى حاجتها لإصلاح أنظمتها ، وتتبنى أفضل الممارسات بالمعايير العالمية ، وأفضل السبل لإدارة الاقتصاد . ولو أفلست الحكومة وهى تسعى لتحقيق ذلك فلا بأس ، المهم أن تؤدى المسائل على وجه صحيح حتى ولو دُمِّرت الدولة ، أو تضوَّر الناس جوعًا حتى الموت ، وعندئذ تعم الفوضى وتنهار الحكومة .

وهناك اهتمام مؤثر من جانب الغرب بالنسبة لحقوق الإنسان ، ولكن يبدو أن تعريف حقوق الإنسان ينطبق فقط على حق الفرد فى الانشقاق عن الحكومة ! ولسوف يعانى ملايين

الناس من العقوبات والتى تصل إلى حد قصف البلاد بالقنابل ؛ حتى يتمتع قلة من المنشقين بحقهم فى الخروج على النظام ، ومن الواضح أن بقية السكان ، مئات الملايين منهم ، لا يتمتعون بأى حقوق ؛ لأن حقوقهم لا تعتبر إنسانية ! وهكذا فإن حرمان الملايين من حق العمل بسبب تجارة العملة لا يعتبر انتهاكا لحقوق الإنسان ! الأفراد فقط لهم كل الحقوق ، أما الجماهير فليس لهم أى حق ، وذلك حسب المفهوم الغربى .

والاهتمام بعمالة الأطفال والمؤسسات التى لا تراعى حقوق العامل وتدفع أجوراً هزيلة ينظر إليها بعين الاهتمام ، وهذا الاهتمام يظهر فقط - ولسوء الحظ - عندما تتنافس بنجاح منتجات عمالة الأطفال والمؤسسات الجائرة مع منتجات العمال الذين يعملون أربعة أيام فى الأسبوع ويحصلون على أجور عالية فى الدول المتقدمة ! إن عمالة الأطفال والمؤسسات التى تعمل تحت ظروف قاسية ، وتدفع أجوراً متدنية لا يدافع عنها أحد ، ولكن ينظر إليها على أنها أدنى أشكال الفقر فِى بعض البلاد ، فليس لهم رؤوس أموال ولا تكنولوجيا ، ولا خبرة فنية ، وليس لهم أسواق محلية ولا مدراء من خريجى جامعة هارفارد وكل ما لديهم عمالة متدنية الأجر ! وبالنسبة للعمال فإن الأجور الهزيلة التى يتقاضونها أفضل بكثير من الموت جوعًا ، وإذا كنا مهتمين حقًا فعلينا أن نستثمر جيدًا وندفع أجوراً عالية ، عندئذ ستختفى تلك المؤسسات الجائرة ، ولسوف يحصل الكبار على ما يكفيهم لإطعام أطفالهم ، اما إرغامهم على منع أطفالهم من العمل وإغلاق المؤسسات التى تعطى أجوراً متدنية ، ولا توفر ظروف عمل جيدة ، فسيؤدى هذا إلى مزيد من المعاناة لشعبها كما أن إجبارهم على وقف الإنجاب ليس حلا ! إننا نعلم أن معدل مواليد أطفال الفقراء أعلى من معدل مواليد أطفال الأثرياء ، وبوقف الانفجار السكانى الذى يسبب قلقًا للغرب سوف تتحسن أحوال هؤلاء الناس ، أما إيقاف المؤسسات الجائرة هذه ومنع أطفالهم من العمل فلن يؤدى إلا إلى زيادة فقر هؤلاء الناس ، ويؤدى أيضًا إلى زيادة عدد أطفالهم .

وعلى الرغم من نهاية المواجهة بين الشرق والغرب إلاَّ أن الصراعات لم تقل ؛

فالمشكلة الفلسطينية لم تحل بعد ، وقصف العراق والعقوبات المفروضة عليه مستمرة ، كما أن العقوبات المفروضة على ليبيا لم ترفع ، كذلك الصراعات الناتجة عن تفكك الاتحاد السوفيتى ، وإثارة القلاقل والتمرد ، أو ما يشبه أعمال التمرد من خلال دعم العصيان المسلح بصفة مستمرة لم تنته ! من قبل ، كانت الشيوعية هى مصدر إثارة القلاقل فى كل مكان بما فى ذلك ماليزيا ، أما الآن فالديمقراطيون الليبراليون يقومون بالعمل نفسه وبالطريقة نفسها بالإضافة إلى الدعم المسلح ، سواء كان العصيان المسلح ديمقراطيًا أم شيوعيًا ؛ فالشعب هو الذى يعانى المعاناة نفسها .

وتبدو الأمم المتحده عاجزة حقًا ؛ فإن الكبار والأقوياء يتصرفون بعيدًا عنها ! ولكن يبدو الآن ، أن تجمعات الدول القوية ، أو حتى دولة واحدة قائمة بنفسها تقرر متى تتقدم ومتى تتراجع عن المشاركة فى هذه المنظمة؟ ! فبينما يحبون تدبير الأمور وسياستها بشكل جامح إلاّ أنهم لا يرغبون فى دفع الثمن ؛ فالحروب عن بعد تدار باستخدام تكنولوچيا راقية مثل ما يسمى بالقصف دقيق التركيز على الأهداف عن بعد . إن عدم الرغبة فى مواجهة العدو غالبًا ما ينتج عنه قتل غير مبرر للأبرياء وتدمير أهداف بطريق الخطأ .

وللأسف ! لا يمكن توقع تغيير من الأمم المتحده طالما أنها تتبع خمسة دول أعضاء دائمى العضوية فى مجلس الأمن ، وهم : الولايات المتحدة وروسيا وبريطانيا وفرنسا والصين ، سوف يظل هيكل الأمم المتحدة يعكس النصر العظيم لهذه الدول قبل خمسين عامًا .

أما بالنسبة للدول الأعضاء الصغيرة فهم راضون فقط بتقديم الخطب السنوية فى الجمعية العامة ، أو فى مناسبات الأمم المتحدة المتنوعة ، وأحيانًا قد تختار دولة منها للانضمام إلى مجلس الأمن ! وبالرغم من وجود ثلاثة أعضاء على الأقل من الدول الخمس دائمى العضوية مدافعين ومناصرين بشدة للديمقراطية ، إلا أنه لن تكون هناك ديمقراطية فى الأمم المتحدة ! والفضيلة الوحيدة لهذه المنظمة هى الأعمال الجليلة التى تقوم بها الوكالات

التابعة لها .

ومما يؤسف له أن البعض فى هذه المنظمة العالمية يمارسون مفاهيم ومبادئ غير عادية ، فمن الطبيعى أن يختار شخص محايد وغير متحيز عندما تطلب دراسة ما ، أو تقرير معين ، أو إبداء رأى ، أو تحكيم حول مسألة معينة ، لكن لا يحدث شىء من هذا ، بل تختار المنظمة شخصًا معروفًا بهجومه الخبيث على القضاء الماليزى وهيئاته لكى يقدم تقريرًا عن تلك المؤسسة ، عندئذ تمنحه الأمم المتحدة حصانة ضد قانون بلاده دون الرجوع إلى بلاده ، أو حتى أخذ موافقتها ! ! ومن الواضح أن هذه الحصانة تمتد إلى ما بعد مهمة تقديم ذلك التقرير ومحتوياته إلى المنظمة الدولية ، ويمكن أن ينشر آرائه ويشهر ببعض الشخصيات موضوع الدراسة فى أى مكان وكل مكان ! فهل هناك حدود لحصانة مفوض الأمم المتحدة؟ !

قيل لنا : إن الحكومات لا ينبغى لها أن تتدخل فى الهيئات القضائية ، إلا أنه فى هذه الحالة يكون المتوقع من الحكومة أن تعطى تعليماتها إلى الهيئات القضائية بألا تتخذ أى إجراء ضد مبعوث الأمم المتحدة لانتهاكه قانون البلاد .

أنا لا ألوم السكرتير العام للأمم المتحدة على هذا ؛ ولكنه النظام الغريب والشاذ الذى يؤدى إلى اختيار مبعوث الأمم المتحدة هو الذى أراه غير مقبول ، ولا أظن أنه من اللائق الإشارة إلى العواقب الوخيمة التى قد تحل بماليزيا لو عوقب هذا الرجل بالإجراءات القانونية التى قد تتخذ ضده للازدراء الواضح والتشهير . هناك شىء غير صحيح يحتاج إلى إعادة النظر فيه من قبل الأمم المتحدة .

ومع أن الدول الصغيرة ينقصها المنتديات العامة للتعبير عن رأيها بحرية فهناك المزيد من تقليص وبتر تلك الآراء ، تقوم به وسائل الإعلام الغربية ؛ لتشويه كل شىء تقوله ، أو تفعله تلك الدول ، ومرة أخرى تتوقع الأمم المتحده منا أن نعطى حصانة لرجال الصحافة الغربيين ! فإذا ما انتهكوا قوانين بلادنا لا تتخذ ضدهم أية إجراءات قانونية ! فى ماليزيا ؛

الجميع متساوون أمام القانون ، حتى الملك والسلاطين بالوراثة ليسوا فوق القانون .

هذا إذن سيناريو الربع الأخير من القرن العشرين ، وإذا حملت هذه الحقائق على هذا النحو إلى القرن الحادى والعشرين فإن مستقبل الفقراء والضعفاء ، واقتصادات النمور والتنانين الآسيوية الواعدة لا تبدو مبشرة ، وذلك لأن كل شىء سيستمر طبخه فى الغرب ! فكما كان أصل ومصدر الشيوعية والاشتراكية فى الشرق ، فإن الديمقراطية الليبرالية ، والعولمة ، وعالم بلا حدود ، وتخفيف القيود ، وإطلاق صراح تدفق رؤوس الأموال وهجرتها إلى حيث الجودة وتنظيم الحكومات وفق قوى السوق وتجارة العملة ، والترحيب بأفكار أخرى . . كل ذلك يأتى من الغرب ، وكل ما يأتى من الغرب فهو عالمى ! ! أمَّا الأفكار والثقافات الأخرى فغير ضرورية ، وزائدة عن الحاجة ، ولو ظلت فسيقع صدام الحضارات ، ولتجنب هذا يجب أن تكون هناك حضارة واحدة فقط فى العالم فكل شىء يجب أن يتخذ معيارًا قياسيًا وفقًا للممارسات الغربية ، وهذه المعايير القياسية يمكن أن تتغير إذا ما تغير الغرب ! ! وهكذا فإن العالم المتعولم ، كما يراه الغرب ، سيتسق بأكمله وسينظر إلى التنوع فيه على أنه شىء عابر ، ولذلك يجب القضاء عليه .

لقد مرت ماليزيا بتجربة مؤلمة فخلال أسابيع دُمِّر ٢٤ عامًا من العمل الشاق لتنمية البلاد ؛ خاصة برنامج العمل الإيجابى لتقليل العداء بين الأجناس فى ماليزيا .

لقد ابتكرنا صيغتنا الخاصة للإنعاش الاقتصادى ، فبنعمة من الله وتوفيقه تبدلت الأمور الآن وها نحن على طريق العافية ، ولكننا تعرضنا لضغوط ؛ حتى نترك ضوابطنا المختارة لرأس المال ومعايير معدلات سعر الصرف المحددة . ولا نعرف سبب ذلك . فتلك الضوابط عادت علينا بالخير الوفير ، ولم تؤذ ، أو تضر أحدًا فيما عدا عدة آلاف من مستغلى الاتجار فى العملة ، أما الأجانب الذين يمارسون أعمالا تجارية حقيقية فى ماليزيا فقد حققوا أرباحًا أكثر فى ظل تلك القيود المزعومة ! ورغم نجاح صيغتنا مازالوا يطلبون منا التخلى عن تلك الضوابط تماما وأن نتماشى مع النظام المالى العالمى ، هذ النظام الذى مكن تجار العملة

عديمى الضمائر من تدمير ثروات العديد من الأمم .

لم تبذل أى محاولة جادة لتغيير النظام المالى العالمى ، رغم وجود تعبير عن النية فى التغيير ، وفى الوقت نفسه ، يظل التهديد بعدم الاستقرار المالى والاقتصادى ، والسياسى قائمًا .

وكل ما نطلبه هو أن يسمح لنا بأن ندبر أمورنا على طريقتنا ولصالح شعبنا ولن نضر أحدًا . ولن ندير ظهورنا للعالم لقد كنا متعاونين دائمًا مع كل العالم ، وخاصة مع الأمم المتحدة ، ومازلنا مستمرين فى رهاننا على السلام العالمى ، وبقدر ما نتقبل النقد سواء أكان مبررًا أم غير مبرر فإننا نأمل أن يتقبل الآخرون بصدر رحب نقدنا لهم ، وإلا ستصبح حرية الكلام بلا معنى إذا كان النقد موجهًا فقط للفقراء والضعاف ، ولا يوجه أبدًا للأغنياء والأقوياء ! ونقدنا للآخرين هو فى ذات الوقت ممارسة لحقنا فى حرية التعبير .

ولن نفتتن بالتوقعات التى تتنبأ بما سيحدث لنا فى القرن الحادى والعشرين ، ولكننى أستطيع أن أؤكد لكم أننا سنكون أمة مسئولة ، صديقة لكل مَنْ يريد أن يكون صديقا لنا ، ولا نضمر أى نوايا سيئة تجاه أى أحد .

٢- قُوَّةُ الصَّحَافَةِ *

الصحافة ؛ مؤسسة فى غاية القوة ؛ ولم يطلق عليها مسمى السلطة الرابعة من فراغ ، فإنها واحدة من القوى التى تحدد مصير المجتمع الإنسانى ، بل وزادت قوة ؛ لأنها تصل بك عالميًا إلى الناس وبشكل واضح ومحدد . فلقد تغلبت على المسافات وعلى الزمن تمامًا ، ويمكنك أن ترسل تقارير عن أحداث عبر العالم حتى أثناء حدوثها ، فلم يترك شيء تقريبًا للخيال . . .

مثل هذه القوة تعتبر مخيفة ؛ لأنها تحقق خيرًا وفائدة هائلين ؛ ومن خلالها تستطيع إيقاظ ضمير العالم عندما تكتب تقارير عن مآسٍ جغرافية فى أركان العالم ، وقصصًا عن كيف أدت الاضطرابات المالية الهائلة فى آسيا إلى أن يترك الآباء أطفالهم . وكيف أنهم يستجدون طعامهم و يبحثون عن شيءٍ يأكلونه فى أكوام القمامة . إنها أشياء توجع القلب ! ثم هناك التقارير التى تصل عن أعداد الجثث والتى وجدت فى مقابر جماعية هائلة فى البوسنة والهرسك ، ولا يسع الإنسان إلا أن يجد نفسه منخرطا فى هذه المآسى !

لقد شعر الجنس البشرى بالبهجة والزهو عندما وطأت أقدام الإنسان على القمر ، وهناك تقارير عن مزيد من الإنجازات الإنسانية العظيمة فى أماكن متفرقة من العالم ، وعن أصحاب جوائز نوبل الذين اكتشفوا علاجًا لكل الأمراض التى كانت من قبل لا يرجى منها شفاء ، وهؤلاء الذين وقفوا بشجاعة ضد الظلم ، وأولئك الذين ابتكروا صيغًا شيطانية لكسب المال دون حدود ، إننا نسمعهم ونراهم ونشعر بتأثير إنجازاتهم كما لو كنا نقف بجانبهم نسمعهم ونشعر بهم .

---

* ألقى هذا الخطاب فى افتتاح مؤتمر اتحاد صحافيِّ دول الكومنولث الذى يعقد كل عامين ، كوالالمبور - ماليزيا فى ٢٦ أكتوبر ، ١٩٩٨م .

وبعض من الأخبار الصحفية التى تنتشر من خلال وسائل الإعلام تثلج الصدور ، وبعضها حقيقى بينما البعض الآخر زائف ، وبعضها حدث بالفعل وبعضها ملفق ومختلق ومحض خيال خصب .

قرأت مؤخرًا كتابًا لأحد المؤلفين المفضلين لدى ؛ وهو السير «چيفرى آرثر» بعنوان «الوصية الحادية عشرة » أرجو أن تعيرونى آذانكم وتسمحوا لى بأن أقص عليكم فكرة الكتاب ؛ لأنه يبين قوة وسائل الإعلام والتأثير الذى يمكن أن تقوم به ، إنها قصة خيالية ولكنها مع ذلك معقولة واقعية ؛ لأنها يمكن أن تحدث فى الحياة الحقيقية .

الكتاب يحكى عن مديرة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، وكيف أنها أصدرت أوامرها لاغتيال سياسى أجنبى دون إبلاغ الرئيس الأمريكى الذى وُجِّه لها اللومُ بسبب قيام وكالة المخابرات باغتيال أحد المرشحين للرئاسة فى كولومبيا ، وبهدوء أنكرت المديرة أن تكون عملية الاغتيال قد قام بها أحد رجالها ، بعد ذلك قررت تصفية الرجلَ الذى قام بعملية الاغتيال . وتم إرسال الرجل إلى روسيا لاغتيال مرشح رياسى آخر ، وكان شيوعيًا سابقًا مكروهًا ، ورتبت شبكة المخابرات المركزية لكى يتم القبض على الرجل من قبل السلطات الروسية لمحاولته اغتيال ذلك المرشح الذى فاز فى الانتخابات فيما بعد ، وبالطبع سوف يُعدم رجل المخابرات المركزية طالما أنه فى روسيا ؛ البلد التى لم تسمع عن حقوق الإنسان وتستخدم القسوة فى التشريعات التى تزهق أرواح البشر .

فى تلك الأثناء اتصلت زوجة رجل الاغتيالات هذا بسكرتيرته لتعرف مكانه أما السكرتيرة التى كانت مبهورة ببطلنا هذا فتكتشف من الصحافة التركية أنه هو الشخص الذى تم القبض عليه فى لينينجراد لمحاولته اغتيال مرشح الرياسة الشيوعى وفى طريقها لإبلاغ زوجة الرجل ، قتلت فى حادث طريق من تدبير وكالة المخابرات المركزية .

وعندما اكتشفت الزوجة مصير صديقتها ، اتصلت بنائب مدير المخابرات المركزية الذى أنكر فى الحال أنه يعرف زوجها أو سكرتيرته ، وعندما ذكرته بأنه كان قد حضر حفلة

فى منزلها مؤخرًا وأنه تحدث مع السكرتيرة إياها ، رد عليها قائلاً بأنها تتخيل أشياء ! ! لأنه لا يعرفها ، ولم يذهب إلى منزلها أبدًا .

ثم تمكنت الزوجة من الحصول على الورقة الرابحة ؛ إذ يبدو أن ابنتها كانت قد صورت الحفل بالفيديو ، وفيه لقطات للسكرتيرة وهى تتحدث معه أثناء الحفل ، ولكى تكون الأمور أكثر إحكامًا فقد أبلغته بأن المكالمة الهاتفية هذه يتم تسجيلها ، وأنه لو حاول أن يتخلص منها ، أو أن يبحث عن الشريط فسوف تتلقى شبكات التليفزيون نسخًا من شريط الفيديو والشريط المسجل عليه المحادثة التليفونية ، وعندما ذكرت شبكات التليفزيون وأنها ستضع يدها على الأشرطة ، تغير موقف نائب مدير المخابرات المركزية تمامًا !

يمكنكم الآن أن تروا مدى قوة وسائل الإعلام وتأثيرها فى التأكيد على أن العدالة ستتحقق ، وأن الأوغاد مُنعوا من إساءة استخدام القوة ، ومن المؤسف أن وسائل الإعلام غالبًا ما تكون مولعة بإساءة استخدام القوة ، فأنا مثلا لست من المعجبين بالرئيس «بيل كلينتون» ولكنى على الرغم من ذلك أتعاطف معه ؛ فقد عانق «مونيكا لوينسكى» أمام الناس مرة واحدة ، وربما عانقها مرات فى خلوة إلا أنه لا توجد صور لتلك الأحضان الخاصة ! ولكن ذلك العناق الوحيد تصدر كل الأخبار فى الصحافة عن «بيل كلينتون» سواء أكان موضوع الخبر له علاقة بحالة الطيش الوحيدة هذه أم لا ، وإن كان الاعتقاد لدى شبكة «سى . إن . إن » بأن «بيل كلينتون» عانق «لوينسكى» ألف مرة بواقع اثنتى عشرة مرة فى اليوم ! منذ أن نشرت شبكة «سى . إن . إن» هذا الموضوع الخاص ضمن ملف الصور ، ومع مرور الوقت تحسن استيعاب الناس لذلك العناق ، وأصبح أكثر وضوحًا وحيوية ! ! ولم يعد هناك أدنى شك بأن الغرام الواله الذى يطل من عينى «مونيكا لوينسكى» ولغة الجسد التى عبر بها «بيل كلينتون» قد أدّيا بالمشاهدين إلى افتراض وجود علاقة حميمة بين الاثنين ، وأن الرئيس يقيم علاقة عاطفية معها ، وكل القصص عن المكالمات الهاتفية لأعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى والمكالمات التى كان الرئيس يتحدث فيها مع «مونيكا لوينسكى» لابد

وأنها تنطق بالصدق - كل الصدق - ولا شيء غير الصدق ، كما قلت سابقًا فأنا لست من المعجبين بالرئيس «كلينتون» ولكنى أشعر بالفعل بأن أسلوب العرض من خلال التليفزيون لم يكن عادلاً ولا منصفًا للرئيس ، فلا يوجد أحد فى الولايات المتحدة لم ير كل تفاصيل الواقعة ، ولم يتأثر بها ، و كيف يستطيع أن يصدر حكمًا عليه دون أن يكون متحاملاً عليه ومتحيزًا ضده؟ كيف يكون الحكم الصادر ضد الرئيس عادلاً ومنصفًا؟

ونحن نمر بتجربة مشابهة فى ماليزيا ، لدينا مشكلة سياسية خطيرة ازدادت سوءًا بالطريقة التى قدمت وعرضت بها لكل العالم من خلال كل وسائل الإعلام العالمية صاحبة النفوذ ؛ فالوزراء فى جميع أنحاء العالم عندما يفصلون من مراكزهم بسبب فضيحة ما فمن الطبيعى أن يحملوا حقائبهم ويرحلوا ، وأحيانا يقدمون للمحاكمة حتى فى هذه البلاد وقد وُجِدَ أن بعضهم مدانٌ بالفعل وصدر حكم بالإعدام على واحد على الأقل .

ولم تكن هناك مظاهرات ولا اتهامات بأن المحاكمات لن تكون عادلة ، فقد أعلنت إحدى المحاكم الماليزية ذات مرة حكمًا بعدم شرعية الحزب الحاكم ، ولم تستطع حكومة الحزب المعنية أن تفعل شيئًا حيال هذا الحكم !

ومما يدعو للأسف أن وزيرًا رفض أن يذهب بهدوء لكى يحاكم بالطريقة العادية ، واستشعرت وسائل الإعلام العالمية بوجود سبق صحفى وقصة مثيرة ؛ فتلك واحدة من الدول الآسيوية المتخلفة التى يُعتبر فهمها وممارستها للعدالة محدودًا ! وهذه الدولة بالتحديد تجرأت فى الماضى على تحدى الغرب ووسائل إعلامه وقيمه ونظرياته الاقتصادية والمالية وكل ممارسات الغرب . ولا يسعنى إلا أن أعبر عن شعورى بأن وسائل الإعلام العالمية (والغربية بالتحديد) تريد أن تلقن ماليزيا درسًا وأن تدفعها دفعًا للتخلف !

ماليزيا ليس لديها صحافة جيدة ، ولم تنقل أية إنجازات إيجابية حققناها ؛ فالدولة متعددة الأجناس والمستقرة والناجحة اقتصاديًا ، لا تعتبر موضوعًا مثيرًا بالنسبة لوسائل الإعلام العالمية القوية . ولكن الفشل من أى نوع هو مادة جيدة للإعلام الغربى ، وهكذا

عندما تظهر ماليزيا على شاشة التليفزيون لأى سبب فإن صور أعمال الشغب ومظاهر الخزى والعار الشهيرة هى التى تظهر ! وكل التعليقات على أى موضوع خاص بماليزيا تخلو من عبارات الثناء والاستحسان وبشكل ثابت لا يتغير ؛ لذلك فإن الانطباع الذى تولّد لدى الناس فى جميع أنحاء العالم ؛ هو أن ماليزيا دولة تعمها الاضطرابات والفوضى بصفة دائمة ، وأنها دولة بوليسية تُرتكبُ فيها الأعمال الوحشية وليس بشكل يومى ، بل كل ساعة ! ! ومن حين إلى آخر تظهر العرباتُ المدرعةُ وفيها رجال أفارقة سود عند تقديم تقرير إخبارى عن وجود مظاهرات دون أن يُبيِّن للمشاهد كيف يمكن لأفارقة أن يأتوا لقيادة عربات مدرعة فى ماليزيا؟ ! ! ولا يمكن إلقاء اللوم على المشاهدين لو أنهم ظنوا أن ماليزيا بلد فى أفريقيا ، أو أن من عادة ماليزيا استخدام مرتزقة أفارقة للقيام بالأعمال القذرة !

لا أنكر وجود الأعمال المخزية ، وآسف على أنها تحدث وقلق لذلك . وهناك تحريات كاملة تجرى ، ولن يكون هناك تستر على أحد ، وسوف يعاقب من تَثبتُ إدانته ، ولابد من أن أكون قد أصبحت مجنونًا لو أننى كنت أريد مثل هذه الممارسات التى تستعرضها قوات الشرطة أمام صحافة وتليفزيونات العالم ! ولكن وسائل الإعلام بشكل ضمنى تقول : إن الديكتاتور الماليزى يرأس دولة بوليسية ، حيث إن الممارسات القمعية المخزية مع السجناء فى بلده تعد من قبيل الممارسات المباحة . حقًا ، لقد قال أحد الكتاب إن هذا الموضوع ضرب فى الصميم ، وأنا لا أنكر حدوث بعض أعمال الشغب ، وأن بعض مثيرى الشغب قد اقتحموا عددًا من المبانى وربما كانت الشرطة عنيفة معهم ، ولكنك لا تستطيع مقارنة تعاملهم مع المتظاهرين هنا بتعامل الضباط الأوروبيين والأمريكيين المطبقين للقانون مع المتظاهرين هناك ، ستجد أن الأوروبيين والأمريكيين أكثر وحشية ! ! ومع ذلك فإن حكومات هذه الدول شديدة التمدين لا توصف بأنها ديكتاتورية ولا بوليسية ! ولا يأتى ذكر هذه الدول المعنية فى مقتطفات الفيديو التى تعرض فى التليفزيون .

لا أريد أن أقول إن وسائل الإعلام يجب أن تنقل الأشياء الجيدة فقط ، بل إن كل ما

أطلبه هو أن تكون منصفة ومتوازنة ، وملتزمة بالحقائق ، فليس من الضرورى أن يتصدر الصحف والتليفزيون كل خبر عن «كلينتون» وعناقه لمونيكا لوينسكى ، ربما يُعادُ الخبر عدة مرات للمشاهدين أصحاب الذاكرة الضعيفة ، أما الآن فلا يوجد أحد فى العالم لم ير هذه الصورة ، لم يعد ذلك ضروريًا .

ولو أن وسائل الإعلام عليها أن تذيع تقارير من شأنها إثارة الحنق على حكومات الدول النامية ، فعلى الأقل عليها أن تقدم وجهة نظر هذه الحكومات بإنصاف كما تفعل مع الطرف المعارض لها ! وتتهم وسائل الإعلام الغربى الحكومة الماليزية وحكومات الدول النامية الأخرى بأنها تتحكم فى الصحافة ، ألم تفعل وسائل الإعلام تلك ، الشىء نفسه ! وسائل الإعلام العالمية لا تسمح للحكومات المعنية بإبداء وجهة نظرها ، بل إنه يتم تشويه التقارير الصادرة عن الحكومة ، ويتمادون فى فبركة واختلاق قصص مشينة عنها .

إن حكومة البلاد منتخبة من قبل الشعب فى انتخابات نزيهة ، وحاليًا هناك محاولة لإسقاطها من خلال مظاهرات الشوارع ، وطرق أخرى غير ديمقراطية ! كيف تساند إذن وسائل الإعلام مثل هذه المحاولة وفى الوقت نفسه تتحدث عن الديمقراطية؟ ساندوا المعارضين للحكومة بكل السبل ، ولكن على وسائل الإعلام ألاّ تدافع عن الإطاحة بالحكومات بطرق غير ديمقراطية ، لا أعرف ما يحدث فى البلاد الأخرى ، ولكن المعارضة يمكن أن تفوز فى ماليزيا ، وتتولى تشكيل الحكومة ، وأنا شخصيًا خسرت الانتخابات من قبل ، وربما أكون الديكتاتور الوحيد الذى يستند إلى الانتخابات ، قبل إملاء رأيه .

فى صياغة التقارير الإخبارية المشوهة والمحرفة فإن وسائل الإعلام لا تخدم عملائها ، وهذا يحدث أيضًا بالنسبة للتقارير والمجلات الاقتصادية ؛ فالتحليل يتم على أساس جدول أعمال وسائل الإعلام المعنية وإن لم يكن ذلك من أجل مصلحة بلد معين لأى سبب من الأسباب ؛ فإنها تستخدم المعلومات غير الصحيحة لإفساد هذا البلد ! وعند ذلك يتجنب السائحون والمستثمرون هذا البلد ، وكأنها وباء ! ويحدث كثيرًا ، ونتيجة لتلك المعلومات

المغلوطة أن يسوء اقتصاد البلد ويفشل ، ويتحقق كل ما هو متوقع من اضطرابات وعدم استقرار .

نحن نعيش فى عالم يزداد انكماشًا ، ونحن جيران متقاربون فى قرية كونية ؛ لذا يجب علينا أن نستغل هذا الاقتراب فى تنمية حسن الجوار كما يحدث عادة فى القرى وعندئذ سيتحقق الخير ، لا يجب أن نفقر جيراننا ، بل يجب العمل على رفاهيتهم ، والعمل على رفاهيتهمّ لا يكون على حسابنا ، بل بالمساعدة المتبادلة ، حيث تمتد الثروة وَيقتسمها الجميع ، ولسنا فى حاجة إلى لعبة الناتج صفر ، أو الربح على حساب الخسارة للآخرين ! وهذا ما يؤمن به تجار العملة فى إفقار الآخرين ؛ حتى يجنوا الثروات لأنفسهم ، وهو أسلوب غير شريف فى أداء الأشياء وخاصة عندما يكلفهم الشرف والحرص لا شىء تقريبًا .

إن لوسائل الإعلام دورًا مهمًا هنا ؛ فيمكنها تنمية المفاهيم الإيجابية لمعنى حسن الجوار ، ويمكنها المشاركة فى تشكيل ثقافة عالمية جديدة ؛ هى ثقافة المشاركة ، ثقافة تجعل هذا العالم قرية كونية ؛ قرية يسود فيها حسن الجوار والاهتمام المتبادل ، هكذا يمكن أن تساعد وسائل الإعلام فى تحقيق السلام والنوايا الحسنة .

نعم ، يجب أن يكون هناك الحق فى المعرفة ، لكن معرفة الأفكار الداخلية للأطراف المتصارعة وإذاعتها فى جميع أرجاء العالم فلن يخدم السلام ولن يحقق رفاهية للعالم ! خاصة وإذا كانت تلك الأفكار الداخلية غير مجدية وغير مفيدة . إننا نعلم جميعًا أن لدينا أفكارًا رديئة حتى عن أفضل أصدقائنا ، ولكننا نظل أصدقاء حميمين عندما لا نفصح عما يدور فى خَلَدنا عنهم ، لاداعى لأن يعرفوا ذلك ، ربما يكون فى ذلك بعض النفاق ولكن ذلك كله مفيد للجميع .

هل حقًا نريد أن نعرف كل شىء؟ وهل هناك حاجة حقيقية فى أن نعرف؟ ألم تخترع وسائل الإعلام هذه الحاجة ؛ حتى تبرر الكثير من قصص افتعال نشوب الصراع؟

دعونا نفكر ثانية . كنا نظن أن الإنترنت ستمكّن كل فرد من تصحيح الحقائق فى التقارير الإخبارية التى تبثها وسائل الإعلام ، ولكننا الآن نرى أكاذيب تنتشر من خلالها . ومرة أخرى يساء استخدام ثمار التكنولوچيا المتطورة ، ويبدو أننا لا نتعلم أبدا !

فمن السهل أن نصاب بالإحباط ؛ لأننا لن ندخل القرن الجديد والألفية الجديدة بالأسلوب الصحيح ؛ ويبدو كأننا نحمل معنا حقائب شرور وآثام الماضى وكذلك المفاهيم الخاطئة إلى القرن الجديد ، ويبدو جليًا أن القرن الجديد لن يكون أفضل من هذا القرن الذى نتركه خلفنا ؛ لأنه قرن شهد حربين عالميتين قتل فيهما قرابة ٢٠٠ مليون نسمة ، وانتشر الفقر والجوع على نطاق غير مسبوق .

لقد طور التقدم التكنولوچى التى صنعناه من قدرتنا على التدمير ، ومن المفترض أن تكون القنابل النووية ، والأسلحة الكيماوية قد وضعت حدًا لجعل الحروب هى السبيل الوحيد لحل النزاعات بين الأمم ، ولكننا بمهارة جعلنا هذه الأدوات «آمنة» كما يبدو ، وفى الوقت نفسه اخترعنا أسلحة أفضل من أجل مزيد من القتل المؤثر !

ومع كل ذلك ، فما دور وسائل الإعلام؟ دورها يقتصر على مجرد تقديم وتحرير التقارير الإخبارية ، أو ربما إثارة الصراعات والعمل على زيادة حدتها ، أو للعمل من أجل عالم أفضل . ولأن وسائل الإعلام قوية ، وفى معظم الحالات أقوى من الحكومات ورجال السياسة . فإن بمقدوركم أن تصنعوا ، أو أن تحطموا أى فرد أو أى شىء ! قد لسنا عملكم ، ولقد سردت عليكم قصصًا تبين سطوة الإعلام ؛ عليكم أن تعيدوا النظر فى الدور الذى تقومون به ؛ فإن لديكم القوة التى أرجو أن تستخدموها بحكمة من أجل مستقبل البشرية .

٣- عقلٌ جديدٌ لعصرٍ جديدٍ *

تأتى أوقات فى حياة الناس كما تأتى فى حياة الأمم ، عندما تحدث أشياء عديدة ويمرون بخبرات متفرقة كثيرة ، لدرجة أن مستقبلهم يتبدل تبدلاً شديداً ، ولا يمكن أن يعودوا إلى مثل ما كانوا عليه . عاشت معظم دول آسيا مثل ذلك الوقت مؤخراً وإلى الآن ، ولن ينسى كثير من الآسيويين طيلة حياتهم ما عانوه ، وما مروا به من تجارب ومحن هم وأسرهم خلال السنتين الماضيتين .

ومن الصعب نسيان الذين أظهروا مشاعر الشفقة والمواساة لنا ، ولا الذين شاركونا بؤسنا وآلامنا ، كما أنه من الصعب أيضًا أن ننسى الذين ضحكوا فى وجوهنا ، والذين استمتعوا لوجودنا فى تلك الحالة من الخيبة والهزيمة أولئك الذين تشفُّوا ، ولم يظهروا أية مشاعر للمواساة لعذابنا النفسى الشديد ، ولن ننسى أولئك الذين تلوا علينا مراراً وتكراراً تلك النصوص المقدسة عن التحرر بصوت مرتفع ؛ حتى أنهم غطوا على أصوات الأنين وصرخات المحنة والكرب المتصاعدة من شوارعنا . كما أنه من الصعب أن ننسى أيضًا الذين أطلقوا ضحكات الشماتة علنًا ، والذين لم يراعوا الألم النفسى الرهيب الذى مررنا به ، بل ضربونا على رؤوسنا بالألواح المقدسة التى نقشت عليها وصاياهم المقدسة عن افتتاح السوق .

ومن الصعب أن ننسى أولئك الذين أصروا مراراً ، وتكراراً وألحوا علينا المرة تلو الأخرى بأن الطريق لاسترداد عافيتنا والتغلب على محنتنا وخلاصنا مما نحن فيه من كرب يكمن ببساطة فى بيع الأشياء ذات القيمة المتواضعة التى تمتلكها الأسرة ، والتى أفنت كل

* الخطاب الرئيسى فى المؤتمر الدولى عن «مستقبل آسيا» الذى نظمته «نيهون كيزاى شيمبون» فى العاصمة اليابانية (طوكيو) فى ٣ يونيو ، سنة ١٩٩٨م .

حياتها فى كسبها ، أولئك الذين أصروا على أننا لابد من أن نبيع بأسعار بخسة ؛ منازلنا ومصانعنا وبنوكنا ، نعم ، معظم تلك الأشياء وخاصةً البنوك ! ! إنه شيء غير معقول أن يتوقع الناس العاديون منا أن نعتقد أن كل شيء سيكون على ما يرام ، لو أننا وافقنا فقط على بيع بنوكنا بأسعار بخسة ، وقد حرضنا الكثيرون دون خجل على البيع حتى ولو أدى الأمر إلى التضحيــة بعدد من الناس وإلقائهم فى النار ، فذلك من أجل أن تظل النار موقدة !

من الصعب على الكثير منا خاصةً فى آسيا أن ننسى أولئك الذين أصروا بشكل مقزز على رؤية الدماء تسيل ، بينما ننهال بمعاول الهدم على بنوكنا وشركاتنا ، ونركع فزعين ومستسلمين لليأس والهزيمة ، قبل أن يؤمنوا أننا كنا جادين فى إصلاح إدارة اقتصادنا .

لن ننسى أولئك الذين التصقوا بتعاويذهم المقدسة واعدين برفاهية اقتصادية ستتحقق لنا ! لو أننا أطعنا بتواضع ورضينا بالجزاء والوعيد الإلهى ، ولو فشلنا فى إدراك حكم المال وقضائه وجبروت السوق وسطوتها ، تلك الآلهة التى تعلو وتفوق كل شيء ، وننسى حقوق الإنسان فى العمل ، وفى الطعام للموائد الجائعة وننسى حق الأطفال فى التعليم ، وتوفير الدواء للمرضى والبسطاء ، والحاجات الأساسية للإنسان كالأمن فى الشوارع ، والعيش فى سلام مع الجيران ، والحرية الشخصية والحفاظ عليها من أعمال العنف والفتنة والشغب . . . . الحق الوحيد فى نظر أولئك هو لتدفق رأس المال وحق الاستغلال من خلال خفض قيمة العملات ! !

ومن المهم ألاَّ تنسى آسيا الأخطاء التى ارتكبت فى السنوات الأخيرة . لقد كنا مذنبين كلنا فى أشياء كثيرة بطريقة أو أخرى ، ولا يوجد بيننا من هو برىء تمامًا ؛ كلنا ارتكبنا أخطاء جسيمة ، فالبعض منا انقاد وراء نصائح بعينها من وكالات عالمية شهيرة قوية ! !

علينا أن نتأكد جميعًا من أننا لن نكون ضحايا مرة أخرى للوفرة غير المنطقية التى رفعت أقدامنا بسهولة من فوق أرض الواقع ، وجعلت أكثرنا حكمة وأكثرنا تواضعًا ينسى طريقة مشيه وموضع قدمه ، بل والإدراك العام والفهم الواضح البسيط ، وبالمصادفة فإننا

نحن فقط فى شرق آسيا الذين عانينا من هذا الداء . والوفرة واللامنطقية التى تدفع مؤشر وول ستريت مختلفة بالطبع . ومع ذلك جدير أن نتذكر قدماء الإغريق الذين كانوا يعتقدون بأن أولئك الذين ترغب الآلهة فى تدميرهم تجعلهم مجانين أولاً ، وفى العصر الحديث بالذات فإن أولئك الذين يَودُّ الله أن يدمرهم يجعلهم يشعرون بالخفة والحيوية بشكل جنونى ، مما يجعلهم يؤمنون بأن من يرتفع إلى أعلى لن يهبط إلى أسفل ثانية !!

وعندما نفكر فى الأزمة الطاحنة التى مررنا بها فى آسيا نجد لزامًا علينا أن نتذكر أصدقائنا الذين وقفوا إلى جوارنا فى وقت الحاجة .

وفى هذا المقام أود أن أسجل عرفانى وامتنانى الشخصى ، وكذلك امتنان وتقدير الشعب الماليزى ليد العون التى امتدت من اليابان من خلال خطة «ميازاوان» وخططٍ أخرى كثيرة ؛ فاليابان لم تكن صديق الرخاء والظروف المواتية ، بل إن اليابان صديق لا يقدر بثمن ، صديق الشدة والأوقات الصعبة ، فلن ننسى موقفها معنا ما حيينا . . وكما أود أن أشكر الصين أيضًا لرفضها تخفيض قيمة عملتها ، رغم أنها قدمت منتجات أقل تنافسًا من منتجات جنوب شرق آسيا ، ولقد تأثر نمو الصين ، بل وزادت البطالة ، ولكنها حافظت على ثبات الأوضاع ولم تجعل الأمور تزداد سوءًا بالنسبة لسكان جنوب شرق آسيا .

وقد أصبح واضحًا للجميع هنا تقريبًا أن الأيام السيئة قد مضت وانتهت ، واتضح أمامنا جميعًا أننا قد بدأنا السير فى طريق التعافى ، وبخطوات ثابتة . وفى الوقت نفسه ، نجد أنه مازال أمامنا ، وبشكل شديد الوضوح ، طريق طويل يجب علينا أن نجتازه ؛ حتى نتأكد من أننا بدأنا استئناف أسرع نمو اقتصادى فى تاريخ البشرية .

ولكى نؤكد عودة التاريخ واستئناف هذا النمو المستدام ، نجد أنه من الضرورى ، بل والجوهرى أن ننجز ثلاثة أمور لابديل عنها ؛ **أولاً** : يجب أن نبنى قوانا . **ثانيًا** : يجب أن نستمر فى عملية الإصلاح والتحول وابتكار صياغة مجتمعاتنا . **ثالثًا** : يجب أن نُنحِّى جانبًا الافتراضات والأفضليات ، ونكون براجماتيين تمامًا ، هذا لو أردنا تأكيد العودة للنمو

المستدام . يجب أن نزيح من طريقنا أبقارنا المقدسة ، ونؤكد أوثق الالتزامات للقطة عديمة اللون ؛ وعمل ما هو صالح لنا .

دعونى ألخص بإيجاز ما أعنيه : هناك حركة كبيرة اليوم للتجانس مع المعايير القياسية ، والعمل الموحد لتأكيد الاندماج مع الآخرين .

وبلغة الاقتصاد - هناك حركة هائلة - عن عمد وتلقائية ؛ منسقة وغير منسقة لتحويل كل الاقتصادات الآسيوية - كل الاقتصادات بالفعل - إلى اقتصاد «دعه يعمل» أو ما يمكن تخيله بأن يكون اقتصاد السوق الأنجلو ساكسونى ، اقتصاد دعه يعمل .

وبلغة السياسة - هناك حركة هائلة متعمدة وغير متعمدة ، منسقة وغير منسقة لتحويل كل الأنظمة الآسيوية فى الواقع وكل الأنظمة السياسية فى كل مكان إلى ديمقراطيات ليبرالية أنجلو ساكسونية ، أو ما يمكن تخيله بالديمقراطية الليبرالية الأنجلو ساكسونية .

لا أود أن أكون حبيس هذه الموضوعات ؛ لأننى أعتقد أن ذلك من عمل الأبنية العملاقة والثابتة القوة فى هذا الزمن من تاريخ العالم . المؤرخ اليونانى القديم وهو أقدم مؤرخ فى التاريخ ويدعى «ثيوسيديدس» كتب قبل أكثر من ألفى عامٍ أن فى تاريخ شئون الأمم ؛ أن الأقوياء يطلبون ما يريدون ، والفقراء يجب أن يستسلموا لما يُفرضُ عليهم ! ربما يأتى يوم علينا (نحن وعالم الأنجلو ساكسون) نحاول فيه جميعًا أن نصبح سويديين ، أو صينيين ، أو نيچيريين ، أو برازيليين ، ربما يأتى اليوم الذى نحاول فيه أن نتطابق مع الأنظمة الاقتصادية والسياسية ، وتفضيل السويديين ، أو الصينيين ، أو النيچيريين ، أو البرازيليين ، أو حتى اليابانيين ؛ لأنهم أصبحوا الأقوياء .

ولا أود أن أكون حبيس هذا الموضوع أيضًا ؛ لأنى أعتقد أنَّ الأنجلو ساكسون وآلاتهم على صواب ، أو شبه ذلك فى الأساس . ويبدو واضحًا لى أن النظام الأنجلو ساكسونى مع

كل أخطائه ، وكل أخطاره الناجمة عن فشل السوق ، ومع كل الصعوبات فى إدارة أنظمة السوق والتطور الذى يستغرق وقتًا وغالبًا ما يمر بمرحلة اقتصاد سوق «تشارلز ديكنز» ، مع كل النقائض والعيوب التى تعتريه ، فإن نظام السوق الذى يسير على هدى الضمير الاجتماعى هو بدون شك أكثر الأنظمة التى ابتكرتها البشرية إنتاجية وعدالة لإنتاج السلع والخدمات الاقتصادية .

ويبدو واضحًا لى أن الديمقراطية مع كل أخطائها وكل الأخطار الناجمة عن الفشل فى التطبيق ، ومع كل الصعوبات المصاحبة لها وبالرغم من حقيقة أن الديمقراطية الجيدة تستغرق وقتًا حتى تأخذ مسارها الصحيح ، مع كل تلك العيوب للديمقراطية إلا أنها أكثر الأنظمة عدلاً وإنتاجية وتمدينًا حتى الآن من أى نظام آخر ابتكرته الإنسانية لحكم الإنسان على الأقل على مستوى المجتمعات والأمم ، وألاحظ أنه لم يقترح أحد مؤخرًا أنه يجب أن ينتخب العمالُ كل رؤساء الشركات التنفيذيين فى المشروعات وفى كل مكان فى أنظمة السوق الديمقراطية الليبرالية ، فمن المفترض أن أية مجموعة من الناس ، أو المؤسسات التى تسمى حملة الأسهم ، أو أغلبية حملة الأسهم الذين لا يسهمون إلا بالقليل فى الأعمال اليومية للشركة يجب أن يقرروا من يدير المؤسسة ! هذه الأفكار ليست كلها ديمقراطية على قدر ما أفهمه جيدًا ، أنا لن أذكر الأمم المتحدة ، حيث لخمسة أعضاء قوةً تفوق قوة مائة وثمانين عضوًا .

وفى التحليل النهائى لو أننا مستنيرون وعقلانيون ، لكان من واجبنا أن نتأكد من أننا جميعًا ديمقراطيون نمارس نظام السوق .

وبعد أن قلت كل هذا أجد أنه من الضرورى أن أقرر أننى لا أستطيع أن أتخيل أن اليابان ستنعم برفاهية شاملة فى المستقبل وناجحة ، كما كانت فى الماضى ، إذا ما قررت أن تؤسس وترسى داخل شواطئها نظام السوق الموجودة فى الولايات المتحدة واستراليا وبريطانيا العظمى ، لا أستطيع تخيل أن تنجح سنغافورة نجاحًا عظيمًا كما كانت فى الماضى

لو أنها تبنت الأنظمة السياسية والاقتصادية برمتها كما هى تمامًا فى الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى أو استراليا ، مهما كانت تلك الأنظمة محط إعجاب البريطانيين والأمريكان والاستراليين !

يجب أن نتبنى أفضل ممارساتهم بالتأكيد وخاصة تلك التى ستعود علينا بالخير الوفير ، هناك أشياء كثيرة جدًا تقوم بها ولكنها بشكل لا يصدق أدنى بكثير وأقل إنتاجية ، بل ومعوقة للإنتاج ويجب أن تقتلع كلها من جذورها ، وفى الوقت نفسه يجب علينا أن نتمسك هنا فى آسيا بكل ما هو جيد ومنتج .

أنا لا أقول إن المنافسين لنا حاليًا ، وفى المستقبل يحاولون عن عمد جعلنا مثلهم ؛ حتى يضعفونا ويسهل عليهم أن ينافسونا بوصفهم اقتصادات ومجتمعات . وأعتقد أنه ضرب من الجنون أنّ نحاول التخلص من قوى الماضى والتى ستستمر لتكون قوانا فى المستقبل ، وسوف تكون غلطة ذات أبعاد تاريخية عندما نصبح واهنى العزم ضعاف الإرادة ونترك قيمنا الأسرية ونصبح منحلين ، نتخلى عن ثوابتنا فى التناغم وإجماع الرأى ، ونترك التزامنا بالمدخرات العالية ، العمل الجاد ، وأن نبتعد عن ثوابتنا المرضية عن التعليم ، ونهجر إيماننا بالتضحية الشخصية فى حد ذاتها إلى التضحية الشخصية لصالح العائلة والجماعة والأمة .

أنا لست من المؤمنين بأن التضحية بالنفس هى لعبة الساذج المغفل ولا أعتقد أن الوطنية كلمة مشينة .

وبعد هذا الجدال ، ومثل أى محافظ صالح دعونى أناقشكم مثل راديكالى صالح ؛ إن بناء قوانا لا يعنى الاستناد إلى أكاليل الغار أو التشبث بأهداب الماضى ، أو حتى قوى الماضى التى لم تعد منتجة تمامًا فى رحلتنا إلى المستقبل ، إلى القرن الجديد والألفية الجديدة .

وفى الأيام المقبلة لابد من مواصلة الإصلاحات المطلوبة وإعادة بناء اقتصاداتنا وكل

جانب مهم فى مجتمعاتنا . ذلك ما قمنا به على مدى جيل ، وهو ما ينبغى علينا أن نستمر فيه على مدى المائة عام القادمة .

ولكى لا ينسى أحد ، فإن آسيا اليوم ليست هى آسيا التى كانت قبل عشر سنوات ، وهى مختلفة تمامًا عما كانت عليه قبل عشرين عامًا . آسيا اليوم تختلف بشكل لا يمكن تبينه عن آسيا قبل خمسين عامًا ، فأنتم فى اليابان تعرفون أنكم تستطيعون قول هذا عن اليابان ، دعونى أؤكد لكم أنه يمكنكم أن تقولوا الشىء نفسه ليس عن اليابان فقط-، بل عن آسيا بأكملها ! وذلك لأننا أصلحنا وأعدنا تحديث أنفسنا مرة أخرى وأخرى حتى وصلنا إلى ما نحن عليه الآن ، ومن الواضح تمامًا أننا يجب علينا الآن أن نقوم بالوثبة الكبرى العظيمة التالية ، وهى مهمة أصبحت أكثر سهولة بسبب الأزمة التى تجاوزناها .

ونتيجة لما مررنا به ، فمن الواضح أن الحكومات لا يمكن أن تقف بمعزل وتترك الأسواق تعربد كما تشاء ، هناك الكثير من السحر فى السوق وكثير منه فى اليد الخفيه ولكن غالبًا ما تبذل هذه اليد الخفية أقصى جهدها عندما تمد إليها المساعدة يد الجهات الحاكمة المستنيرة ، سواء من البنوك المركزية والوكالات المنظمة ، أو من الحكومات ، أو من كل ما سبق معًا .

هناك الآن العديد ممن يؤمنون أن الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى ضربت اقتصادات التنانين والنمور فى السنتين الأخيرتين هى نتيجة الضعف الشديد فى كل من اقتصاد النمر والتنين . هذا التفسير البسيط دقيق جدًا ، ومقنع جدًا إلا أنه غير معقول . وغير المعقول كذلك ما يردده خاصة الذين من خارج آسيا ويقولون : إن كل شىء هو من عمل الأصوليين ، والحقيقة هى أن الكثير مما حدث ليس نتيجة الأصوليات ، بل نتيجة العقليات الساذجة المضحكة ونتيجة الأشياء المضحكة التى تتخبط فى عقول الأذكياء ؛ فيتصرفون كحيوانات سخيفة فى القطيع .

ولو أن السبب فى سقوطنا الذريع أننا متعفنون حتى النخاع ، فمن المدهش ألاَّ يلحظ

أحد هذا حتى بدأت هجمات تجار العملة لتدمر عملاتنا ، وأصحاب البنوك المتشددين ومستثمرو أسهم السوق الأذكياء كانوا يصبون الأموال عندنا ، وكان البنك الدولى مازال يحمل باقات الزهور ويكيل لنا المديح حتى وقت وقوع الكارثة .

لو أن أسباب العجز والقصور كانت داخلية لاقتصادات التنانين والنمور فكيف أصبحنا جميعًا متعفنين فى الوقت نفسه؟ هجمات العملة وكل أشكال الانهيار المالى يمكن توثيقها يومًا بيوم ، بل ساعة بساعة ، وياله من توقيت محكم الذى ألمَّ بنا فى شرق آسيا ! تزامن دقيق ومحكم مثل إيقاعات فتيات الكورس ! !

إذا كانت أسباب الاضطراب والفوضى التى حدثت لاقتصادنا ناجمة عن التمسك بالثوابت والأصول فهناك أنظمة اقتصادية معترف على نطاق واسع بأنها من أحسن الأنظمة ومع ذلك ضُرِبتُ بشدة ، بينما هناك مائة نظام اقتصادى أسوأ بكثير من تلك التى ضُرِبتُ ومع ذلك فهى تنعم بسلام واستقرار !

معظمنا يدير شركات ، أو يعمل فيها ، دعونى أسألكم كيف ستكون الحال اليوم لو حدث أن انخفضت قيمة منتجاتكم إلى النصف؟ لأن قيمة العملات انخفضت فجأة ، ماذا ستكون الحال لو أن عبء ديونكم تضاعف؟ ماذا ستكون الحال لو أن معدلات الفائدة أصبحت أعلى مرتين أو ثلاث؟ ماذا ستكون الحال لو هبطت قيمة أسهمكم بنسبة ٩٠٪؟ ماذا ستكون الحال لو رفض أصحاب البنوك إقراضكم ولو سنتًا واحدًا لسد احتياجات من أجل الإنتاج؟

ولابد من أن نعمل فى آسيا من أجل إصلاح أساسى فى نظام النقد الدولى ؛ إصلاح يتعدى مجرد الكلمات المعسولة والمواعظ البليغة عن بنية النظام النقدى العالمى ، ومن المثير حقًا ملاحظة وجود أكثر من نيرون يعزفون على قيثارتهم فى آخر اليوم وشرق آسيا يحترق !!!

وفى مواجهة فشل العالم فى تحقيق ذلك يجب على كل أمة أن تحمى نفسها بقدر ما

تستطيع ، وليس أمامنا من خيار سوى إعادة هندسة عملية الإصلاح وإعادة توظيف واكتشاف أنفسنا ، وزيادة قوانا وتقليل ضعفنا .

لدينا مثل كل الأمم نقاط ضعف كثيرة جداً ، فشعبنا ليس خلاقًا ومبدعًا بدرجة كافية ، وتدريبه وتشغيله متدنى المستوى ، يجب أن نكافح المحسوبية ، ويجب مكافحة الفساد ، والقضاء عليه ، يجب تطوير وتحسين حكوماتنا ودولنا ومؤسساتنا ، يجب أن نكون أكثر شفافية وصدقًا ، ليس فقط مع المستثمرين الأجانب وأصحاب البنوك الأجنبية الذين يريدون أن يجعلوا عالمنا يناسب احتياجاتهم ورغباتهم ، نريد الشفافية والصدق مع حكوماتنا أيضًا ، ومع المستثمرين المحليين والبنوك ، ومع شعبنا ، إن جدول أعمال التقدم والتطور طويل جداً .

اسمحوا لى أن أضيف بضع كلمات عن الأمر الضرورى **الثالث** وهو : حاجتنا لأن نكون پراجماتيين تمامًا ، يجب أن نقوم بالأعمال المفيدة التى تدر علينا عائداً كبيراً ونترك وبسرعة الأعمال التى لا نفع من ورائها ، وأن نلزم أنفسنا بالقطة التى لا لون لها ، وكما قال أحد قادة هذا القرن : «ليس المهم أن تكون القطة بيضاء أو سوداء ما دامت تصطاد الفئران» .

فى مواجهة الأزمة الاقتصادية التى ضربت شرق آسيا فى مطلع الثانى من يوليو عام ١٩٢٧م ، جربنا فى ماليزيا كل شىء تقريبًا .

كانت شركاتنا تنزف حتى الموت ، وفى هذه المرحلة عندما كان بعضنا متأثراً فيها بصيغة مؤسسة النقد الدولى تبنينا والتزمنا بالعلاج التقليدى للمريض ، كانت شركاتنا تتنفس الصعداء ومشرفة على الموت ، لذلك كنا نشفط الأوكسيچين منهم ، ورفعنا معدلات الربح إلى مستويات تركتهم فى فراغ ، كانوا يحتضرون من شدة العطش ، لذلك أبعدنا الماء عنهم عندما تدنت مستويات الصرف والاستثمار والاستهلاك إلى الحضيض ، وبالرغم من سنوات كان فيها فائض الميزانية ضخمًا فقد خفضنا الإنفاق الحكومى لأكثر من ٢٠٪ .

والسبب المحورى فى تبنينا كل تلك السياسات الخاطئة ، هو أنهم قالوا لنا : إنها كانت سياسات خاطئة ولا ينبغى اتباعها ، وتعلمنا جيدًا تلك المذاهب المقدسة التى تعمل على توفير وتأكيد أكبر حرية ممكنة لتدفق رؤوس الأموال ، وكنا أسرى لمذهبنا الاقتصادى المستقيم ؛ تلك الاستقامة التى نجم عنها فى ماليزيا نظام من أكثر نظم حرية تداول العملات فى العالم ، أكثر حرية حتى من نظم تداول العملات الولايات المتحدة فى ٣١ أغسطس ١٩٩٨م !

وفى أول سبتمبر سنة ١٩٩٨م ، أعدنا الترشيد والبراجماتية ، وتم تفعيلهما وألقينا النصوص المقدسة ، وكذلك عقيدتنا الاقتصادية العقيمة فى البحر ؛ لإنقاذ بلادنا من الغرق ، وفصلنا عملتنا عن النظم العالمية للعملات ، لتكون بعيدة عن أيدى تجار العملة ، وثبتنا سعر الصرف عند ٣,٨٠ بالنسبة للدولار الأمريكى ، وأصبح بالنسبة للأجانب عملاً منافيًا للقانون إذا ما هم صدروا عائدات حصة استثماراتهم قبل الأول من سبتمبر ١٩٩٩م ، وكما تعلمون فقد ألغى العمل بالبند الثالث من التدابير الاحتياطية .

ولعدة شهور بعد الأول من سبتمبر ١٩٩٨م ، انهالت علينا الإدانة من رعاة الإصلاح الاقتصادى . وعلى الصفحات الأولى فى المجلات الإخبارية قيل : إننا أدرنا ظهرنا للعالم ، وانقطعنا تمامًا عن بقية العالم ، وقيل : إننا نغلق نظام السوق الحرة فى بلادنا وكل ذلك عندما قمنا بإغلاق المضاربة بالرينجت فى سوق الأوراق المالية ، المضطربة فى ماليزيا .

وبإغلاق المضاربة فى سوق الأوراق المالية ، تمكنا من القيام بكل ما كنا نحتاج أن نقوم به ولم يكن ممكنًا من قبل ، وتمكنا من خفض معدلات الفائدة بشكل هائل ، وشجعنا البنوك بقوة لاستئناف عمليات الإقراض ، وفضلنا اختيار التوسع فى السياسة المالية .

وحتى الآن فإن البراجماتية التامة التى بدأت فى أول سبتمبر ١٩٩٨م ، قد أسفرت عن نتائج درامية . ففى أغسطس ١٩٩٨م ، كان هناك شعور سائد بالإحباط واليأس بين مجتمع الأعمال . أمَّا الآن فقد تبدَّل هذا الشعور بالأمل والتوقعات العظيمة ، وتمسكت

الحكومه الماليزية بتوقعها بمعدل النمو بنسبة ١٪ لعام ١٩٩٩م ، وقال سالومون سميث بارنى : إن معدل النمو سيكون أكثر من ١٪ ويقول كل من مورجان ستانلى دين وتر وميريل لينش وجولد مان ساكس إن معدل النمو سيصل إلى ٢٪ بينما تقول أسرچى سيكيوريتيز : إن النمو سيصل إلى ٥ ,٢٪ . ويتنبأ كل من سويس كريدت فرست بوسطن وصندوق النقد الدولى أن ماليزيا ستنمو بمعدل ٣٪ فى عام ١٩٩٩م .

لا أود أن أجادل فى مسألة ضوابط العملة الانتقائية كالتى استخدمتها ماليزيا فى سبتمبر ١٩٩٨م ، أمفيدة هى لكل النظم الاقتصادية أم أنها مفيدة فقط فى الأوقات العادية ، فهناك شروط حتى يكون النجاح محتمًا ، وشروط تكون فيها ضوابط العملة وحتى الانتقائية منها كتلك التى فى ماليزيا يمكن أن تؤدى إلى كارثة ، فقد أخبرنا عددٌ من خبراء البنوك بأننا أول حالة تقابلهم لبلد تحاول أن تثبت – تقريبًا – سعر العملة ومستعدة للحفاظ على عملة منخفضة القيمة حتى فى موقف الفائض التجارى الضخم وفائض الحسابات الجارية . إن كل أنظمة ضبط العملة ماهى إلا محاولات للتحكم فى قيمة العملة الزائدة وغير المستقرة ، وقرار ماليزيا بخصوص استقرار سعر عملة منخفض القيمة يؤكد عدم فرار رؤوس الأموال ، ويؤكد على عدم وجود سوق سوداء للعملة الماليزية فى أى مكان فى العالم ، وبدلاً من أن نراقب التدفق الهائل لرؤوس الأموال خارج البلاد ، كان هناك تدفق كبير للأموال إلى داخل البلاد .

وبالرغم من أننى لا أوصى أحدًا بضبط العملة الانتقائى ؛ إلا أننى أود حقًا أن أؤكد على ضرورة تبنى البراجماتية مع سبق الإصرار والترصد لأى إنسان فى كل أرجاء العالم ، وتحت أى ظرف ، وأحد الدروس المستفادة من الأزمة الاقتصادية كان ضرورة اتخاذ موقف صارم تجاه مشكلة الثقة فى قدرات المرء وإمكانياته .

لقد تحدثت كثيراً عن الحاضر ، فاسمحوا لى أن أقول بضع كلمات عن المستقبل وعن الألفية الجديدة ؛ فكما تعرفون ، قبل ألف عام عندما كانت البشرية تتجه نحو الألفية الثانية ،

كان ما يسمى بالعالم المتمدن والمعروف بأوروبا ، فى قبضة اليأس فى ذلك الحين ، وكان رعاة الإصلاح وأبطال الاستقامة ، حراس الحقيقة آنذاك ، ورجال الدين المسيحى المتعلمون ، ثم شعوب أوروبا ، كان كل هؤلاء على قناعة بأن نهاية العالم ستأتى حتمًا بعد مولد السيد المسيح بألف عام بالضبط .

كان يوم القيامة يقترب وتوقفت الصناعة والتجارة ووهن الجهد الإنسانى ، عاش الكثيرون فى خوف تام من الأيام القادمة . فما الهدف من العمل والتخطيط والكدح من أجل المستقبل إذا كان العالم مشرفًا على نهايته؟ ومع اقتراب الألفية الثانية أصبح كل ما كان يمكن عمله هو الاستعداد من أجل تلك الرؤيا !

واليوم ونحن نقترب من الألفية الثالثة ، يظل كثير من الناس يقللون من شأن آسيا . ولسنوات عديدة ، كان الكثير من الناس يصفون اليابان بأنها ليست ميتة تمامًا كما أنها ليست على قيد الحياة تمامًا ! ومنذ فترة غير بعيدة وضع بقيتنا فى سلة مهملات التاريخ !

وكما توحى كلماتى ، فإنَّ الكثير من الناس فى آسيا يخشون على مستقبلهم ؛ ولذلك فهم حكماء ! واستمرارنا فى شكوكنا هذه يُعد قوة ! ولكن هذا وقت الأمل وزمن الأعمال البطولية .

يجب علينا أن نأمل فى غد أفضل وأكثر رفاهية لآسيا ، يجب أن نأمل فى عالم أفضل وأكثر رفاهية ، لابد من أن نعد أنفسنا ليوم الازدهار الاقتصادى ، وليس ليوم القيامة ونحن نقترب من الألفية الثالثة !

فى الألفية الجديدة علينا نحن الآسيويين أن نعمل بدأب وتصميم من أجل بداية جديدة ، ليس لآسيا فقط وإنما لكل العالم ، وهذه ليست مهمة آسيا فقط ولكنها مهمة العالم أيضًا ، مهمة للأمريكتين ولأفريقيا ، إنها واجب كل الأعراق والألوان على الكرة الأرضية ، لابد من أن نبنى مجتمعين ومتعاونين لأول مرة فى تاريخ العالم ، ثروة كونية واحدة - ثراء

ورفاهية للجميع ، حيث يتمتع كل أبناء آدم بكرامتهم تمامًا ، وينعموا بثمار العدل والجهد .

لقد ذكرت أبناء آدم فاسمحوا لى أن أكون حرفيًا أكثر من ذلك وأنهى ملاحظاتى بكلمات قليلة عن الشباب الذين سيلقى على كاهلهم واجب تأكيد بداية جديدة للإنسانية مع القرن الجديد .

أتمنى أن يتمكن شباب آسيا من أن يلقوا عن كاهلهم عبء حقائب التاريخ الثقيلة ؛ لأنها ستعوقهم عن المضى فى رحلتهم . يجب أن يفكر شباب القرن الحادى والعشرين فى أنفسهم بوصفهم مواطنين حقيقيين فى العالم ، ويجب أن ينسوا اللون والجنس وأفكار التفوق والنقص ويفكروا فى المساواة ليس بمفهوم الثروة المادية فقط ، بل بمعنى الاحترام المتبادل والمراعاة المتبادلة .

إن عالما بلا حدود يعيشون فيه لا ينبغى أن يكون بلا حدود فقط بالنسبة لتدفق المعلومات ولست أعنى (بمعنى بلا حدود) مفهوم المعلومات أو تدفق رأس المال ، ولكن ، بمفهوم العالم الحقيقى ؛ أى أن يكون بلا حدود بالمعنى الحقيقى وبمعنى الحدود التى نشيدها فى عقولنا .

ولابد من أن يُقيِّم الأفراد بقدر حجم إسهامهم ومضمون شخصياتهم ، بدلاً من مفاهيم شكل عيونهم ، ولون بشرتهم واتساع حافظة نقودهم ، أو الحرارة التى فى أيديهم !

اسمحوا لى أن أناشد شباب اليوم الذى عليه بناء المستقبل ، أن يؤكدوا أنه لن يكون هناك صدام حضارات ، دعونى أناشدهم أن يتطلعوا إلى الإحتفاء بالحضارات وليس إلى صدام الحضارات ، حيث يدعى كل الجنس البشرى لحضور وليمة فخمة عامرة بصنوف الطعام والشراب ، ويدعى كل البشر لهذه الوليمة ولا يحرم أحد ويختارون أنخابهم كما يحلو لهم .

يجب أن يفهم شباب القرن الحادى والعشرين تمامًا أن العالم مستدير وليس هناك

دولة شرقية ، أو غربية إلا بالنسبة لهم . يجب أن ينظروا إلى كوكب الأرض كله على أنه أرضهم ؛ وأنه بلد واحد ومحط ولائهم جميعا .

يجب أن يحافظوا على التقاليد والثقافات الوطنية ، ولكن عليهم أن يعلموا أن كل الثقافات والتقاليد متساوية فى الأهمية وتستحق احترام الجميع . واحترام كل جماعة بشرية .

إن معظمنا لم يعد شابًا إلا أن الشباب شباب القلب كما نعتقد . دعونا نتأمل ما شاهدناه وجربناه فى حياتنا والأشياء العجيبة التى حدثت لنا .

لقد نشأت فى عالم تعلم فيه الكثير من شباب آسيا معنى التحرر والحرية والديمقراطية فى قلاع المدنية ؛ فى لندن وپاريس وأمستردام ؛ حتى يعودوا إلى أوطانهم ؛ إلى الأراضى التى ظلت تابعة لدول أخرى ، ومستعمرة منها وسمعنا عن : الحرية ، وعن المساواة وعن الأخوة ، ولكننا عرفنا كثيراً عن الاستعمار الإمپريالى والسلطوية والديكتاتورية والحكم الشمولى لذلك اشتقنا وتلهفنا للحرية ؛ لأن معظمنا كان مكبلاً رغم كل شىء .

كانت هناك أشياء كثيرة مستحيلة ، مستحيلة بالنسبة للذين على شاكلتنا ؛ هؤلاء الذين يشعرون بالنقص وعدم اللياقة وعدم المدنية ، إن العالم الذى نشأت فيه كان عالما محدود الأمكانيات جداً ، وكنت حينئذ محظوظا لحصولى على تعليم مدرسى غير كاف ، لم أكن أتمناه لنفسى ولا لشعبى وكنت محظوظا ؛ إذ كنت على وعى ولكن غير كاف ، محدوداً بقدرتى وإمكانياتى ، لم أعرف كم أن ذراعى قصيرة ولم أكن أدرى شيئًا عن الأماكن التى لا أستطيع الوصول إليها !

شباب اليوم وبناة الغد لا يجب أن تفسدوا من جراء انعدام القوة ؛ كونوا متحمسين للعمل ، تقدموا واصنعوا عالمًا جديداً أفضل من العالم الذى بنيناه نحن أبناء الجيل السابق .

إن القرن الحادى والعشرين والألفية الجديدة فى انتظاركم .

٤- الاشتراكيّةُ والشيوعيّةُ والرأسماليّةُ والديمقراطيّةُ الليبراليّةُ *

يشرفنى اليوم أن أتحدث إلى نخبة مختارة من شباب آسيا والپاسفيك ومن دول أخرى ، فالكثير منكم سيكون من أفضل وألمع شباب جيله ؛ إنكم تدرسون فى أفضل وأرقى المؤسسات التعليمية فى العالم ، ومتفوقون فى دراساتكم ، ويجتمع فى هذه القاعة مجموعة من أقوى وأندر العقول المتطورة فى هذا الكوكب .

حقا إننى أغبطكم على شبابكم ومثاليتكم التى تتمتعون بها ، وأنكم مازلتم مؤمنين ولم يتسلل الشك إلى نفوسكم ، كما أنكم ما زلتم متحمسين ولم يعتريكم السأم ، وما زلتم مؤمنين أنكم قادرون على تغيير الأشياء إلى الأفضل ، ومؤمنون بأنكم قادرون على خلق عالم أفضل ، لستم مثلنا كما كنا منذ زمن طويل ، كم أنا مسرور بكم ؛ لأن الشباب لو فقد الأمل فلن يكون هناك مستقبل أبدا .

ولكن تذكروا أن بعض الشباب يمكن أن يفقدوا الأمل أيضًا ، حيث نرى زيادة مضطردة فى جرائم الأحداث ، ونسمع عن أطفال يقتلون أطفالاً آخرين ، بل ويقتلون آباءهم ! كما يتزايد عدد الشباب الضائع الذى يدمن المخدرات والجرائم بكافة أنواعها . ولكن الحمد لله والشكر لله فهؤلاء يعتبرون استثناءً ، أما الغالبية فمازالت قادرة على الإسهام فى تقدم الجنس البشرى ، وهم مسلحون بالعلم والمهارات بشكلٍ أفضل من شباب الأمس بكثير ، وبالتأكيد فهم يتمتعون بقدر وافر من المعلومات أفضل ممن يكبرونهم سنا ؛ فهم أقل قيدًا ، ويتعاملون مع أدواتهم الجديدة القوية بلا خوف ولا تنقصهم الثقة بقدرات هذه

* قدمت هذه الورقة لمشروع (هارڤارد) - ١٩٩٨ - الخاص بمؤتمر العلاقات الدولية والآسيوية ، كوالالمبور- ماليزيا فى ٢٨ مايو ، ١٩٩٨م .

الأدوات ، ويعتقدون أن كل شيء ممكن . .

لذلك سيمكنكم الإسهام بنصيب وافر في ثروة المعرفة الإنسانية وتقدمها ، وسيركز الكثير منكم على العلم ، ويكتشف علاجات لأمراض مستعصية وستتغلبون على الحواجز الفيزيائية وتنقبون عن العلم في عوالم جديدة غريبة على هذا الكوكب ، والفضاء الخارجي ، وسوف تسبحون في الفضاء وتقابلون غرباء لهم عيون كثيرة ، وأنوف وآذان مختلفة ويتكلمون من نهاية القنوات الهضمية ، ويمشون على أيديهم ويمتصون طاقتهم من البيئة المحيطة بهم من خلال مسام في أجسامهم ، سوف تتحاورون معهم بلغات غريبة وتسهمون في زيادة المعارف الإنسانية .

ولكن سيظل بعضكم غير علمي ، تهبون أنفسكم للفنون لإنتاج كل جميل للعيون وللآذان ، وغيرها من الحواس . ستكتبون الشعر وترسمون اللوحات وتنحتون أشكالاً غريبة ، فأفكاركم عن الجمال ستكون ثورية تمامًا ، والقبح يصير جميلا وبألوان جديدة تخلب الأبصار ، وأصوات جديدة تهدئ أعصابكم ، أو تدفعكم لحالة من الجنون المؤقت ، سيتغير الفن بالفعل وما هو جديد اليوم سيصبح من الكلاسيكيات ، أو ربما يطويه النسيان .

وبطبيعة الحال لن نفهمكم ، سنكون المربعات ، أو الأشكال السداسية التي لن تناسب عالمكم ولكننا نعلم أنكم أيضًا ستهرمون وتصبحون المربعات والأشكال السداسية التي لن تناسب الأجيال التي ستتأتى بعدكم ، هذه سُنة الحياة ، نحن نتغير ، أفكارنا ومفاهيمنا تتغير ، والشيء الوحيد الذي ينبغي أن نقرَّ به هو أن إيقاع التغير سيكون أسرع ، والحياة ستكون محمومة أكثر فأكثر ، لن تكون هناك حياة مستقرة .

ومع كل ذلك أتمنى ألاَّ تتغير القيم الإنسانية وإن تغيرت فلتتغير حيث يظل البشر آدميين وأكثر إنسانية ، وتسود قيم الرحمة والمواساة وتقدير مشاعر الآخرين والشفقة والحنو على الغير والتمسك بالعدالة واللعب النظيف والرعاية والإحسان .

وبرغم أن التاريخ يسير فى اتجاه خطى مضطرد وكأنه لا يعود إلى الوراء ، إلا أننا نتحرك للأمام وإلى الخلف فى الواقع ونتأرجح مثل البندول ! فنحن نتقدم ، ثم نتقهقر ، نسرع ، ثم نبطئ ونتراجع ويحدث هذا أيضًا مع القيم والنظم الإنسانية .

كنا نعيش أحرارًا منفردين فى بداية الأمر ، ثم نشأت الأسرة ؛ نمت وامتدت وأصبحت عائلات فى مجتمعات صغيرة ، ثم بعد ذلك مجتمعات أكبر ومن هذه المجتمعات مَنْ ظل على حاله ولم يكبر ؛ لأنهم يفتقدون مهارات التواصل والعيش فيما وراء مساحة محدودة ، ثم انقسموا وتفرقوا إلى جماعات صغيرة وعاشوا فى قرى قبلية يحكمها نظام بدائى من زعماء القبائل ، الأقوياء هم الذين حكموا ووضعوا قوانينهم غير المكتوبة ، وطردوا مَنْ يتحداهم ، أو أولئك الذين لا يذعنون لحكمهم !

ولكن بعض المجتمعات التى نمت وتطورت بشكل دائم تحكمها عادات وقواعد وقوانين مركبة ، وبرز نظام إقطاعى مقام على أساس حكم وراثى مقدس ، كان للملوك الإقطاع وسادتهم فيه كل الطاعة والإذعان ، وكان هناك مقابل ذلك قانون ونظام حفظ المجتمع من الفوضى والحاجة للخضوع لعدد كبير من الأقوياء بأساليب اعتباطية ، أصبحت الحياة نسبيًا آمنة للناسِ العاديين وآمنين شر المتصارعين على الحكم ، ولما بحث الناس عن زعماء متفردين ؛ للعيش فى كنفهم تحول هؤلاء الزعماء إلى ملوك وأباطرة مستفيدين من ولاء رعاياهم فى استبعاد الآخرين وتوسيع نطاق النظام الإقطاعى ، ولكى يأمنوا شر شعوبهم ولا يتعرضون لهجوم الناس اخترعوا فكرة : أن الملك لا يمكن أن يخطئ ، وأنه فوق القانون ؛ لأنه ظل الله على الأرض ، عندما بدأ الناس فى اعتناق الأديان !

بما إن الملك لا يخطئ ، إذن فالخطأ الذى يرتكبه لابد من أن يكون صوابًا ، وأصبح أكثر استبدادًا وطغيانًا ، وحكموا بالإرهاب واغتصاب ثروات رعاياهم وحولوهم إلى عبيد ، ومارسوا قوة الحياة والموت عليهم .

تأرجح البندول مارًا بالمركز ، ثم ابتعد وابتعد كثيرًا عن المثالية ؛ فالملك الحامى واهب

القانون ، ناشر العدل وأصبح الملك والملكية مرادفين للظلم والقهر .

ومنع الخوف المعارضة ، وتم تصفية القلة التى جرؤت على الاعتراض وساد الخوف وعم الإرهاب ، وظهر الشجعان من الرجال لكي يتحدوا ويتصدوا ويواجهوا بشجاعة التهديدَ بالموت ، بل واجهوا الموت نفسه ، وتجمعت قوة الدفع وانعكست حركة البندول ، وأحييت عدة مرات فكرة الملك المثالى ، ولكن سرعان ما عادت الملكية الطاغية المتطرفة فى طغيانها ، وأخيرًا تم التخلص من الملكية والنظام الإقطاعى وحل محلها حكم الشعب ، ولكن كانت هناك أعداد كبيرة من الناس ! إذن فلابد من أن يحكم فرد ما أو مجموعة ما من الشعب واخترعت الديمقراطية الليبرالية والاشتراكية والشيوعية حتى يتم تفعيل حكم الشعب .

منحت الاشتراكية العمال حقوقًا ، ولكنهم أساءوا استخدام تلك الحقوق ، وعانت الدولة وآلت إلى زوال ، وأتاحت الشيوعية الفرصة لظهور ديكتاتورية البروليتاريا ولكن الديكتاتورية هيمنت على تلك الطبقة الكادحة وأصبحت الدولة تعنى قلة من الناس استولت على الحكم باسم البروليتاريا وقمعت كل أفراد الشعب ، واستنفدت كل ثروات البلاد ؛ فأصبح الشعب فقيرًا ومستغلاً كما كان دائمًا !

وفى النهاية وبعد مائة عام تقريبًا من الولاء والخضوع لنظام فرض الظلم والقهر . سقطت الاشتراكية والشيوعية وانتصرت الديمقراطية الليبرالية ، والسؤال الآن ؛ هل ستتمسك الديمقراطية الليبرالية دائمًا بالنزاهة والتجرد والإخلاص للعدالة والممارسات النظيفة؟

لقد انطلقت الديمقراطية الليبرالية من الرأسمالية الصاخبة ، وفى مواجهة تحديات الاشتراكية والشيوعية ، كانت تمثل وجهًا ودودًا ، وكبحت جماح الجشع المستشرى وفرضت الضرائب على الأرباح ؛ حتى يستفيد منها أولئك الذين لم يكن لهم حظ وافر فى الماضى وكُسر الاحتكار واعتبر عملاً غير قانونى ، ثم أُدخلت القوانين والقرارات المنظمة

لتمنع أى سوء استخدام لنظام السوق الحرة . وأعطى العمال حق المساومة مع أصحاب العمل من خلال ممارسة حق الإضراب ، وأخيرًا تمكن الناس من اختيار أفضل الممارسات الديمقراطية التى تناسبهم ، كل ذلك بينما كان الخوف من الشيوعية خاصةً هو الذى جعل الرأسمالية المتطرفة فى حالة دفاع مستمر عن نفسها بطريقة منظمة ، وتحت السيطرة . وللمحافظة على الرأسمالية من الفناء فقد تغير الاسم ، فتمَّ إعلاء مكانة السوق الحرة ؛ حتى تظل الرأسمالية على قيد الحياة فى بيئة تحت السيطرة ، ومما كبح جماح جشع الرأسمالية وجعلها تذعن لحكومات الشعوب ؛ هو ذلك التهديد والتحدى المستمر من الاشتراكية والشيوعية .

لكن الممارسات الخاطئة وإساءة استخدام مبادئ وقيم الاشتراكية والشيوعية هو الذى أدى إلى فقدان الثقة فيها ، ثم هزيمتها ، وبذلك أصبحت الرأسمالية المؤسسة على نظام السوق الحرة طليقةً ولا ينافسها منافس ! ولم يعد هناك حاجة للوجه الودود ، وظهر من خلف قناع الود هذا الوجه القبيح الحقيقى للرأسمالية بلا رادع ولا قيد يحده ! لقد استجمع البندول السرعة الكافية وتغلب على كل العقبات القديمة التى كانت تحد من حركته . ولم تعد الرأسمالية السافرة تخشى الحكومات ، أو أى مؤسسات دولية ولا أى شخص فى هذا الشأن .

وهذا ما نشهده اليوم . فقد تنازلت الحكومات عن دورها لصالح أولئك الذين يتحكمون فى رأس المال ، ومن الآن فصاعدًا سيحكم العالم هؤلاء الذين يتحكمون ويملكون المال وليس لهم سوى هدف واحد ؛ هو أن يمتلكوا المزيد منه ولو أدى الأمر إلى الإطاحة بحكومات للوصول لهذا الهدف ، تلك هى الأيديولوچية الجديدة ؛ وهى القوة الوحيدة ولا يسمح بوجود أى قوة أخرى معها ! ولا يمكن السماح بأى شكل من أشكال المعارضة ! ومع ذلك وحتى تستمر فى إخفاء وجهها القبيح فالاسم الجديد الذى خلعته الرأسمالية المطلقه على نفسها ؛ هو : «قوى السوق» .

وفى ذروة العصر الإقطاعى كانت الإمبراطوريات تشيد إما بالغزو ، أو بالزواج بين العائلات الحاكمة ، وفى هذه الحقبة الجديدة فإن مكتسبات الرأسمالية التى لا حد لها وعمليات الدمج تحقق الأهداف نفسها ، وبدلاً من الدول الإمبريالية أصبح هناك الآن إمبراطوريات الأعمال التجارية ؛ فالبنوك الكبيرة تمتص البنوك الصغيرة ، وتندمج مع البنوك الكبيرة لتصبح أكبر ، وتستمر العملية حتى يبقى بنكان أو ثلاثة بنوك عملاقة فى العالم ، والصناعات ستندمج وتتحكم فى الأرباح ، وسوف تتحكم سلاسل قليلة من الفنادق والمطاعم فى سد احتياجات الناس فى جميع أرجاء العالم ، وسوف تندمج شركات النقل البرى والبحرى وتبتلع المنافسة لها ، أو تخرجها من المنافسة وممارسة أعمالها إذا ما رفضت أن تندمج مع الشركات الكبيرة تلك ، كذلك أصبحت وسائل الإعلام الإلكترونية والمطبوعة عرضة لعمليات الدمج نفسها والتحكم المركزى ، وذلك لتأكيد حرية الصحافة ولكى يقرأ كل فرد الأخبار نفسها ومن المصدر الحر نفسه ، أما الأخبار المغايرة لتلك الأخبار التى يقال إنها قادمة من مصدر حر فلابد وأنها وفقًا لهذا التعريف ستعتبر غير حرة ، ومثل تلك الأخبار المغايرة يجب أن تكبح ، وتمنع من الوصول للجماهير الحرة ! فلابد من أن تمنع الجماهير من الوصول بأى طريقة لتلك الأخبار غير الحرة !

ليس هناك مؤامرة ، وإنما هكذا تعمل السوق الحرة وتحصل على النتائج التى تريدها ، ولن تتسامح الصحافة الحرة مع أى جهة ، أو فرد يقترح أن يتم شىء عن طريق غير السوق الحرة . فالسوق الحرة هى لصالح العالم ، لماذا إذن يزعم البعض عكس ذلك؟ إن من يقولون ذلك هم أعداء الحرية ! والمناهضون للحرية لا يجب أن يتمتعوا بأى حرية ، بل يجب عزلهم ومعاقبتهم لأنهم معوقون !

وعندما يحكم ويسود المستبدون والطغاة فإن القانون والنظام السائد يكون مبنيًا على الخوف ، الخوف على اختلاف صوره ، خوف على السلامة الشخصية ، خوف من الحرمان بشكل أو آخر والخوف على أمن وعيش الأسرة والمجتمع .

والحمد لله ؛ لم يعد هناك حكام مستبدون ، ولكن الرأسمالية الجديدةوقوى السوق هى التى تمارس قوتها على طريقة الحكام المستبدين أنفسهم ؛ أى من خلال الخوف ، ولكن الهدف والمجال مختلفين ، فهما أكبر بكثير ، بل يزدادان تضخمًا فكانا يسيطران على أمم فى بداية الأمر ، أما الآن فقد أصبحت الهيمنة على أقاليم ، بل وعلى قارات .

فى تخفيض قيمة العملة وقهر سوق الأوراق المالية ، وجد الرأسماليون الجدد أقوى الوسائل لخلق الخوف ، وهكذا ، وبمجرد خفض قيمة عملة دولة ما فإن الفقر يعم من الفور ، حيث تقل قدرة الدولة ، أو الشركة ، أو حتى الفرد على الشراء لأى شىء بالنسبة نفسها التى خفضت بها قيمة عملتها . . . . فمثلاً - لو أن قيمة الناتج المحلى لدولة ما بالدولار الأمريكى يُقدر بـ ١٠٠ بليون دولار فإنها تكون قد خسرت ٥٠ بليون دولار عن طريق خفض عملتها ، ومن ثمَّ يصْبح ما قيمته ٥٠٠٠ دولار قد خفضت إلى ٢٥٠٠ دولار ، وتنكمش أصول الشركات بنسبة ٥٠٪ إذا ما انخفضت قيمة العملة بنسبة ٥٠٪ وهكذا ، فإن كان الفرد ، أو الشركة ، أو الحكومة مدينًا فإن قدرة أى منها على السداد تقل إلى النصف . ولكن من الجهة الأخرى فإن الديون قد تتضاعف دون أى اقتراض إضافى .

أضف إلى ذلك الهبوط فى أسعار الأسهم بنسبة ٥٠٪ وسوف ينخفض رأسمال السوق بالنسبة نفسها ، والقدرة على زيادة القروض على أساس الأصول الرأسمالية ستتدنى إلى النصف ، والمقرضون المحليون أيضًا سينخفض رأسمالهم ، ولن يكونوا فى وضع يسمح لهم بتقديم قروض ، فى الحقيقة سيرغمون على توقف أعمالهم لو لم يتمكن المدينون من سداد ديونهم . مع الانحسار الاقتصادى بسبب انخفاض قيمة العملة لن يتمكن المقرضون من تحقيق ما يكفى لتجاوز خسائرهم ، وسيبيع المقرض الأسهم فى سوق ضعيفة مما يؤدى بالطبع إلى مزيد من الهبوط فى أسعارها ، ومن ثمَّ مزيد من خفض رأسمال السوق .

وتقل كمية الأموال فى الوقت الذى تؤدى فيه القروض الأجنبية لدعم الأصول المالية للدولة المقترضة إلى زيادة ديونها ، لو أن هناك قروضًا كبيرة فإن نسبة الدين ستؤدى إلى

تدهور قيمة الناتج القومى ، مما يترتب عليه فقدان الثقة وتعرض البلاد لهجمات أخرى تؤدى إلى مزيد من التّدهور فى قيمة العملة ورأسمال السوق المتداول ، كما أن عدم الاقتراض سينجم عنه عدم إتاحة ائتمان للبنوك والشركات التى أصابها تدهور قيمة العملة نفسه وانهيار سوق الأسهم .

ولن تتمكن الدولة من مواجهة قوى السوق ؛ لأنها لو تصدت لهذه القوى فسوف يؤدى ذلك إلى فقدان الثقة فيها وإلى جولة هجوم أخرى ، أمّا لو قيدت الأموال ورفعت نسبة الفائدة لمنع مزيد من التدهور فسوف تفلس كل الأعمال التجارية ، مما يترتب عليه تسريح أعداد هائلة من العاملين بمن فيهم المدراء التنفيذيين ! البطالة الضخمة لن تؤدى فقط إلى خسارة موارد وعائدات الحكومة ، بل وإلى نقص فى أعمال التجزئة التجارية ، وسيؤدى ذلك بدوره إلى تأثر الأعمال الداعمة مثل : النقل والخدمات الأخرى وبالطبع استيراد البضائع ! وعندما يتوقف الاستيراد فإن جمارك الاستيراد سوف تقل ؛ وسيترتب على ذلك مزيد من الانكماش فى واردات الحكومة ، كل ذلك يؤدى بالضرورة إلى خسارة هائلة فى عائدات الحكومة ، ومن ثم فإنه قد يصبح من المستحيل أن تدفع الحكومة رواتب الجهاز الإدارى .

ومن الواضح أن الدولة المستهدفة من الهجوم ستكون فى بلاء وكرب شديدين ، وللحفاظ على ثقة قوى السوق فعليها أن تزيد نسبة الفوائد وتقلل الائتمان وتزيد الضرائب وترفع الدعم . هذه الإجراءات ستؤدى إلى إفلاس الشركات ، وتلقى بالعمال خارج وظائفهم ، وتولد أعمال الشغب وعدم الاستقرار السياسى ، وفى النهاية يفلس البلد ويقوم الأجانب بشراء كل الشركات الرابحة بأسعار زهيدة ! !

ومن ناحية أخرى ، فلو تحدت الدولة قوى السوق هذه ، وحاولت المحافظة على نسبة أرباح منخفضة ، وقامت باقتراض الأموال لمساندة وتدعيم النظام ، وحاولت إنقاذ الأعمال المحاصرة والمتعثرة إذا فعلت فسوف تتعرض لهجوم أشد من قوى السوق ، الأمر الذى

سيؤدى بالضرورة إلى مزيد من التدهور فى قيمة العملة ومزيد من الخسارة فى رأس المال وإفلاس البنوك والشركات ، وزيادة نقص موارد الحكومة وكارثة اقتصادية تحل بالبلاد ، ولن يكون من خيار أمام هذه الدولة سوى الإذعان والاستسلام لقوى السوق .

ما قوى السوق هذه؟ وكيف تتمكن من إفقار دول كثيرة بهذه السهولة وتقويض استقلالها؟ هل هم الناس الموجودون فى السوق والذين يشترون ويبيعون سلعًا وخدمات ، هل هم بائعو الجملة والموزعون؟ لا أحد من هؤلاء . إنهم فى الحقيقة مجموعة صغيرة مبهمة يتاجرون بتغيير الأرقام على شاشات الكمبيوتر الموجودة داخل غرف البورصة فى جميع أرجاء العالم ، فلا توجد هناك أموال حقيقية يتداولونها ؛ لا تتحرك أى أموال إلى أى مكان ؛ فالصفقات تعقد على شاشات الكمبيوتر ، وتسجل بمجرد تغيير الأرقام على الشاشة ، فيمكن الاتجار فى الملايين فى غضون ثوانٍ معدودة أو دقائق ! وتربح أو تخسر الملايين فى الثوانى نفسها ولكن الأثر على دول وشعوب بأكملها يكون مدمرًا . فجأة ونتيجة لتغيير تلك الأرقام يصبح الناس والأمم ، بل وأقاليم فى حالة فقر شديد ! من الممكن أن تفلس أمم وأن يفقد الملايين وظائفهم .

ولكن عند ذكر هذه المأساة فإن الرد الوحيد هو ببساطة شديدة : أن تجارة العملة السبب فى كل هذا ، فهم ؛ أى تجار العملة يتصرفون بغريزة القطيع ، فإذا رأوا التحركات فى اتجاه واحد عندئذ يتحرك كل فرد فى هذا الاتجاه ، فإذا باع أى واحد منهم ، يبيع الآخرون وهكذا يكتسب التدهور سرعته ، ولو تمكنت من أن تجعل زعيمهم يسترد ثقته فسوف يتبعه الآخرون .

إنه لأمر مؤسف على مستوى التطور الإنسانى أن الناس ، خصوصًا الأذكياء منهم ، يتصرفون مثل قطعان الماشية ، ولكن يبدو أنهم يتألقون فى سلوك القطيع هذا ، والمنتقدون لسلوكهم هذا ينظر إليهم على أنهم جهلاء وأغبياء يستحقون ما يحل بهم وببلادهم من سوء المصير !!

إن هذا المؤتمر لن يضع حدًا لاستغلال الفقراء من قِبَلِ قوى السوق ، ولن يخفف عن دول شرق آسيا المحاصرة ، النمور والتنانين السابقة ، ولكن هذا المؤتمر يتناول العلاقات الآسيوية والدولية ، ومن الواضح أنه علينا دراسة العلاقات بين الدول الآسيوية وبقية العالم ، وأيضًا دراسة العلاقات فيما بين الدول الآسيوية بعضها البعض .

وما أحاول إيضاحه هو بعد المسافة عن المركز الذى يتأرجح فيه بندول السوق الحرة الرأسمالية ، فقد أصبحنا مؤمنين بنظام لا يهتم بالأهداف الأصلية أو النتائج الواضحة الناجمة عنه ؛ نظام صمم لتحرير الناس من القيود والنظم والقواعد الحكومية المتشددة ويمكِّنهم من تحقيق رفاهية من خلال مبادراتهم الذاتية ، ولكن الممارسة أسفرت عن كبت هذه الحرية ، فجلب لهم البؤس والشقاء بدلاً من تلك الرفاهية المزعومة ! وهذا البؤس حقيقى وملموس ؛ فالملايين تعانى والأمم كذلك ، بل حتى الأقاليم ، فكلها تئن من وطأة هذا البؤس ! وكل ما قدم لهم أو قيل لتبديد هذا الواقع المؤسف هو أن سبب معاناتهم هو أن حكوماتهم ليست شفافة وليست ديمقراطية ! !

وهذا يذكرنى بتقرير إخبارى تليفزيونى حول إطلاق النار على المتظاهرين من قوات فرض القانون فى دولة ما ، وفى نهاية التقرير قال المعلق على سبيل التخفيف : «على الأقل هذا هو البلد الديمقراطى الوحيد فى المنطقة» وكونه ديمقراطيًا يغفر له كل شىء والمخالفات ، حتى القتل ! ولأنك غير ديمقراطى ، حتى ولو حققت الرفاهية لبلادك وشعبك فأنت مارق ويجب تأديبك ومعاقبتك !

إن السوق الحرة نظام جيد ، وهو بالتأكيد أفضل من اقتصاد الشيوعيين المخطط مركزيًا ولكن هذا النظام يترجم الآن إلى هيمنة غير مقيدة للأثرياء على الفقراء وإلى تغليب القوى على الضعيف . وبغض النظر عن تسمية الرأسمالية بقوى السوق فهى ليست أفضل من رأسمالية الماضى التى لا ترحم ولا تنظر بعين الاعتبار للآخرين ؛ تلك الرأسمالية التى تسببت فى ردود الأفعال العنيفة وميلاد الاشتراكية والشيوعية .

هل من الممكن أن تبنى العلاقات بين الأمم على السوق الحرة وقوى السوق والتى هى الرأسمالية ولكن باسم آخر؟ هل تستطيع قوى السوق حقًا تنظيم الحكومات بينما الهدف الرئيسى للسوق هو تحقيق الربح وبأقصى درجة؟

لقد استمر النظام الإقطاعى عدة قرون من خلال الترويج بأنه نظام ثواب وعقاب من الله ! الملوك هم المدافعون عن العقيدة والإيمان ، هم رمز لحكم الله على هذه الأرض فلا يجب أن يتذمر الناس ، أو يشكوا حتى لو كان القمع الإقطاعى مناقضًا لتعاليم الله ، ولو سألت فذلك أسوأ من التمرد ومن ثم فأنت زنديق ! ! وكثير منهم كان تعس الحظ ، حيث شدوا على الخازوق ، أو فُصلت رؤوسُهُم عن أجسادهم فهم زنادقة !

وفى عصرنا هذا ، الدين هو الديمقراطية الليبرالية والشىء الملازم لها هو السوق الحرة ، والقساوسة هم دائمًا وأبدًا الديمقراطيون الليبراليون ودعاة السوق الحرة ولكنهم لا يشدون الزنادقة على الخازوق ، ولا يفصلون رؤوسهم عن أجسادهم ، إنهم فقط يطبقون العقوبات ، أو يخفضون من قيمة العملة ، والنتيجة هى أن يعيش الناس والحكومات فى خوف ، ويذعنون بدلاً من أن يقاوموا .

فى الماضى كانت الأديان والكتب المقدسة تستخدم لترويع الناس ، واليوم تقوم وسائل الإعلام بأداء المهمة نفسها على نحو أفضل ؛ ففى الماضى كان رجال الدين فقط هم القادرون على قراءة وتفسير الكتب المقدسة بأى أسلوب يحلو لهم ، أما فى عصرنا هذا فإن المغول من الإعلاميين يستغلون وسائل الإعلام بالأسلوب نفسه . ويمنعون المعارضة من التعبير عن نفسها ، وإذا انطلقت إشاعة فإنهم يؤكدونها إذا كانت فى صالحهم ! أما إن كانت غير ذلك فيلتزمون الصمت ! ولو حانت لهم الفرصة فإنهم ينشرون على الملأ أفكارك الإلحادية ، وسرعان ما يقومون بفضح الزيف فى هذه الأفكار ويعيدون تفنيد أرائك ؛ حتى يبدأ صاحب هذه الآراء فى الشك فى آرائه تلك ، بل وحتى فى سلامة عقله . إنها عملية غسيل مخ على مستوى العالم ، وذلك فى استطاعة الرأسمالية الجديدة ، حيث يزداد

احتكارها على نطاق عالمى فى صناعة وسائل الإعلام .

فإذا طرحت فكرة ما للنقاش فإن ذلك يزيد من قبضة النظام الاحتكارى الذى تتولى الترويج له وسائل الإعلام العالمى ، وتجادل فى صالحه ، بل وتشن حملات الدعاية له ؛ حتى تتأكد من أن الفكرة المضادة لأفكار هذا النظام الاحتكارى قد فنيت وانتهت . كان العالم مقسمًا بين عدد من الإمبراطوريات الغربية ، وكان تبرير ذلك عندهم أنهم يمدنون العالم ! فقد حمل الرجل الأبيض على عاتقه عبء نقل المدنية والتحديث إلى تلك الشعوب الجاهلة المتخلفة التى لا تعرف شيئًا ! ! وبالطبع وخلال هذه العملية يجنى الرجل الأبيض ثمار جهده له ولبلاده ، والمهم أن استعمارهم لهذه الشعوب المتخلفة قد عاد عليها بثمار المدنية ! !

وبطريقة أو أخرى ، فقد أدت الصراعات بين قوى الغرب الإمبريالى إلى تفكير جديد بخصوص عبء الرجل الأبيض ! وافتضح أمره كمحاولة لتبرير استغلال الغرب لتلك الشعوب المتخلفة ، وبالتدريج بدأوا فى فضح هذا الزيف الذى سرعان ما اكتسب تأييدًا كبيرًا ، وكانت هناك حملة قوية لتفكيك الإمبراطوريات ، وهكذا نالت المستعمرات استقلالها ، وتمتعت به لفترة قصيرة ؛ فبعض هذه الدول عمتها الفوضى والبعض الآخر استفادت من استقلالها . وتطورت ، بل تحدت أسيادها السابقين فى عقر دارهم ، وجعلت الحرب الباردة هذا الاجتراء ممكنًا ، وعندما شعر أبطال الجانبين بالحاجة إلى منع الطرف الآخر من كسب أى نفوذ داخل البلاد حديثة الاستقلال . واستفادت تلك البلاد استفادة كاملة من جوانب النقص فى كلا المعسكرين ، ثم انتهى عالم القطبين وترك العالم تحت سيطرة أصحاب السوق الحرة من الديمقراطيين الليبراليين واختفت الحاجة لدعم هذه الدول الصغيرة ، وأصبح الخيار الوحيد أمام هذه الدول الصغيرة هو الإذعان والاستسلام للنظام الأوحد المتبقى ، وجن جنون الفائزين بعد التخلص من كل قيود المنافسة وتأثيرها الذى زال بزوال قطب الكتلة الشرقية ، وعادت الأفكار القديمة حول الحاجة إلى تمدين الشعوب المتخلفة ومعها الرغبة فى الانتقام ، وهنا كانت الضغوط أقوى وأكثر انتشارًا .

مازالت الديمقراطية تتطور والأفكار الجديدة تطرح طوال الوقت ، من حق شعوب العالم أن يكون لها الاختيار الحر لأفضل البضائع والخدمات ، ولا يجب أن تحرم الحكومات شعوبها هذا الحق . ولا يجب أن تستخدم حدودها لتحمى تدنى مستوى وعدم كفاية بضائعها ، أو خدماتها . يجب على هذه الحكومات فتح حدودها وتكسير النظم والإجراءات والتحرر والتسامح ؛ لكى يسمحوا للأقوى والأكبر والأحسن والأكثر كفاءة أن يبرز .

وكالعادة فقد تولت وسائل الإعلام العالمية نشر هذه الصيحة والترويج لهذه المفاهيم الجديدة التى لا تتسامح مع كل من يعارضها ، وكل من يعارض كلمات الإعلام الحر لابد من أن يكون وفق التعريف ، ضد الحرية ! وعندما تروج وسائل الإعلام الحرة للمفاهيم التحررية وكسر القيود والعولمة عندئذ يكون كل من يعارض تلك المفاهيم إنما هو معارض للحرية ! ولا حرية لأعداء ومعارضى الحرية .

وكما أفاد الأغنياء من الدعوة إلى كسر القيود والتحرر من الإجراءات والاتجاهات التحررية ، فقد أفاد السكان الوطنيون فى المستعمرات من قبل فى وصول المدنية إليهم على أيدى المستثمرين . المهم ألاّ تقلل من نوايا الخير .

ولكن بالنسبة إليكم معشر الشباب المثاليين ، هل تعتقدون أنه يجب علينا أن نتجاهل هذه التغيرات المفاجئة فى الديمقراطية الليبرالية وأنها لم تؤد فقط إلى إثراء الأثرياء على حساب الفقراء ، أم يجب علينا أن نضع فى الحسبان النتائج المترتبة على ذلك أيضًا؟ هل تبنى العلاقات الدولية على النوايا الحسنة تمامًا وتجاهل النتائج السيئة والضارة؟

لقد تجرأ الآسيويون وتحدثوا عن القيم الآسيوية ، تجرأنا على قول إن القيم الآسيوية صنعت النمور والتنانين من بلادنا الآسيوية . قد تجرأنا على الإعلان بقوة أن القيم الآسيوية تفوق كل القيم ، بل إنها تعتبر القيم العالمية الصحيحة .

وفى أيامنا هذه ، نجد كل الدول الآسيوية فى حالة اضطراب وانحسار شديدين ، ويقول الكثيرون إن سبب هذ الانحسار والتراجع والتخلف هو القيم الآسيوية ! حقًا إن الآسيويين يدينون الفساد والمحسوبية والنفوذ الرأسمالى . . . إلخ . . . ولكن ، هل حقًا أن القيم والممارسات الآسيوية هى التى جلبت عليهم سوء المصير الذى يواجهونه اليوم؟ أليس الجشع الغربى مسئولاً أيضًا؟ ! أليست الرأسمالية الجديدة والسوق والقوى التى تتحكم فيها وتحركها والعقلية الأحادية الساعية إلى تحقيق الفائدة هى المسئولة؟ ! أليس كل هؤلاء مسئولين بدرجة مساوية ، بل أكثر ، عما يحدث فى العلاقات الدولية؟ ! هل يمكننا تحمل الرفاق المتعصبين لأيديولوچية ما وتحمل نتائجهم أم أنه يجب دراسة وفحص نتائج تعصبهم أيضًا؟ !

كم مرة أخطأت فيها أنظمتنا وأيديولوچياتنا؟ النظام الإقطاعى والاشتراكية والشيوعية ، تلك هى النظم التى ظننا أنها صحيحة وصالحة للمجتمع الإنسانى فى زمن ما ، وقد فشلت جميعها ! أليس من الممكن أن يثبت فى النهاية أن الأيديولوچية الجديدة والسوق الحرة وقوى السوق والعولمة التحررية والتحلل من اللوائح والإجراءات والحرية المطلقة . . .إلخ ، يثبتة أنها أيضًا خطأ وأنها ستؤدى إلى شقاء وبؤس البشرية ، وإلى توتر العلاقات الدولية بين الدول والتى تصل إلى حد الحرب عندما يهب المظلومون لتحرير أنفسهم .

أنتم هنا لمناقشة موضوع شديد الأهمية ومتعلق بمستقبل العلاقات بين الأمم وبخاصة الدول الآسيوية والعلاقات الدولية ، لن تستطيعوا حل أى مشكلة فى يوم وليلة ، ولكن مداولاتكم وما قد تصلون إليه سيكون له أثر على التفكير فى الموضوعات الجارية والعلاقات الإنسانية .

هناك أشياء كثيرة يمكنكم مناقشتها مثل : الأمم المتحدة ، والحد من الأسلحة النووية والتقليدية ، واستئصال الفقر ، وحقوق الإنسان . . . إلخ . وبالتأكيد فإن الموضوعات التى

ذكرتها فى حديثى معكم تدخل ضمن هذه الموضوعات ، من الجائز أن تنظروا إلى هذه الموضوعات على أنها غير مهمَّة ولا علاقة لها باهتمامكم ، هذا حقكم ولكنه أيضًا من حقى أن ألفت انتباهكم للظلم الشديد الذى يمارس على الشعوب البريئة ، والتى لا ذنب لها فى جنوب شرق آسيا باسم الديمقراطية والسوق الحرة !

ولذلك يبدو أن لديكم الكثير من الموضوعات والأشياء التى تحتاج إلى أن تفكروا فيها ، وتقدحوا زناد أفكاركم لو أردتم أن تحققوا حياة مختلفة ؛ بعض من هذه الأشياء التى قررتم القيام بها ربما تحتاج منكم إلى شجاعة أدبية عظيمة ، وربما التضحية ، لابد من أن تقفوا فى وجه كل ما هو غريب وشاذ وضد الضغوط الهائلة التى يمكن أن تمارس عليكم حتى تتوقفوا وتذعنوا وتطيعوا ، فلا تتعرضوا للنقد للممارسات والمشاريع الجائرة السائدة الآن ، وفى مواقفكم هذه ربما توصمون ويطلق عليكم مسميات مختلفة ، ويلصق بكم كل ما هو مخزٍ ويُلحق بكم العار؟ !

ولكن هناك أيضًا القناعة والرضى بما تعملونه من أجل الصالح العام ، وهناك أشياء قليلة الآن يمكن أن تتحقق دون كفاح ، ولو وقف أحد ضدكم فهناك الكثيرون الذين سيقفون إلى جانبكم ومعكم ، وفى النهاية سيكافئكم التاريخ ، ولا يغرنكم أن تسلكوا الطريق الأدنى . اختاروا المسارات الأعلى وليكن الله معكم فى كل خطوة على الطريق .

٥- دور آسيا فى الكومنولث الكونى للقرن الحادى والعشرين *

لعله من المفيد ونحن نقترب من القرن الحادى والعشرين أن نتذكر ضرورة أن يتم ذلك بحذر ، لأن هناك أسبابا كثيرة تدعو للتشاؤم ، ولا وجود لأى أساس للمثالية المبنية على رمال الوهم .

ولعله من المفيد كذلك أن ندع التاريخ يذكرنا أنه قبل مائة عام عندما كان العالم على مشارف القرن العشرين ، كان الكثيرون متفائلين بالإمكانيات الهائلة التى تنتظر الجنس البشرى ، كل شىء كان يبدو ممكنًا ، كان قرن جديد على الأبواب ، أو هكذا بدا !

وعلى أية حال لم تندلع حروب كبيرة منذ عام ١٨٧١م فى أوروبا ، الصانع الرئيسى للتاريخ الكونى ومركز عالم الحضارة الإنسانية . وأُنجزت طفرات طبية وعلمية بارزة فى ذلك التاريخ ، وانتشرت ثمار التكنولوچيا بطول العالم وعرضه ، وأضاءت الكهرباء الكون ، وربطت أسلاك الهاتف العالم بأسره ؛ الناس والتجارة والمعاملات ، وكأن العالم أصبح بلا حدود ، ولو كان مفكرو العالم فى ذلك الوقت يعرفون كلمة «العولمة» لكانوا تحدثوا بها واجتازوا ذلك التباين الشديد فى الرأى ، بل وسدوا الفجوات بينهم وقربوا فيما بين الدول والأمم والشعوب فى نسق إنسانى واحد . ولكان الناس يأكلون طعامًا أفضل ويعيشون حياة أسعد وحصلوا على تعليم أفضل ؛ ذلك لكونهم فى مركز العالم ، وبمعايير الماضى توجهت أعداد غفيرة إلى المدارس والتحقوا بالجامعات ، وانتشر التعليم انتشار النار فى الهشيم ،

* حديث عن مكانة آسيا ودورها فى إقامة الكومنولث العالمى فى القرن الحادى والعشرين - لندن : المملكة المتحدة ، ٢١ أكتوبر سنة ١٩٩٧م .

وبدأت مظاهر الطبقات الاجتماعية فى التآكل ، وقلّت مظاهر الظلم الاجتماعى ، وضُيِّقت الفجوات بين طبقات المجتمع وحل محل الرأسمالية الديكنزية رأسمالية أرق وأظرف ، بل وأكثر إنتاجية ، وفقد الإقطاع كل أثر له على أرض الواقع وزادت مظاهر المساواة والمدنية والعالمية الجديدة .

كان عصر الإمبريالية العظيم آخذًا فى الاستقرار ، وأخذ يعطى مردودًا إنسانيًا عظيمًا ليس فقط للمستعمر ، بل للواقعين تحت سلطة المستعمر ، وبدأ العالم فى تحمل عبء الرجل الأبيض فى جميع أرجاء الأرض ، واستجاب بعض الوطنيين لثقافة الرجل الأبيض ، والتحق البعض منهم بجامعة أكسفورد وجامعة كامبريدچ وكانت الصين «الخطر الأصفر» فكرة لم تولد بعد ، وانتشر المبشرون فى كل مكان لنشر كلمة المسيح ، وبدا فى الآفاق أن عصر العقل الحقيقى قد أشرف على البزوغ . وأدركنا بعد فوات الأوان أن تفاؤلنا قبل مائة عام لم يكن له ما يبرره حقًا .

هناك أشياء رائعة حدثت قريبًا بعود ماكاو للسيادة الصينية حتى لا يكون هناك أى جزء من أجزاء الصين تحت يد الاستعمار منذ قرون طويلة ، وشكرًا لله فقد انتهت تمامًا كل أشكال الاستعمار البائدة ، رغم أن الكثيرين لا يدركون حتى هذا اليوم الآثار النفسية والثقافية التى تكلفها من عانوا من الاستعمار ، وشوهدت ظواهر مذهلة فى شرق آسيا أحدثت تقدمًا هائلاً لأجناس بشرية ، وبسرعات لم يشهدها تاريخ الجنس البشرى والعالم من قبل .

ولكن أليس من العار أن الوعود الضخمة التى نمت منذ مائة عام مع بداية القرن العشرين قد أحبطت وانعكست؟

كان من المفترض أن يكون القرن العشرون قرنَ السلام ، وتكرس كل سنواته لجعل الحياة أكثر بهجة ، إلاّ أنه كان قرن الموت الضخم فى أعداد ضحايا الحروب !! كان يجب أن يكون قرن الرفاهية لكل شعوب العالم ، والتعاون من أجل مزيد من الرفاهية ، وبدلاً من

ذلك كان قرنَ البؤس الرهيب ! وكان من المفترض أن يكون القرنُ العشرون هو قرنَ المدنية والحضارة الإنسانية إلا أنه وبدلاً من ذلك ، ومع نهاية هذا القرن لا يستطيع الكثيرون حتى الآن خاصة فى شمال الأطلنطى أن يقبلوا عالما متعدد الثقافات !

ربما تكون قد انتهت تمامًا الإمبريالية السياسية الكاملة ، لكن ثقافتها برمتها مازالت على قيد الحياة ، ومازالت تركل شمالاً ويمينًا ! ولم يصدر أى اعتذار عن تلك السيطرة الثقافية ، بل الأسوأ من ذلك ، وبقصر نظر شديد ، أن يقال : إن السيطرة الثقافية لها مبرر أخلاقى ، وينظر إليها على أنها حملة مقدسة ! ويعلمون الناس فى جميع أرجاء العالم ما هو الصواب وما هو الخطأ ، وكيف يتصرفون . ويعاقبون مَنْ لا يمتثل وينفذ ما يقال له ! اسأل الله ألا يهبط على البشرية رجال لهم الثقافة والقداسة نفسها من الجنس الأصفر خلال العقود القادمة ؛ ليعلمونا ما هو صواب وما هو خطأ ، وكيف نتصرف ، ومن ثم نعاقب من يخالف تعاليمنا ، واليوم علينا أن نؤكد على الاحترام المتبادل بين الأمم ولكن فى جو من الخوف والكراهية يؤمن فيه البعض أنه لابد من حرب جديدة بعد الحرب التى استمرت طويلاً ؛ لأنها ضرورية أو لا يمكن تجنبها بسبب صدام الحضارات الحتمى .

لم نتمكن من فعل الكثير خلال القرن العشرين للقضاء على الفقر الشديد تمامًا ومحوِه من فوق الأرض ، ولكن ماذا نجد؟ نجد بؤسًا شديداً لم ير العالم قط مثله من قبل !

أنا لا أدين الآلاف القليلة من بليونيرات العالم الذين تفوق ثرواتهم مجتمعين ما لدى آلاف الملايين من البشر ؛ هؤلاء الذين يعانى الكثير منهم وحتى هذا اليوم من التضور جوعًا حتى الموت ، وكذلك أولئك الذين أشرفوا على حافة المجاعات ، لا تفهمونى خطأ ! أنا أكن عظيم الاحترام لأولئك الرجال العظام الذين بنوا بأيديهم تلك الثروات الهائلة التى يمتلكونها الآن ، وهذا الإعجاب الذى أكنه لهم هو توجه سياسى صحيح ، كما أنه ليس من قبيل مسايرة الموجة السائدة أن أذكر جياع العالم الذين لا ذكر لهم ، فمن الأفضل نسيانهم ، أو نفيهم فى غياهب تاريخنا ، لكن علىَّ أن أعترف أننى غيرُ مستريح إلى حد ما ؛ فأنا أشعر

شخصيًا ويعمق بالغضب عندما أفكر فى الثلاثة بلايين من سكان هذا الكوكب ؛ الذين عليهم أن يحيوا على دولارين يوميًا لكل فرد منهم ، دعونا نر الآن الأعداد الهائلة من الوفيات .

لقد خاض الأوروبيون حربين أهليتين شملتا قارتين فى هذا القرن ، ولأن أوروبا هى التى تعرضت للاختبار الأقسى ، ولأن أوروبا كانت تحكم معظم أجزاء العالم فلهذا أصبحت حروب أوروبا الأهلية هى حروب البشرية : الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ؛ ٨,٥ مليون جندى و١٣ مليون امرأة وطفل وكهل فنوا عن آخرهم فيما يسمى الحرب العالمية الأولى ، و١٩ مليون جندى و٢٠ مليون من المدنيين أبيدوا فيما يسمى بالحرب العالمية الثانية .

وبالإضافة لإجمالى الأعداد الضخمة فى الوفيات فى خندق الحرب ، يجب أن نضيف عدد الذين لقوا حتفهم على مذبح المذاهب ، فقد شهدت النازية وهتلر تصفية ١٧ مليونا من الرجال والنساء والأطفال ! ! الشيوعية وستالين أودوا بحياة ما بين ٢٠ إلى ٢٥ مليون آدمى ومات مليون أو مليونان من فرط الحماسة المذهبية لنظام حكم ماوتسى تونج وبول بوت ، وضحى بحياة أكثر من ٨٠ مليون نسمة فى معبد المذاهب أو الحماسة الدينية ! كل ذلك فى هذا القرن الرائع ! ! ولم يصل أبدًا تدنى الإنسانية إلى هذا الحد إلا خلال هذا القرن والذى لم ينته بعد ! ربما قتل من ١٧٥ مليون إلى ٢٠٠ مليون نسمة فى إحدى المذابح ، أو ما شابه ذلك ! يكفى ذلك عن الماضى . . . . ولكن ماذا إذن عن المستقبل؟

يخبرنا التاريخ أن القرن التاسع عشر كان قرن أوروبا ، التى سيطرت فيه على العالم ، أمًّا معظم القرن العشرين فقد كان لأمريكا ؛ إذ سيطرت فيه الولايات المتحدة على الكثير من بقاع العالم ، وهناك الآن الكثيرون فى هذا الجزء من العالم الذى أتيت أنا منه على اقتناع تام بأن القرن الحادى والعشرين سيكون القرن الآسيوى ، ويعتقد هؤلاء بأن القرن الحادى والعشرين ليس هو القرن الآسيوى فقط ، بل إنه دور آسيا لتصبح سيد العالم وحاكمه ،

ويعتقدون أن القرن الحادى والعشرين ينبغى أن يكون القرن الأسيوى ، ولن يأتى القرن الآسيوى فقط لكى يمضى وينتهى ، وأن من الحق ومن الأخلاق أن يحدث ذلك ، بل يجب أن يكون على هذا النحو .

ولكن يؤسفنى أن أقوم بتفجير هذا الوهم ! فأنا أعتقد أن فكرة القرن الآسيوى ستسير فى طريق مظلم ، وأنها مجرد سراب مرَّ فى نوبة غير معقولة من الغطرسة والزهو الآسيوى ؛ فأنا أعتقد أن القرن الآسيوى لن يأتى ، وأن حقبة الحكم الآسيوى على هذا الكوكب الذى نسميه الأرض لم يبزغ فجرها بعد ، بل أكثر من ذلك فيجب أن يكون اعتقادنا فى آسيا هو ألاَّ يجب أن يحدونا الأمل فى تحقيق ذلك ، أو حتى نسمح بوجود هيمنة جديدة حتى لو كانت هيمنة آسيوية .

لقد مات عصر الإمبريالية ، وانتهى زمن الهيمنة ويجب دفنهما ، بل يجب الاحتفال بدفن الهيمنة والإمبريالية ولا يجب أن يُبعثا من جديد ، ولكى لا يبقى مجال للهيمنة والسيطرة ، لا تمجيد للهيمنة والسيطرة والنفوذ فى القرن الحادى والعشرين ؛ لأن مثل هذه الأشياء غير أخلاقية .

الإمبريالية لن تكون أقل شرًا إذا كانت آسيوية ، الهيمنة لن تكون أكثر تسامحًا لو أنها آسيوية ، النفوذ لن يكون أقل فسادًا إن كان نفوذًا آسيويًا ، والذى يجب أن نعمل من أجله فى آسيا فى القرن الحادى والعشرين ليس القرن الآسيوى ، بل يجب أن نعمل من أجل كومنولث كونى واحد لا يستثنى أحدًا ويضم كل البشرية .

لابد من عالم جديد تسوده الحرية والمساواة والإخاء فى الوطن ، وفى المجتمع الدولى وفى كل الدول .

الكومنولث العالمى فى القرن الحادى والعشرين الذى أتحدث عنه يجب أن يكون عالمًا جديدًا لديمقراطيات مزدهرة ومسئولة ومنتجة ومستمرة تتميز بمعايير واضحة لحقوق

الإنسان وبمعايير واضحة للمسئوليات الإنسانية .

لابد من أن يكون عالما جديدا وأكثر تميزًا بخروج الملايين من وهدة الفقر وظلماته ، فنحن لدينا القدرة الآن على محو الفقر تمامًا . وفق إحصائيات البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة ، وقبل أقل من ٣٠عامًا كان أكثر من نصف سكان ماليزيا يعيشون تحت خط الفقر ، والآن يتطلع الماليزيون لدخول القرن الحادى والعشرين وليس فيهم ماليزى واحد يعيش فى حالة فقر ، وبصيغة عملية ليس هناك فى ماليزيا من يعيش تحت خط الفقر ، ويقول البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة : «إن ماليزيا أحسن من قضى على الفقر على سطح هذا الكوكب فى التاريخ البشرى فى فترة ما بعد الحرب» ، وإذا كان فى إمكاننا أن نفعل هذا ، فإن فى مقدور العالم أن يفعل مثلما فعلنا ، ودعونى أطرح أبسط الأسئلة : لماذا لا نلزم أنفسنا بالقضاء على الفقر؟ لماذا لا نجعل من القرن الحادى والعشرين أول قرن فى تاريخ الجنس البشرى متحرر من عبودية الفقر؟

أعتقد أن ما يجب أن نعمل من أجله جميعًا ؛ هو كومنولث كونى لا يهتم فقط برفاهية كل كائن بشرى ، بل أيضًا بحماية البيئة الطبيعية ؛ حتى لا تخنقه أو تحرقه ، بل تنعش حياته وتثرى وجوده وتعطيه الأحساس بنعمة وجمال الطبيعة ، وتجعله يتأمل فى صنع الله ومعجزاته ونعمه ، والذين يعتقدون أن حماية البيئة درب من الترف لا نقوى عليه مخطئون ، والحقيقة أن عدم الاكتراث بالبيئة هو الترف الذى لا نقدر عليه ! فأنا أقول لكم : لو لم نبدأ بحملات عالمية لإنقاذ البيئة الكونية مع فجر القرن الحادى والعشرين فإن أفق القرن الحادى والعشرين سيكون مظلمًا ، أو بمعنى أدق أسود كالقطران .

دعونى أؤكد لكم أن الكومنولث الكونى للقرن الحادى والعشرين يجب أن يحمل ملامح العالم الجديد ؛ الاحترام والتقدير المتبادلين ومراعاة أكثر لمصالح ومشاعر وقيم وسبل معيشة الآخرين .

ولا أريد هنا أن أدخل فى نقاش عن القيم الآسيوية والتى يقول عنها كثير من الغربيين

بإصرار وإلحاح : إنه لا وجود لها ، وبإصرارهم هذا جعلوا حتى غير المؤمنين بآسيا وقيمها يعتقدون أنه لابد من وجود شيء تتمتع به آسيا ؛ لن أعقب على الاعتقاد المتوهج عند الكثيرين فى جنوب كندا وشمال المكسيك ، أنه حتى بالرغم من وجود ذلك الشيء الرائع وهو القيم الأمريكية ، وأسلوب الحياة الأمريكى الذى يتمناه صاحب كل عقل سليم (حتى فى أوروبا) إلا أنه لا يوجد ما يسمى بالقيم الآسيوية ولا أسلوب الحياة الآسيوية ! !

سأذعن وأسلّم بسهولة بأنه مازال هناك الكثير أمامنا لنتعلمه من الغرب ، سأذعن بسهولة بأن الكثير من القيم الآسيوية اليوم تُهاجم ، وربما تندثر فى المستقبل ما دمنا نتحضر ، وندخل أسلوب الحياة الصناعية ، وما دامت الأسرة تتعرض لضغط ثقافة البوپ التى تدمر وتخرب قيمنا ، وسأذعن بسهولة بأن القيم الحالية فى آسيا اليوم ليست فريدة من نوعها ، أو أنها ليست آسيوية مائة فى المائة ، صحيح أن الكثير منها أفريقى ، خاصةً وأن قيم المنتصر هى التى تسود وتؤثر ؛ وكانت سائدة فى الثقافة الغربية ، وهى الموجودة حتى يومنا هذا فى ثقافات أمريكية وأوروبية فرعية ، والتى تحاول التمسك بما يسمى (القيم الأسرية) ، لن أجادل فى ذلك ؛ وهو لأن غالبية الجنس البشرى آسيويون ولأن الكثير من غير الآسيويين يشاركوننا هذه القيم ، أو يحاولون التمسك بهذه القيم فإن القيم الآسيوية إنما هى قيم عالمية .

ولن أدافع عن حكام فى آسيا ؛ يستغلون القيم الآسيوية لتبرير الممارسات الفظيعة ضد شعوبهم ، وسأسلم بأن الكثير من القيم الآسيوية فظيعة ويجب التخلص منها . وقد قضيت أنا شخصيًا جزءًا كبيرًا من حياتى أحاول بذل كل ما فى وسعى للقضاء على الكثير من تلك القيم الآسيوية ، التى تلحق بنا ضررًا بالغًا .

ولكنى لا أشعر بأى تأنيب ضمير عندما أقول إن هيمنة الثقافة الغربية لم تعد مقبولة بأى حال ، وكذلك فإن الغطرسة الثقافية الغربية غير مقبولة أيضًا ، وأن قصر نظر الثقافة الغربية وغباءها لم يعد مقبولا أكثر من ذلك ، وأن محاولة فرض كل ما هو متدن وغير أخلاقى أو إنتاجى على الآخرين أمر مرفوض ، ولن تتسامح آسيا فى هذا ، ولن تقبله فى

القرن الحادى والعشرين .

إن الكومنولث العالمى فى القرن الحادى والعشرين الذى أدافع عنه وأناصره يجب أن يقول : إن صدام الحضارات ما هو إلا فحش وقذارة لا يمكن أن نقبلها ، وأيضًا فإن التعايش العقيم وغير المثمر بين الحضارات لا يمكن قبوله ولا يمكن السكوت عليه ، لماذا التسامح فى الاختلافات فقط؟ لماذا لا يستطيعون تقبلها؟

إن الكومنولث العالمى الجديد للقرن الحادى والعشرين يجب ألا يعمل فقط على أساس من الاحترام المتبادل ، يجب أن نكون حضارة عالمية يدفعها احتفاء بالحضارات كلها تحتوى على كل ما يميز كافة الحضارات .

إن السلام الحقيقى شىءٌ لا غنى عنه ، إنه مطلب جوهرى للتقدم الإنسانى وإنه حجر الزاوية الأساسى للكومنولث الكونى فى القرن الحادى والعشرين ، والذى يجب علينا أن نبنيه ، ولكن اسمحوا لى أن أركز على حجر الزاوية الثانى ؛ ألا وهو : رفاهية الجميع ، على أساس أن يتعاون الكل فى تحقيقها ، وأعتقد أن أهم مبدأ فى هذه الرفاهية المشتركة هو توجيه الفكر نحو سياسة : «حاول أن تعمل على ازدهار جارك» .

وفى واحد من أهم الكتب تأثيرًا فى كل العصور كتاب «ثروة الأمم» الذى كتبه آدم سميث فى سنة إعلان استقلال الولايات المتحدة ، أكد على قوة وحيدة فيه ؛ وهى المصلحة الفردية والأنانية ، وأن من شأنها أن تصنع المعجزات ولها تأثير سحر لا يصدق فى صنع الخير العام داخل النظام الاقتصادى ، دعونى أؤكد هنا على الحاجة إلى تكملة هذه «اليد الخفية» بـ«الكتف الخفية» ، فالطرح الذى يؤكد على رفاهية الجميع من شأنه أن يعمل المعجزات فى إنتاج رفاهيتنا ، والرفاهية العامة للحكومة للكومنولث الكونى .

ولعهود طويلة ، وسواء سلمنا بذلك أم لم نسلم ، سواء أدركناه أم لم ندركه ، كان المذهب السائد هو : «افقر جارك ، واجعله يتسول» ، وأريدكم فقط أن تسألوا كيف كان رد

فعلنا عندما وجدنا الآخرين يؤدون أداءً رائعًا ، ويحرزون تقدمًا؟ ! ودلت الدراسات الإحصائية تلو الأخرى أنه عندما عُرِض علينا الاختيار بين : وضع نعمل فيه بشكل جيد جدًا ، بينما الآخرون يعملون بشكل أفضل ، وبين وضع لا نعمل فيه بشكل جيد بينما الآخرون ليسوا بأفضل حال منا ، فإن الأغلبية كانت تختار الخيار الثانى ! فضلوا ألا يعملوا بشكل جيد جدًا ، والآخرون يعملون بمستوى أقل جودة مما يعملون ، هم فضلوا ذلك الخيار على ألاّ يعملوا بطريقة جيدة جدًا وفى الوقت نفسه يرون الآخرين يؤدون أفضل منهم ! !

فقط أريدكم أن تسألوا أنفسكم : كم من الوقت أهدرناه ، وكم من الجهد بذلناه فى جذب الآخرين للخلف بدلاً من أن نبتهج ونفرح لإنجازاتهم ونمد لهم يد العون؟ ونزيد عدد الأكتاف التى تدفع بعجلة تقدمهم للأمام؟

كما أن مساعدة الآخرين ليزدهروا يعد أمرًا منطقيًا ، ولكن من منظور المصلحة الذاتية ، فإذا ساعدت جارك على أن ينمو ويزدهر فإنك بالتالى ستنمو وتزدهر معه ، ولابد من أنك ستضحك طوال الوقت وأنت فى طريقك إلى البنك لو أنه كان يضحك طوال الطريق للبنك .

إن رفاهية جيراننا وجيران جيراننا وكذلك الكومنولث الكونى هى محل اهتمامنا الفورى والحيوى ، فإن جيراننا يضمنون لنا الأسواق التى نحتاجها لصادراتنا ، ويؤكدون السلام والاستقرار ، أمَّا الجيران الفقراء على الجانب الآخر ، فهم دائما مصدر المشاكل لكل الأطراف ؛ لأنفسهم ولنا ؛ لأن مشاكلهم ستطرح علينا ، بدلاً من مد الثراء والأمل ، الذى سيساعد فى تسيير كل القوارب ، ومياه الفقر المرتفعة لن تكون سوى موجة من البؤس والحرمان تغرق الجميع .

لقد اعتدنا فى شرق آسيا أن يكون كل طرف منا شوكة فى حلق الآخر ، ونتمسك بشدة بتقاليد العداء المقدسة ، وينتقل العداء من جيل إلى الجيل الذى يليه ! أحيانًا يستمر هذا

العداء لأكثر من ألف سنة ! ! قد بذلنا كل ما في وسعنا لإفقار جيراننا وتدنى مستوى معيشتهم ! ربما بالأسلوب نفسه الذى اتبعوه فى أوروبا ، ولقد استغرقنا قرونا لنكتشف طريقة لندفن بها مبدأ «افقر جارك» ، وقد تم تغيير هذا المبدأ إلى «اعمل على رفاهية جارك» وهذا هو السبب فى أن هناك أكثر من تنين فى شرق آسيا وأكثر من نمر ، وهذا هو السبب فى أن الإقليم بأكمله مسكون بالتنانين والنمور وأشبال النمور ، لقد جربنا «الكتف الخفية» ونجحت ، لقد شبعنا وأصبحنا بدناء نتيجة رفاهية وازدهار جيراننا ! لقد كانت وليمة حقيقية !

تخيلوا لو أن القوة الجبارة الهائلة لمبدأ «اعمل على رفاهية جارك» وكذلك مفهوم «الكتف الخفية» طُبِّقا على نطاق عالمى ، تخيلوا مدى رخاء آسيا لو كانت أوروبا مزدهرة وتتمتع بالرخاء ، ولو أن أوروبا القديمة صاحبة الثورة الصناعية عادت - نابضة بالحياة والديناميكية - تنمو بوثبات ، تخيلوا كم ستزدهر آسيا وتنعم بالرفاهية ! ولو أن كل الأمريكيين مفعمون بالحيوية والديناميكية ، ويتقدمون بوثبات ، تخيلوا كم ستزدهر آسيا لو أن أفريقيا ممتلئة حيوية ونشاطا ، أتمنى أن أكون قد وفقت فى شرح وجهة نظرى .

والجانب الآخر من العملة أيضًا واضح ، تصوروا الفوائد التى يمكن أن تجنيها أوروبا من الأمريكيين المزدهرين والنابضين بالحيوية ، وكذلك الحال بالنسبة لأفريقيا وآسيا وبالنسبة للكومنولث الكونى .

لقد ركزت على فكرة الكومنولث العالمى للقرن الحادى والعشرين الذى نتمنى جميعًا أن نبنيه . . . . ولقد قلت فى بداية حديثى إنه لا يوجد أساس ولا أرض للمثالية المشيدة على رمال الوهم ، وأنا أعتقد بصدق أن مثاليتى لم تبن على الخيال والوهم ، فإن كل ما تصديت له بالحديث والتأييد الكامل له يمكن إنجازه .

وحتى يمكن إنجاز كل ذلك ، فإننا فى حاجة إلى آسيا جديدة ، تجد مكانها اللائق فى

صنع التاريخ الكونى ، وتلعب الدور نفسه الذى لعبته من قبل فى صنع الحضارة الإنسانية .

قدَّر بعض الدارسين الغربيين أنه فى عام ١٨٢٠م ، كانت نسبة ٥٨٪ من إجمالى الناتج العالمى من آسيا ، (ومن قبيل المصادفة أنه عام ١٨٠٠م ، كانت الصين صاحبة أعلى دخل فى العالم رغم أن بريطانيا كانت قد احتلتها قبل وقت قصير) وبعد ذلك بمائة عام ؛ أى سنة ١٩٢٠م ، كانت كل آسيا على امتدادها من البحر المتوسط وحتى بحر يبدنج لم تنتج ٥٨٪ كما كانت من قبل ، بل كانت تنتج ٢٧٪ فقط من ناتج العالم ، وهبطت النسبة إلى ١٩٪ فى عام ١٩٤٠م ، ومنذ ذلك الحين فإن إجمالى ناتج آسيا القارى فى ارتفاع بصورة سريعة مرة أخرى ، ومع حلول عام ٢٠٠٠م ، وبالقيمة الإسمية للدولار الأمريكى ، فإن الاقتصاد الإقليمى لـ«نافتا» والاتحاد الأوروبى وشرق آسيا سيصلون إلى تعادل تام فى القيمة الشرائية لعملاتهم ، ومع حلول عام ٢٠٢٠م ، يبدو من المحتمل جدًا أن منطقة شرق آسيا وحدها ستكون فى كبر حجم الاتحاد الأوروبى ودول النافتا مجتمعين ، ويتوقع بنك التنمية الآسيوى مع عدد كبير من البنوك أنه مع بداية عام ٢٠٢٥م ، لن تقدم آسيا ٥٨٪ من نتاج العالم ، بل ما تقترب نسبته من ٥٧٪ ، وهكذا نرى عودة التاريخ ، على الرغم من أنه استغرق أكثر من مائتى عام من مسيرة آسيا حتى تستكمل الدائرة الاقتصادية تمامًا .

وحتى لو أن آسيا تنتج ٦٠٪ من ثروة العالم ، فسيظل الآسيويون فقراء . ولكن مركز الجذب الاقتصادى سيتغير ، وسيتغير مركز الجذب السياسى أيضًا ، وآمل أن ينتقل أيضًا مركز الجذب الحضارى .

ستحتاج آسيا إلى أن تواجه تحدى القيادة ، إنه أصعب تحد ، وعندما ندرك أنه على عكس أوروبا وحتى الأمريكتين فإن تنوعنا لا مثيل له ، وقدرتنا على العمل متماسكين ومتضامنين ستكون محدودة ، ويمكننا المشاركة بطريقة أفضل من كل ذلك لو أن أيدينا تشابكت فيما بيننا ، وتشابكت مع أوروبا ومع أمريكا الشمالية ومع أفريقيا ومع كل جزء فى العالم .

لقد أتيت إلى أوروبا من قبل لأطلب يد التعاون وأحثهم على أن تعمل آسيا وأوروبا معًا ، وها أنا فى أوروبا مرة أخرى أدعو للتعاون وللعمل المشترك .

فى الأيام المقبلة يجب أن نتوقع أن آسيا ستسعى من أجل المزيد من تقرير المصير الآسيوى ، لا يمكن أن تحرم آسيا من حق تنظيم نفسها وحق العمل المشترك والحق فى السعى من أجل التضامن وبناء الوحدة ، ولا يمكن توقع قبول الإملاءات والنصائح دون اعتراض ، وبالأسلوب الذى كانت تقوم به لنا دون أن ننبس بنت شفة ! !

ولا يمكن أن نتوقع من آسيا أن تستمر فى لعب دور المفعول به وليس (الفاعل) وصانع التاريخ . . . . . . لا يمكن أن تكون آسيا الضحية ، أو المستفيدة من قرارات صنعت فى مكان ما ! ! ولا يمكن أن نتوقع أن تقوم آسيا بدور المشاهد وليس المشارك ! ! المشاهد الواقف على ضفاف أنهار التغيير المتدفق ، فآسيا لابد من أن تكون وسط النهر ، وليس خارج إطار عمل الحضارة والتحضر ، هل يمكن أن يوثق فى أن آسيا تتصرف جيدًا وبأفضل سلوك حضارى دون غطرسة ، وبكل الحكمة؟ أنا لا أعتقد ذلك ، لا يمكن لآسيا أن تفعل أكثر مما كانت تفعله أوروبا والولايات المتحدة فى أيام خلت وأصبحت الآن ماضيا .

ولهذا أجد أنه من الضرورى التأكيد على ضرورة وجود الكومنولث الكونى فهو أكثر ديمقراطية وأكثر مساواة ، حيث تأتى القيادة من الجهات الأربع للكرة الأرضية ، ولهذا نجد أنه من المهم التأكيد على أهمية وجود نظام كونى أفضل من أى نظام شاهدناه فى الماضى .

إننا نبعد عن القرن الحادى والعشرين بأشهر قليلة وليس أمامنا الكثير من الوقت لنضيعه .

٦- التَّحَدِّيَاتُ الَّتِي تُوَاجِهُ الْجِيلَ الْقَادِمَ *

فى عام ١٩٦٩م ، كان المرء لايملك إلا أن يضحك فى صمت لو أن أحدًا تصور أن العلاقات بين الأجناس المختلفة فى ماليزيا ستكون جيدة إن لم تكن فى انسجام تام ، لأن هذه المسألة لم تكن واردة فى الحسبان ؛ كان كمُّ المرارة كبيرًا جدًا ، هاجرت أعداد كبيرة من غير الملايويين ، وتحدثت الصحافة عن صدامات ستقع من حين لآخر بين الأجناس مستقبلاً ، وأن البلاد لن تكون مستقرة سياسيًا ، وأعلن وزير كبير فى الحكومة على الملأ : أن الديمقراطية ماتت فى ماليزيا !

ولكن انظروا إلى المشهد عندما كانت الدولة تحتفل بالذكرى الأربعين لاستقلالها مؤخرًا . الكل ؛ ملايويون وصينيون وهنودٌ وإيبان وكادازان كلهم كانوا يحيون العلم الوطنى ويزينون سياراتهم ومنازلهم به ، وتراهم يحملونه ويلوحون به بحماسة !

وكان هناك تجمع من أجناس متعددة فى ميدان ميرديكا يختلطون بحرية دون أى بادرة خوف وعلى ثقة كاملة بأنه لن يؤذى أحد غيره ؛ لأنه من جنس مختلف ، كانوا يهتفون وينشدون أغانى وطنية ، أصواتهم تعلو بالتشجيع والهتاف لأبطال الجرى متعددى الأجناس الذين أتوا من كل أرجاء البلاد ، حاملين الأعلام بكل فخر وزهو !

هل كان فى إمكان أى فرد تخيل مثل هذا المشهد فى الثالث عشر من مايو ، سنة ١٩٦٩م ، أو حتى السنوات التى تلتها؟ ! هذا المشهد أصبح من المشاهد العامة المألوفة التى تتكرر سنة بعد سنة ، وهو أدل شهادة على عدم قدرة غير المخلدين مثلنا فى أن يتنبأوا

* خطاب افتتاحى فى الجامعة بمناسبة اللقاء السنوى لخريجى جامعة الملايو فى كوالالمبور فى ١٩ سبتمبر ، سنة ١٩٩٧م ، وكان بعنوان : «ماليزيا فى الألفية القادمة : تحدى للجيل القادم» .

بحدوث شيء ، حتى التخمينات غالبًا ما تخطئ !

ولكنى سأحاول أن أتنبأ بالمستقبل ما دام قد طلب منى ذلك ، إنه مجرد تخمين بالطبع ، ولكنى أتوقع أن يتحقق بعض منه .

ولأن ما سيحدث لماليزيا سوف يتأثر كثيراً بما يحدث فى بقية العالم يصبح من الضرورى أن أتنبأ بمستقبل العالم أولاً ، فلاشك أن الكثير من شئون العالم سوف يتغير ، فنحن نتحدث الآن بالفعل عن القرية الكونية ، وعن عالم انكمش كثيراً جداً ، حتى أن المجتمع الدولى سيتحول على أقل تقدير إلى مجتمع القرية ؛ المجتمع الذى يعرف فيه كل الأفراد بعضهم بعضًا ويقتفون أثر بعضهم ويسيرون على النهج نفسه وبشكل ثابت .

والقرية الكونية نتيجة لسرعة الاتصالات وللتحركات الفعلية للناس والبضائع والمعلومات من كل نوع . وبالفعل فإن الوقت الذى يستغرق فى السفر إلى الجانب الآخر من الكرة الأرضية أقل بكثير مما كنا نستغرقه فى التحرك خلال شوارع المدينة المكتظة بالناس .

تخيلوا الوضع عندما كانت رحلة السفينة البخارية تستغرق ثلاث أسابيع لتقطع المسافة من بورت سويتهام إلى لندن ! أما الآن فتستغرق ١٣ ساعة فقط !! وبالطبع لو أخذت الطائرة الكونكورد من لندن إلى نيويورك فسوف تصل قبل التوقيت المحلى الذى تركته فى بلدك !

لكن نقل المعلومات هو الذى حقق هذه السرعة المذهلة ، ففى السابق كانت الأخبار ترسل بالبريد من ماليزيا إلى لندن فى ثلاثة أسابيع ، أما اليوم فالأخبار والصور تنتقل من الفور على شبكة الإنترنت ، وما على المرء سوى أن ينقر على كلمة : (أرسل) وفى ثوانٍ تصل الرسالة إلى أى جزء فى العالم !

وكذلك فإن مؤتمرات الفيديو تلغى المسافات ، وتبدو وكأنها غير موجودة ، ولا تمكن شبكة الإنترنت الناس من مجرد الاستقبال الفورى للمعلومات فقط ، بل إن كل أنواع

التجارة والتعاملات التجارية تتم بصفة فورية من خلالها !

حقيقى أن البضائع مازالت تحتاج إلى وقت حتى تصل إلى وجهتها ، ومع ذلك فإن هذا الوقت سيقل ويقصر أكثر فأكثر وذلك بزيادة استخدام النقل الجوى ، إن أكبر نمو فى صناعة الملاحة يظهر فى مجال نقل البضائع ، فشركات تسليم البضائع العملاقة والمتحررة من احتكار الحكومة تقوم بتسليم كل أنواع البضائع من الباب للباب ، فلن تحتاج إلى الذهاب للمحلات التجارية لاختيار البضائع التى ترغب فى شرائها ، وبدلاً من ذلك سوف تطلبها وتصل إليك فى منزلك ؛ تفحصها ، ولك أن تقبلها أو أن ترفضها وتشترى أى شىء تريده من خلال البنوك الإلكترونية ، وتستخدم أيضًا نقودًا إلكترونية محولة إلى حساباتنا إلكترونيًا كل أسبوع ، أو كل شهر .

كل هذه الأشياء قد تبدو بعيدة المنال ، ولكن الكثير منها يحدث الآن ، ومن ثمَّ فإن سهولة الحركة هذه ستؤدى إلى هجرات هائلة ؛ فالناس تنتقل إلى حيث يتوقعون وجود حياة أفضل ووظائف وتيسيرات حياتية ، واجتماعية أفضل ، فالبلاد أُحادية العِرْق ستفسح الطريق أمام البلاد متعددة الأجناس فى كل مكان ، ولن تتمكن أى دولة من الدول من وقف تدفق الأجانب إليها ، وإذا أقدمت على ذلك فسوف تتهم بالممارسات غير الإنسانية والظالمة ، سيصبح العالم حقًا بدون حدود وستندمج البلاد فى كيان كونى واحد ، وسوف تتوقف البلاد الأوروبية وأمريكا الشمالية ؛ وهى أكثر البلاد رخاءً فى العالم ، عن المحافظة على شكلها الأوروبى ؛ أى على أنها شعوب الرجل الأبيض أو القوقازى ، ولسوف يتدفق الهنود والأفارقة والصينيون إلى البلاد الأوروبية ، لدرجة أنه قبل مرور قرن من الزمان لن تعرف أوروبا بالشعوب البيضاء ؛ فالسود والصفر وأصحاب البشرة البنية سيكونون جميعهم أوروبيين ، فهاهم الرياضيون الأوروبيون وبشكل واضح من أصحاب البشرة السوداء !

وبديهى أن يتبنى هؤلاء المهاجرون غير الأوروبيين اللغة والعادات الخاصة بالأوروبيين الأصليين ، ولكن مع زيادة أعدادهم سيميلون إلى الاحتفاظ بلغاتهم وعاداتهم وثقافاتهم .

ولن تقتصر الرفاهية على الأوروبيين الأصليين ، فربما يسيطر الآسيويون على المعاملات التجارية فى أوروبا ولسوف يشكل الآسيويون والأفارقة قوة العمل خاصةً وهم يحتفظون بثقافاتهم وقيم العمل عندهم ، وهناك نتائج أخرى مترتبة على ذلك ؛ سيكون هناك صدامات بين الجماعات التى تمثل أجناسًا مختلفة بما فى ذلك الجماعات الدينية ، ولن يكون هناك صدام حضارات كالذى يُتنبأ به بين الحضارات المختلفة إن هى ظلت منفصلة .

ومع مرور الزمن فإن شعوب الحضارات المختلفة التى تعيش فى الدول الأوروبية ستختلط ببعضها بشدة ، والمواجهات بين شعوب هذه الحضارات المختلفة لن تتم إلا على نطاق ضيق ، ولن تكون مرتبطة ببعضها ، والأسباب ستكون محلية أكثر منها عالمية ، وستتكرر مشاهد القمع العرقى فى أمريكا الشمالية وفى أوروبا ؛ لأن سلطات البيض ستحاول فرض معاييرها وقواعدها على الأوروبيين الجدد ، ولكن البيض سيرضخون فى النهاية ، حتى تصبح معاملة كل الأوروبيين بغض النظر عن اللون متساوية ، وهناك احتمال بالطبع فيما بعد ، خلال الألفية الجديدة أن يسود الأوروبيون غير البيض ويحاولون فرض إرادتهم على الباقين .

ولكن هذه الصدامات والمواجهات ستكون متغيرة وغير ثابتة ؛ لأن الأجناس ستتزاوج وتتكامل فيما بينها ، وسيتزوج مزيد من الرجال والنساء البيض أو على الأقل سيتعايشون مع مزيد من الرجال والنساء السود والآسيويين ، وسيأتى نسلهم بمزيج من ظلال اللون الأبيض والأسود والبنى والأصفر ، وسيظهر جنس هجين غير محدد كما حدث فى بعض أجزاء من البحار الجنوبية ، ومع نهاية الألفية أو حتى قبل نهايتها سيكون من المستحيل أن تجد أى إنسان من أصلٍ أوروبى خالص .

وستمضى أمريكا الشمالية على طريق البرازيل ، حيث اختلط الناس فيما بينهم بحرية إلا أن أمريكا اللاتينية ستستغرق وقتًا أطول ؛ لأن الهنود الأمريكيين تم عزلهم على نطاق كبير ، أما أكبر عدد من أصحاب الجنس الخالص يمكن أن يكونوا الآسيويون ؛ لأنهم

سيمنعون من الاختلاط نظرًا لأعدادهم الكبيرة وكذلك بسبب عزلتهم حتى فى عالم بلا حدود ، وسيهاجرون إلى البلاد الأقل كثافة سكانية ، حيث يحددون الطبيعة المستقبلية للشعب هناك ، أما الأعداد القادمة من أوروبا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية إلى الدول الآسيوية فسوف تكون صغيرة نسبيًا نظرًا للكثافة السكانية الآسيوية فى بلادها .

وسيظل الصينيون والكوريون واليابانيون أنقى الأجناس لمدة طويلة ، ولكنهم فى النهاية سيختلطون ، إلا أنهم سيكونون أقل اختلاطًا دائمًا من الأوروبيين فى أوروبا والأمريكتين .

ومن اختلاط الشعوب والثقافات ستنشأ ثقافات وحضارات جديدة سيكون لها ملامح كثيرة متشابهة ولن تكون هناك ثقافة أجنبية أو مهيمنة ، ولن يمكن تحديد الأجناس المهجنة بالبلاد التى يقطنوها ، أو الأقاليم ، أو الثقافات ، وإنما سيصبحون شعوب كوكب الأرض .

ولن تكون الحروب بين الدول ممكنة ، فى الحقيقة لن تكون هناك أمة أو ولاء وطنى فى عالم بلا حدود حتى يمكن الدخول فى حرب من أجلها ، ولكن سيكون هناك الكثير من أعمال العنف التى ترجع إلى سوء فهم لبعض القضايا ، أو التفسيرات ، أو الأيديولوچيات المقصورة على فئات محددة وجماعات ليس لها أساس إثنى أو وضعٍ خاص بجنس معين ؛ مثل أعمال العنف هذه ستدوم ويبدو أنه من المستحيل وضع حدٍ لها .

ونشهد فعلاً هذه الظواهر ، لقد وضعت الحرب العالمية الثانية نهاية للحرب بين الأمم وكانت هناك حرب باردة لفترة من الزمن ، حيث كانت المواجهة بين شعوب الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، وفى أحوال كثيرة كان يبدو أن حربًا ستنشب بين الكتلتين ، ولكن الخوف من الحرب النووية ، ومن دمار يتعذر إصلاحه ينجم عنها ، كل تلك المخاوف أدت إلى تحلى المسئولين بالحكمة وضبط النفس ، ومن ثم لم تقع الحرب ولكن حروبًا بالوكالة نشبت فى

جميع أرجاء العالم ؛ لأن إحدى الكتلتين حرضت إحدى دول العالم الثالث على الدخول فى حرب ضد دولة أخرى من دول العالم الثالث أيضًا يعتقد أن الكتلة الأخرى تساعدها أو كانت تساعدها بالفعل . وقتل مئات الآلاف نتيجة حروب الوكالة هذه ، وبالطبع ألحق الكثير من الدمار بممتلكات واقتصاد العديد من تلك الدول . وبالطبع فإن كلا الطرفين خاسر فى النهاية ، حيث وجدت تلك الدول نفسها غير قادرة على استرداد ما خسرته لأن رعاتهم تخلوا عنهم وتركوهم .

ولكن الحروب بالوكالة هذه لم تكن المصدر الوحيد للعنف ، فهناك العصابات الإرهابية التى هددت السلام والاستقرار فى العديد من الدول مثل : جماعة الألوية الحمراء وعصابة بادرمينهوف والجيش الجمهورى الأيرلندى والجماعات الإسلامية المتطرفة ، كل هؤلاء انغمسوا فى أعمال عنف لا معنى لها ؛ يقتلون ويدمرون الممتلكات ! ! وعمومًا يحرمون بلادهم نعمة السلام والاستقرار والتنمية الاقتصادية .

وفى البوسنة كانت هناك محاولة آثمة لإبادة المسلمين قد تم التغاضى عنها مرات عديدة عن عمد فقد ساعدتهم قوى كبرى ، وذبح أو قتل حوالى ٢٠٠,٠٠٠ من المسلمين إضافة إلى أعداد أقل من الكروات والصرب بطريقة أو أخرى ، وأغمض العالم عينيه عن تلك الفظائع والمجازر الوحشية التى ارتكبت ، بينما يسارع كل طرف لإلقاء اللوم على بلاد معينة ؛ لأنها انتهكت حقوق الإنسان ، والذين عينُّوا أنفسهم حراسًا على أخلاقيات العالم قرروا ألاَّ يروا أو يفعلوا أى شىء حيال المجازر البشعة التى ارتكبها الصرب ! !

وفى مجال التجارة كانت هناك ضغوط تمارس على المتنافسين لمنعهم من التنافس بنزاهة ، وهكذا ومن خلال أمور لا علاقة لها بالتجارة مثل : انتهاكات حقوق الإنسان المزعومة ، وقضايا خاصة بالبيئة وحقوق العمال ، قد استغلت لمنع الاقتصاد الناشئ من النمو ، وطبقت عقوبات على دول معينة لانتهاكات مزعومة ، ولكن إن لم تكن تلك البلاد تمثل تحديًا اقتصاديًا ما فلا شىء يتخذ حيالها .

وذبح مئات الآلاف فى أفريقيا أو طردوا من ديارهم وبلادهم دون أن يفعل حراس الفضيلة والأخلاق فى العالم أى شىء لإيقاف المجازر أو الحد من بؤس اللاجئين ! وخلال حروب الوكالة ثم تطوير أسلحة شيطانية وزعت مجانًا على الفرقاء المتقاتلين ! هكذا أرادت أكبر الدول فى تجارة السلاح أن تجرب أسلحتها فى مواقف حياة حقيقية ، ومعظم هذه الأسلحة دفعت للدول الوكيلة ، وكانت حروب الوكالة والتفويض هذه تعود بالفائدة على تجار السلاح . ومن تلك الأسلحة ؛ الألغام الأرضية ، حيث تم نشر الملايين من تلك الألغام فى العالم بأسره لتقتل وتعوق الأبرياء طويلاً حتى بعد انقضاء الحروب ! وعارضت القوى الكبرى ، بل رفضت كل المحاولات التى تهدف إلى تجريم زرع الألغام واستخدامها ؛ لأن تلك القوى مازالت منكبة على اختراع وتطوير واختبار وبيع الأسلحة بما فيها الألغام الأرضية ، ويبدو أن بعض الناس يشعرون بأن العالم يحتاج إلى وسيلة رخيصة لقتل الناس !

وسباق التسلح مازال مستمرًا رغم انتهاء الحرب الباردة ، ومازال تجار السلاح مستمرين فى ابتكار واختبار وإنتاج مزيد من الأسلحة الحديثة والمطورة للقوات المسلحة المتناحرة لتحديث قدراتها القتالية ، وفى حال عدم وجود أعداء لقتالهم فى الوقت الراهن ، فإن أعداء المستقبل يتم تحديدهم من الآن ؛ وذلك لتبرير التوسع فى إنفاق الأموال الطائلة على الأبحاث وعلى تطوير وإنتاج السلاح .

ولكى يستردوا استثماراتهم فى إنتاج السلاح ، يتولى منتجو السلاح إقناع الدول الصغيرة بشراء هذه الأسلحة بالرغم من أن هذه الدول لا ترى فى المستقبل المنظور عداءً من أحد ولا تتوقع أى هجوم عليها من أية جهة ! إلا أنه يتم إقناعهم بأن يكونوا على حذر من جيرانهم الذين تم إقناعهم بالتالى أن يتسلحوا ويجهزوا قواتهم بأسلحة معينة ، وهنا تدين وسائل الإعلام فى الدول المتاجرة فى السلاح تلك الدول الصغيرة التى تواصل سباق التسلح !!

إن كل ما قلته يحدث اليوم ، وفى هذه المنطقة لن يتغير المستقبل بشكل كبير عن

الحاضر ، ولسوف يشهد القرن التالى ، والألفية التالية استمرار حدوث ذلك كله . وربما تحدث تغيرات ، ولكنها ستكون مقصورة فقط على الدرجة والنوع ، وإلا فإن التاريخ سوف يعيد نفسه .

عندما انتهت الحرب العالمية الثانية كان هناك أمل فى تشكيل وإقامة علاقات دولية أكثر توازنًا وإنصافًا ، وأنشأت الأمم المتحدة لتنقل الصراعات إلى مائدة المفاوضات بدلاً من ميادين القتال ، ولكن المنظمة غُلبت على أمرها واستولت عليها القوى العظمى وتحولت إلى أداة فى سياستهم ! لا يوجد الآن أمم متحدة فاعلة ومؤثرة فى حفظ ودعم السلام وفرض المساواة والعدل بين الأمم ! ومع ذلك فإن ما تقوم به الأمم المتحدة فى مجال الصحة والزراعة يخفف من عدم فاعليتها فى حفظ السلام والعدل ونزاهة الأداء .

كيف تمارس الأمم المتحدة دورها فى عالم بلا حدود؟ ذلك يرجع إلى تخمين أى فرد ، ولكنها بالتأكيد لن تكون أكثر فاعلية مما هى عليه الآن ، ستظل أداة فى أيدى القوى الكبرى .

إن ما يحدث للعالم سوف يؤثر على شئون ماليزيا الداخلية والخارجية ، إن ماليزيا اليوم أكثر تكاملاً مع بقية العالم أكثر من أى وقت مضى ، واقتصادنا مرتبط باقتصاد العالم ارتباطًا لا خلاص منه ، وبسبب ذلك فإن سياساتنا وحياتنا الاجتماعية ستتأثر أيضًا بما يدور فى بقية أرجاء العالم .

فى وقت ما ، كان العالم بالنسبة لنا لا يزيد عن بضع دول وهى التى لنا معها علاقات سياسية وتجارية ، وهذه الدول هى ؛ المملكة المتحدة ودولتان أو ثلاث دول أوروبية رئيسية ، أما دول أمريكا الشمالية واليابان فى الشرق فقد كانوا شركاءنا ، وللتحول من الاعتماد التام عليهم وقعنا عقودًا مع الأوروبيين الشرقيين ومع دول وسط آسيا والدول الأفريقية ودول أمريكا اللاتينية .

ولم تعد تجارتنا قاصرة على دول بعينها ، والحقيقة أن تجارتنا مع دول شرق آسيا بما فى ذلك جنوب شرق آسيا ، من المحتمل أن يكون لها النصيب الأكبر من حجم تجارتنا الإجمالية فى المستقبل ، وليس معنى ذلك أننا لا نريد التجارة مع أمريكا وأوروبا ، بل الحقيقة أن الدول الأوروبية ودول أمريكا الشمالية قد بلغت مرحلة النضج فى التجارة ، ومعدل نموهم سيكون صغيرًا إذا قدرناه بالنسبة المئوية ، إلا أنه سيظل كبيرًا بشكل عام .

ومن ناحية أخرى فإن دول شرق آسيا مازالت فى مراحل مبكرة لنموها وقدرتها على التوسع أكبر وأسرع بكثير ، إن نسبة الزيادة الصغيرة فى مستوى دخل الفرد فى الصين قد تزيد من القدرة الشرائية لتلك البلاد زيادة كبيرة جدًا .

ستصبح ماليزيا - بحق - تاجرًا عالميًا تنتج سلعًا مصنعة من كل نوع للتصدير وتشترى مواد خام ومكونات بالتبادل مع الدول الأخرى .

وعلى الصعيد السياسى ستحافظ ماليزيا على استقلالها ، ولن تنتمى إلى أى تجمع وستتنوع سياساتها وفقًا لتقديراتها وإدراكها لما هو صواب وما هو خطأ ! أما داخليًا فسيستمر الماليزيون فى المضى ضد الحكمة التقليدية فمنذ عام ١٩٧٠م ، انطلقت ماليزيا فى ممارسة كل ما تعتقد أنه الأفضل لها .

ومع بداية السياسة الاقتصادية الجديدة (١٩٧٠ - ١٩٩٠م) التى أدانها بقية العالم ؛ لأنها وبشكل صريح تتبع سياسة التميز ! فإن ماليزيا تُحسِّن من اتجاهاتها كل مرة طول الوقت ، ولحسن حظ ماليزيا كانت معظم هذه السياسات والطرق المتباينة ناجحة .

وهكذا ، وعندما أدان العالم مفهوم المؤسسة اليابانى ، تبنت ماليزيا مفهوم الشراكة بوصفه أسلوبًا نحو تسهيل التطور الاقتصادى .

ومع مفهوم «ماليزيا المتحدة» انطلق أكبر برنامج للخصخصة لم تقدم عليه أى دولة من قبل ، وعندما انطلق هذا البرنامج فى عام ١٩٨٣م ، وعام ١٩٨٤م ، لم تكن الخصخصة

مقبولة تمامًا فى معظم بلدان العالم ، فقد حاولت ذلك عدة دول أوروبية ، ولكنها تخلت عن التجربة بينما اندفعت ماليزيا دون تردد بشدة نحو الخصخصة لدرجة أن الإدارات والشركات وأشغال الحكومة تم تحويلها إلى القطاع الخاص .

ومن المثير للدهشة فى الخصخصة الماليزية أن العمال يؤيدونها ولم تسرع الخصخصة فى التنمية فقط ، بل إنها ساعدت بالفعل على تحقيق أهداف السياسة الاقتصادية الجديدة بخلق مؤسسات وطنية (بوميپوترا) كبيرة تضاهى المؤسسات الأخرى وقد نجحت هذه المؤسسات بالرغم من أن عددًا قليلاً من الناس كانوا يتوقعون ذلك .

ونتيجة للسير ضد الحكمة التقليدية ، أدى ذلك إلى استقرار ماليزيا سياسيًا ونجاحها فى التصنيع ، والتنمية الاقتصادية ، ورغم المحاولات المتكررة لزعزعة استقرار البلاد ، إلاَّ أن ماليزيا تستطيع التغلب على هذه المحاولات والمضى فى طريق الازدهار .

إذن ، ما هو التحدى أمام الجيل الجديد؟ من الواضح أنه عليهم الاستمرار فى الحفاظ على الاستقرار السياسى والتنمية الاقتصادية للأمة ، لكن المهمة لن تكون سهلة كما كانت فى السنوات الأولى .

نحن نشهد بالفعل أن تفشى مظاهر الإحساس بالرضى والقناعة والرغبة فى الاسترخاء تحت شجرة النعيم والاستمتاع بمباهج الحياة ، والتسكع فى الطرقات وتعاطى المخدرات وأشياء من هذا القبيل سوف تضعف همم وعزم الشباب الماليزى ، وبالتالى تتدهور قيم وأخلاقيات العمل تدريجيًا ، وعلى غرار ما يحدث فى الدول المتقدمة نجد المطالبة بزيادة الأجور وتقليل ساعات العمل ، كما نشهد - للأسف - الاتجاه نحو تدنى المستوى الأخلاقى وسوء سلوك الشباب الماليزى تقليدًا للشباب الأوروبى .

ولكن ناهيك عن التدهور الداخلى ، هناك أيضًا ضغوط خارجية ، ولأن الماليزيين المترفين سيرفضون أنواعًا معينةً من العمل ، سيؤدى ذلك إلى هجرة المزيد من الأجانب إلى

البلاد ؛ فى البداية يأتون فقط للعمل ، ولكن سرعان ما يستقرون ويطالبون بحقوقهم بما فى ذلك حق المواطنة ، وسيطالب الماليزيون بعدم منحهم هذه الحقوق ولكن بقية العالم ستمارس ضغوطًا علينا ، وفى النهاية سيتمكنون من الإقامة .

وشاهدنا منذ فترة قريبة كيف أن المضاربين الأوغاد قد دمروا اقتصادنا فى عملية يُثْرونَ بها أنفسهم على حسابنا ، وسيحدث هذا مرة ثانية وثالثة ! ولو بدأنا نحقق رؤية ٢٠٢٠م . فسوف يقومون بتشويه اقتصادنا وسياساتنا وسوف يُستغل الماليزيون لتحقيق هذا الغرض أيضًا .

وسيزداد الضغط السياسى على ماليزيا ، ولسوف تفرض علينا المفاهيم الغربية عن الديمقراطية التى يتبوأ الفرد فيها المكانة الفائقة ، ولسوف يتسم المشهد السياسى الماليزى بعدم الاستقرار وحدوث تغيرات عديدة فى الحكومات ! وسيدمر معظم الشباب ، القلة فقط هى التى ستقاوم ، وستبذل محاولات متكررة لاسترداد الروح الماليزية ؛ روح «ماليزيا بوليه» .

ستكون هناك صراعات مطولة بين الوطنيين والشباب الذين يريدون أن يعيشوا العالم ! فمن منهم سيفوز؟ هذا هو السؤال وهو أيضًا التحدى .

٧- بِنَاءُ الكُومَنولْثِ الكَوْنِيِّ لِلقَرْنِ الحَادِي وَالعِشْرِينَ *

إننا اليوم على مشارف قرن جديد بل وألفية جديدة ، وأصبحت الحاجة ماسة ولازمة لعالم كونى واحد يعمه السلام والرفاهية ، وقبل ألف عام مضت بالضبط وبينما كان ما يسمى بالعالم المتحضر آنذاك ، يتجه فى نهاية الألفية الأولى نحو عام ١٠٠٠ ميلادية ، كانت أوروبا فى قبضة اليأس والخنوع ؛ إذ تنبأ رجال الدين وأهل العلم بناءً على كتبهم المقدسة ، مخطوطاتهم بنهاية العالم بعد ألف عام من ميلاد السيد المسيح عليه السلام ، كما جاء فى سفر الرؤيا .

سادت سحابة من التشاؤم واليأس ولم يتجرأ أى عمل تجارى على رفع رأسه ، ثم تآكل كل جهد وأعيقت كل محاولة ، فما جدوى أى مشروع تجارى وما جدوى الجهد المبذول وماجدوى أى شيء إذا كان العالم بأجمعه يتحرك نحو الفناء واليوم المحتوم؟ ووفق ما قاله أحد المؤرخين : «ستؤول كل العمائر من كل نوع إلى خراب ، وكل شيء إلى زوال ولا جدوى من إصلاح ما خرب أو تشييد ما تهدم ما دام العالم يقترب من نهايته؟ ورويت الحكايات عن الأثرياء الذين كانوا يتنازلون عن عربات مليئة بحمولات من الجواهر على أمل أن تأتى نهاية العالم «وهم فى حالة من الفضيلة والاقتراب من الله !» .

وبينما نتحرك نحو نهاية الألفية الثانية وبداية قرن جديد ، سيكون من الحماقة أن آتى إليكم وأحدثكم عن يوم الازدهار وعن مستقبل مفعم بالأمل وشمس مشرقة وثمار حان قطفها . من الواضح أن القرن الحادى والعشرين سوف يمثل تحديًا ، بالضبط كما كان القرن العشرون ، الذى لقى فيه ١٦٠ مليونا من البشر حتفهم من جراء الحرب ، حيث يعيش ثلاثة

* قدمت هذه الورقة فى المؤتمر السنوى لمنتدى الخليج الاقتصادى - الخامس - البحرين ٨ أبريل ١٩٩٧م .

بلايين من الناس – أكثر من واحد من بين كل اثنين – على دولارين فى اليوم ، وذلك بالرغم من كل التقدم فى ميادين العلم والاتصالات وإنتاج الغذاء ، وهكذا تتضاءل إمكانية تحقيق عالم يعيش فى مأمن من الفقر ويتمتع بالسلام والاستقرار والعدل .

أحيانًا يكون التشكك أمرًا طبيعيًا ، إلا أن الواقعية ضرورية . وأنا أعتقد أننا يمكن أن نبنى عالما جديدا . لو كانت لدينا رؤية واضحة لعالم أفضل ، ولنظام عالمى جديد حقيقة ، لو وجدنا الإرادة ، لو حشدنا قوتنا ، لو ثابرنا ، لو فعلنا ذلك كله فإن القرن الواحد والعشرين يمكن أن يكون أعظم القرون فى تاريخ البشرية .

واليوم ، لدى أمران أريد أن أقوم بإيضاحهما أمامكم . أولاً ، أنتم فى غرب آسيا ، لستم الشرق الأوسط بالنسبة لشرق أوروبا ، أنتم الوسط فى الشرق . ويمكن أن يكون موقعكم وسط العالم إن أردتم ذلك . ومن ناحية أخرى فإن غرب آسيا جزء من آسيا . عليكم أن تنظروا شمالاً . انظروا غربًا . ولا تهملوا الجنوب . ولكن فى جميع الأحوال عليكم ألا تنسوا أن تتجهوا دائمًا نحو الشرق كما فعلتم دائمًا على مر التاريخ ، ولذلك لمصلحتنا نحن فى الشرق منكم ، ولمصلحة الأوروبيين جنوبكم ، ولمصلحتكم أنتم كذلك . أنكم أول شعب غربى يصل إلى شبه جزيرة الملايو والتى هى الآن جزء من ماليزيا . بالنسبة لنا أنتم غربيون وليس مجرد أوروبيين .

ونحن فى ماليزيا وفى الدول الآسيوية ، نحن فى تلك المنطقة التى يصر الغربيون على تسميتها بالشرق الأقصى ، نحن فى حاجة إليكم ، ونريدكم أن تكونوا معنا فى بناء مستقبلنا ، ومستقبلكم أيضًا ، كما نعتقد أن لكم مصلحة حيوية فى أن تكونوا معنا ، وأن تفيدوا من منطقة يوجد بها أكبر نمو اقتصادى ديناميكى فى تاريخ العالم . ثانيًا ، بالرغم من آسيا قد يبدو أنها عازمة على العودة مرة أخرى إلى مكانها فى التاريخ ، وعلى الرغم من أنها قد تشهد عودة هذا التاريخ ، فإن ما ينبغى علينا أن نحاول أن نبنيه ليس هو القرن الآسيوى ، وليس العصر الآسيوى الذى تصعد فيه آسيا وتسود وتسيطر . إن ما نحاول أن نبنيه بدلاً من

ذلك مع كل الجنس البشرى ، هو القرن العالمى ، الذى يحمل وعودًا كثيرة لكل من يستحقونها ، ويحقق الفائدة لكل من صنعوه . لابد من أن نسعى جميعًا لإقامة كومنولث كونى يحدوه منطق التعاون من أجل الرفاهية المشتركة ، ويحترم كل ما خلق الله ويهتم بكل أبناء الجنس البشرى .

وبالرغم من كل الجهود التى يبذلها المتشككون فى أوضاع آسيا والمتمركزون فيما يسمى «بالغرب» ، إلا أننى مقتنع بأن ما يطلق عليه «الشرق الأقصى» سيكون مركز الجنوب الاقتصادى لهذا الكوكب ، وعليكم أن تقرروا بأن تكونوا جزءًا من هذه النهضة الآسيوية الجديدة التى بدأتها دول شرق آسيا .

فى القرن التاسع عشر وعندما كان نمو أوروبا بمعدل ٣٪ على مدى فترة طويلة من الزمن ، كانت تلك الفترة تسمى «الثورة الصناعية» وعلى مدار خمسين عامًا ، فإن الاقتصادات الرئيسية فى شرق آسيا الممتدة من اليابان إلى إندونيسيا التى بها أكبر نسبة سكان من المسلمين فى العالم ، وهذه البلاد تنمو بمعدل مرتين أو ثلاث مرات أسرع ، إنهم يسرعون فى نموهم فى فترات زمنية قياسية لم يشهدها تاريخ الإنسانية من قبل .

ولا عجب فى أن نرى كُتَّاب الغرب يبذلون أقصى جهدهم لفهم ما يحدث فى آسيا ؛ ووصفه بالمعجزة الشرق آسيوية ، فالنتائج كانت بحق مذهلة وأقرب للإعجاز ، إننا لسنا مجرد شعب أو اقتصاد أو بلاد ، بل إننا تنانين ونمور كما يقولون .

صدقوا أو لا تصدقوا ، عندما حصلت الهند وباكستان على استقلالهما كان اليابانيون أفقر بكثير من الهنود والباكستانيين ، أما هونج كونج وسنغافوره فكان اقتصادهما لا أمل يرجى منه ، وكان الإندونسيون يعانون من الفقر ، وفى بلدنا عندما حصلنا على الاستقلال فى عام ١٩٥٧م ، كان متوسط دخل الفرد ٢٢٧ دولارا أمريكيا ، وتمكنت ماليزيا ؛ هذا البلد المسلم من أن تلحق بمتوسط دخل الفرد فى هاييتى ؛ أفقر دولة فى الأمريكتين فقط فى عام

١٩٦٠م .

واليـوم يعـرف الكل مـتـوسـط دخل الفـرد فى اليـابان ، وشـعـوب هونج كـونج وسنغافوره ، أكثر ثراءً من شعب المملكة المتحدة ؛ أسيادهم السابقون أو الذين سيصبحون قريبا أسيادهم السابقين !

كـان متـوسط دخل الفرد فى مـاليزيا فى العـام الماضى ٤,٣٧٤ دولار وهـاييتى الآن مازالت أفقر بلد فى الأمريكتين حقًا ، وبما يعادل القـوة الشرائية لما تستطيع أموالنا شرائه فإن هذا الدخل يُعد مرتفعًا ولو أن بلادنا تقع فى النصف الغربى من الكرة الأرضية لكانت ماليزيا اليوم تعتبر أعلى ثالث دولة فى مستوى المعيشة بالنسبة إلى الأمريكتين ، وتأتى بعد الولايات المتحدة وكندا ، أنا لا أتفاخر بهذا ولكن يجب وضع الأمور فى نصابها الصحيح !

وقبل ١٥ عامًا وهذا وقت قريب ، كانت مـاليزيا تعيش على ما تستطيع إخـراجه من الأرض وما كـانت تزرعه ، كانت أعـمدة الاقـتـصاد الماليزى هى : الـزراعة والتعـدين ، لقد كنا دائمًا أمة تجارية ، نبحث عن الرفاهية من خلال الشراء والبيع للعالم . فى عام ١٩٨٠م ، كان ٢٤٪ فقط من صادراتنـا يتكون من السلع المصنعة أما اليوم فـإن ٨٢٪ من صادراتنا هى السلع المصنعة ، وعلينا اليوم أن نستورد المطاط والقصدير لمصنوعاتنا وبضـائعنا بينما كنا فى الماضى أكبر منتجين ومصدرين لهما فى العالم !

وفى فـترة ١٥ سنة ، وهى فـترة زمنية وجيزة ، تمكنا من أن نصبح رابع أكبر اقـتصـاد صناعى فى العـالم بالنسبـة لحجم السكـان ، وقد بلغت نسـبة النـاتج الصنـاعى إلى إجمـالى النـاتج القـومى معدلاً مرتفعًا ، وبمدلول النسبة المئوية لعدد العاملين فى الصناعة والنسبة المئوية فى السلع المصنعة فى سلة صادراتنا ، فنحن بين أول خمس دول فى العالم !

وبعـد ما تمكنا خلال الـ ١٥ سنة المـاضيـة من الانتقال من الاقـتـصاد الزراعى وأصبحنا دولة صناعـيـة ، علينا الآن أن نحـاول الانتقـال فى المسـتـقـبـل القـريـب إلى المجـتـمـع ما بـعـد

الصناعى .

إن نتائج ما يسمى بالمعجزة الآسيوية لبلادنا والتنانين والنمور الأخرى فى شرق آسيا كانت بحق نتائج ملموسة ومتميزة ، ولكن هذه المعجزة لم تكن مجرد لمسة عصا سحرية أو تعويذة - لا لم تكن ولن تكون كذلك ولم نكن محظوظين حتى نولد وفى فمنا ملعقة من فضة ، مازلنا أقل حظًا وليس فى أيدينا عصا سحرية .

وللتحديد ، فقد أنجزنا ما أنجزناه وفقًا لـــ «مبدأ سيناترا» ، لقد نفذنا كل ذلك على طريقتنا ، ولكن الأكثر من ذلك ، أننا أيضًا نفذناه جميعنا بالأسلوب القديم دون سحر أو غموض ، ولكن بالمشقة والتعب والدموع والعرق ، فالماليزيون (ومعظمهم مسلمون) يعملون بجد واجتهاد .

فى عام ١٩٩٤م ، بلغ متوسط ساعات عمل المواطن الماليزى ٢٨٨ر٢ ساعة بالمقارنة بالإسرائيليين الذين بلغ متوسط عمل الفرد لديهم ٩٤٠ر١ ساعة ، والسويسرى المعروف باجتهاده فى العمل (والذى يقال إنه يتبع قيم المذهب الكالفينى فى العمل) بلغ متوسط ساعات عمله ٨٧٩ر١ والعاملون الألمان المهرة (مثال القيم الأخلاقية البروتستنتية عملوا ٧٠٤ر١ ساعة ، بل إن الماليزيين عملوا بجد واجتهاد أكثر من اليابانيين ، التشيليون والكوريون فقط هم الذين يعملون ساعات أطول .

هناك الآن الكثير من المتشككين فى أحوال آسيا ، خاصة فى العالم المتقدم ، والذين يتوقعون نهاية نمونا السريع ! وفى بداية التسعينيات رأينا كيف تعثرت اليابان .

ورأينا بعد ذلك كم النظريات التى تفسر عدم قدرة دول شرق آسيا على المضى سريعًا على طريق التقدم والنمو وعلل البروفيسور « بول كروجمان » من معهد ماساشوستس للتكنولوچيا بأن نمونا كان نتيجة التدفق الهائل فى رأس المال والعمل دون أى نمو مادى ملموس فيما يطلق عليه خبراء حسابات النمو إنتاجية العامل الكلى ، ووفقًا لفرضيته فنحن

الآن مجبرون على الإبطاء ؛ لأن تلك الاستثمارات البشرية الفائقة فى رأس المال والعمل لن تستطيع أن تثبت وتستمر وسوف ينفد ما لدينا من رأسمال وعمل . ولو خطر ببال الپروفيسور كروجمان ، وكل الذين هللوا لـمَا توصل إليه ، أننا إذا كنا قد استطعنا فى الماضى تحقيق كل ما حققناه دون مساعدة فى أى نمو إنتاجى كان ، لم يخطر ببالهم أن يتخيلوا ما يمكن تحقيقه فى المستقبل حال إضافة المساعدة الإنتاجية إلى ما لدينا من طاقات ، هذا إذا لم توضع عقبات عن عمد لمنع دول شرق آسيا من التحسين فى الإنتاجية ، الواقع أن نظرية كروجمان صحيحة ، أما الحقائق فهى خطأ ؛ لأن سلسلة طويلة من الخبراء - الذين ليسوا على شاكلته - توصلوا لحل مسائلهم - ونشروا حساباتهم التى برهنت فى الحقيقة على أن قدرة شرق آسيا السابقة لتعبئة استثمارات العمل ورأس المال هى التى أدت إلى نمو إنتاجيتهم .

وقال آخرون إن شرق آسيا لا تستطيع الاستمرار بسبب قيود الطاقة وبسبب القصور البيئى وبسبب ضغوط الغذاء وبسبب جفاف الأسواق فى الغرب وبسبب انتهاء عصر التقدم التكنولوچى ؛ السريع لكى تلحق تكنولوچيا شرق آسيا بتكنولوچيا الغرب ، ولأننا فى آسيا سوف نتناحر فيما بيننا ولأن الصين ستشكل تهديدًا ولأن هناك حربًا ستدور عبر المضايق وبسبب زيادة الفجوات فى الدخل ، وبسبب التباينات الريفية والحضرية وبسبب المدن المكتظة بالسكان وبسبب المياة الملوثة ، ولأننا لن نقيم بنية تحتية كافية ، أو لأننا سنبنى أكثر مما ينبغى بالإضافة إلى ضغط الكثافة السكانية ، والتقلص المالى والإجهاد والانتحار ، وحتى الاختناقات المرورية . اختاروا ماشئتم ولكن يكفى ، سبب واحد ، أو كل تلك الأسباب لكى تقع على رءوسنا وتدوس علينا وتسوينا بالأرض .

والمتشككون فى أحوال آسيا ومعهم الفطناء المبرزون لا يتفقون على الأسباب التى ستجعلنا نتعثر ونسقط . ولكنهم متحدون فقط فى التأكد من أننا سنتعثر ونسقط ! ومع أننا تحدينا كل المتشائمين ومتوقعى الكوارث التى ستحل بنا وبمصيرنا المحتوم خلال النصف

الأخير من القرن ، وبالرغم من أن مشاكل نجاحنا اليوم هى أفضل من مشاكل الفشل فى الماضى ! إنها مشاكل النجاح وليس الفشل ، وبالرغم من أن أخطار المستقبل تعتبر بسيطة مقارنة بالمخاطر التى واجهناها مؤخرًا ، وبشكل درامى فى معظم الأحيان ، وتغلبنا عليها .

لن أتوقف طويلا عند ما يعتقدون أنه سيحدث لغرب آسيا وللعرب فى المستقبل ، فمن الواضح أنهم على قناعة تامة من أنكم تواجهون مشاكل رهيبة ويعتقدون أنكم لن تنجوا من تلك المشاكل ، فالمسألة ليست أننا نشعر ، بل نحن متأكدون تمامًا من تحقيق الرفاهية لشرق آسيا فى المستقبل ! صحيح أن الكوارث يمكن أن تقع رغم ما يخططه الإنسان ومهما يفعل ، المشكلة فى توقعات مفكرى الغرب العظام ؛ تلك التوقعات التى تبدو كأنها أمانى يفكرون فيها لتحل بنا ، شىء من قبيل النبوءة التى يتمنى المرء أن تتحقق ، مخاوفنا تتركز فى أنه لو لم يحدث ما تنبأوا به ، فقد يحاول هؤلاء الأنبياء التأكد من أن تنبؤاتهم ستتحقق !

الغطرسة لا يمكن تبريرها ؛ وهى دائمًا خطرة ! التواضع ضرورى ؛ إنه رفيق مفيد فى رحلة حياتنا ، ولكن بعد أن تسلقنا ما يعادل قمة إيفرست فالعذر كل العذر للآسيويين فى شرق آسيا إذا ما نظروا إلى بقية الجبال على أنها تلال من الكثبان الرملية ، كل شىء يمكن تحقيقه إن شاء الله ، لو أننا تمسكنا بشدة بأسرار الماضى وتواءمنا بسرعة مع متطلبات المستقبل .

وبالطبع ، ومثل أى إنسان آخر ، فمن المحتمل أن نطلق الرصاص على أقدامنا أو على أى جزء حيوى فى أجسامنا . ستكون هناك التواءات ومنعطفات وربما انتكاسات ، والكثير من السقطات فإننا لا نعيش حياة سحرية ، لن يمثل المستقبل صعوبة سوى لذوى الطموح المحدود ، وعندما نتوقف عن القلق بشأن المستقبل ستكون تلك بداية القلق !

ولكنى آسف بأن أخبر كل المرتابين ، والمتشككين بشأن مستقبل آسيا والذين أعربوا عن اهتمامهم وقلقهم حول تحسن أوضاعنا أقول لهم : إن مخاوفهم وقلقهم أقل بكثير من

مخاوفنا وأقل بكثير من قلقنا على مستقبلنا ، وأقول لهم : إن فرصتنا المتاحة جيدة تمامًا ، وإننا سنستمر فى المحافظة عليها .

إن آسيا قد انطلقت ، ويجب ألاَّ ننسى أن كل الثقافات والديانات العظيمة فى العالم نشأت فى آسيا . صحيح أن الآسيويين غزوا أوروبا قبل أن تعرف أوروبا أن هناك عالمًا وراءهم ليقوموا بغزوه واستعماره ، والذى قدرت عليه آسيا ذات مرة تستطيع أن تقوم به مرة أخرى وليس بغرض الغزو أو الاحتلال ، بل لتقيم قوة اقتصادية من شأنها أن تحدث توازنًا بين أوروبا وأمريكا ، ولا يجب أن تجاهد آسيا للسيطرة على العالم ولكنها يجب أن تجاهد لإحداث توازن مع هيمنة الغرب ؛ حتى نتمكن جميعًا من خلق عالم عادل ومنصف ومن خلق كومنولث عالمية ديمقراطية ، حيث الثروة تكون حقًا عامًا ، وفى متناول الجميع ولا يمتلكها قلة من المتميزين فقط .

مازالت هناك ، فائدة كبيرة للعالم القديم الناضج ، لأوروبا وأمريكا الشمالية ، ومن الخطأ النظر فى هذا الاتجاه فقط للبحث عن كيفية الحصول على الثروة والخبرة من هناك . انظروا شرقًا ؛ لقد نظرت ماليزيا شرقًا دون أن تتوقف عن النظر غربًا ، ولقد استفدنا بشكل مكثف ، ولن يخسر شعب غرب آسيا شيئًا بالنظر شرقًا ! يمكنكم حقًا أن تكسبوا وتكسبوا الكثير .

هذا العام سيكون هناك سبعة من أسرع النظم الاقتصادية نموًا فى العالم فى شرق آسيا ولايجب أن نفاجأ بذلك ، بل كان من الواجب أن يقال هذا سنويًا خلال سنوات الجيل السابق ، ومع دخولنا القرن الحادى والعشرين ستكون آسيا قد أصبحت تقريبًا أكبر اقتصاد إقليمى فى العالم ، أكبر من أوروبا الغربية وأكبر من أمريكا الشمالية ، وسيزيد عدد الآسيويين الذين يتمتعون بمستوى معيشى أوروبى عن عدد الأوروبيين الذين يعيشون بنفس المستوى ، وسيكون هناك المزيد من الآسيويين الذين يعيشون بمستوى المعيشة الأمريكية أكثر مما يعيشه الأمريكيون وعلى نحو لا يمكن إنكاره ، كما سيكون هناك استمرار فى زيادة عدد

الفقراء ؛ ولكن آسيا يوجد بها ثلاثة بلايين نسمة مقارنة بـ ٣٥٠ مليون نسمة فى أوروبا و ٣٠٠ مليون نسمة فى أمريكا الشمالية ، حتى لو أن نسبة الأغنياء صغيرة ، فأنها ستكون أكبر من أعداد الأثرياء فى أوروبا وأمريكا .

إن نهضة آسيا قد بدأت بكل جد ولكن مصلحة آسيا لا تكمن فى عصر آسيا ، أو ما يسمى بالقرن الآسيوى ، لا يجب أن تسعى آسيا إلى الغطرسة والصلف ولا الهيمنة أو السيطرة ، إن نضالنا فى القرن الحادى والعشرين يجب أن يكون من أجل بناء عالم واحد ؛ عالم الكومنولث الكونى الواحد ، حيث يعم السلام ، ويشترك فيه الجميع ، وتعم الرفاهية عامة ويشترك فيها الجميع ، حيث لا نجد الراحة والسكينة فى الأشياء التى تقسمنا وتفرقنا ، بل فى إنسانية واحدة تعم الجميع ويشارك فيها الجميع .

هناك البعض الذين يسعون وراء صدام الحضارات ، وهناك من يستحضر شبح التحالف الكونفوشيوسى الإسلامى ، ويقول البعض إن ما يجب أن نسعى إليه ونبحث عنه هو التعايش السلمى بين الحضارات ؛ فلماذا لا نؤكد على الاحتفاء بكل الحضارات؟ ! إن الحضارة ليست هى التسامح مع بعضنا بعضا ، أو هى مناقشة الاختلافات فيما بيننا فقط ، بل هى الاعتزاز والتمسك بهذه الاختلافات ، هى الاحتفال بأفضل ما يميز وتعتز به وتقدمه كل حضارة وثقافة .

وسيقول الكثيرون إن كومنولث ديمقراطى واحد ، هو يوتوبيا ، وبعد كل ما عرفناه فهناك على الأقل كومنولث ديمقراطى واحد ، حيث الثروة أبعد ما تكون عن كونها عامة ومشتركة ، ولكن آسيا تستطيع تحقيق تغير فى التفكير من خلال لعب دور مسئول ، وبالتدريج يتم كومنولث كونى ، يحقق مزيداً من العدالة فى اقتسام الثروة .

وفى كتاب « ثروة الأمم » الذى ألّفه آدم سميث عام استقلال الولايات المتحدة الأمريكية ، يؤكد الكاتب على قوة واحدة فريدة ، وهى «اليد الخفية» - والذى عرفها على

أنها المصلحة الذاتية للفرد المنتج والتى تعمل سحرها فى إنتاج الخير العام والرفاهية داخل البلاد ، ولكن هل يمكن أن نضيف إلى ذلك «الكتف الخفية»؟ والفكرة من ورائها هى أنه يمكن تحقيق رفاهيتنا بتطبيق مبدأ « الكتف الخفية» لصنع رفاهية للآخرين وهذه ليست عملية إيثار للغير ، بل إنها مصلحة ذاتية مستنيرة .

وعلى مدى عدة قرون رأينا الأمم القوية تثرى نفسها بإفقار غيرها ، وهاهم يتحدثون عن لعبة حاصل الجمع صفر ، والتى يتحقق فيها مكسب أمة على حساب وخسارة الأمم الأخرى ، وكانت ومازالت عبارة : «افقر جارك» ، فى أيام الاستعمار ، قائمة إلى أيامنا هذه ، لقد استخلصوا موارد المستعمرات ليعودوا بها إلى عواصمهم وبعد ما أصبح الاستعمار بغيضًا وغير محترم غيروا شروط التجارة ، حيث اضطرت الأمم المستقلة حديثًا ، والتى كانت مستعمرات فى السابق ، إلى بيع أكثر منتجاتها الأولية ؛ حتى تتمكن من شراء الأقل والأقل من السلع المصنعة من الأمم المتقدمة ! والآن يطلب من الدول الفقيرة ألاّ تستغل مواردها ؛ لأنها تعرض مناخ العالم وجودة البيئة وصلاحيتها للخطر ، يطلب منها ذلك من أجل صالح الأثرياء ، ولا يجب أن تدفع أجورًا منخفضة ؛ لأن ذلك من شأنه أن يفقد العمال فى الدول المتقدمة وظائفهم ؛ أى أن الدول النامية لا يجب أبدا أن تستغل مزاياها التنافسية ! !

ولكن اتضح فى الشرق أنه عندما تستثمر الدول الغنية أموالها فى الدول الفقيرة فإن ذلك يؤدى إلى خلق وظائف وثروة من خلال الصادرات ، ولا تستفيد الدول المستثمرة فقط من مشاريعها التجارية ، بل إنها تخلق أسواقًا فى الدول التى كانت فى السابق فقيرة فى سلعها وخدماتها ، ونتيجة لذلك فالدول الغنية المستثمرة والدول المستقبلة لتلك الاستثمارات سيتحقق لها الازدهار والرفاهية ، وبمعنى آخر فإنكم بتطبيق مبدأ «الكتف الخفية» من أجل تحقيق الرفاهية للآخرين يمكنكم أن تحققوا الرفاهية لأنفسكم . إنها حالة «اعمل على ازدهار جارك وليس إفقاره» ، وبدلاً من حاصل الجمع صفر نحصل على أرقام موجبة .

وعلى المستوى الفردى يجب أن نكون جميعًا منتجين مستخدمين اليد الخفية لآدم سميث ، حتى بينما تعمل اليد الخفية للإنتاج من أجل المصلحة العامة ، ومن أجل الرفاهية داخل المجتمع ، لماذا لا نطبق مبدأ الكتف الخفية للأمم الغنية للحصول على الرفاهية لصالح كل الأمم؟ وبهذه الطريقة يمكننا تحقيق كومنولث ديمقراطى كونى مثالى - ربما - فالذى حدث لعصبة الأمم وللأمم المتحدة غير مشجع ، ولكن هل ينبغى علينا أن ندع الأمل والمثاليات ، إذا هى فشلت؟ ، ولكن فلسفة «اعمل على ازدهار جارك» لا تتضمن أى تضحية من أى أحد ؛ فكل فرد سوف يكسب من عالم الرفاهية ؛ إنها صيغة أو فلسفة : اربح - اربح !

إن دول شرق آسيا مزدهرة بشكل متساو تقريبًا ، إما بالمصادفة أو عن تصميم وذلك لأنها اعتمدت فلسفة : «اعمل على ازدهار جارك» ، ولكن لماذا لا يقتسم شرق آسيا فلسفة الإثراء هذه وممارستها مع بقية العالم ، وخاصةً مع غرب آسيا؟ بالتأكيد ستكون منطقة شرق آسيا بالمشاركة أكثر ثراءً حتى عندما تصبح غرب آسيا أكثر ثراءً مما هى عليه الآن - عندئذ فقط سيكتمل عصر النهضة الآسيوية .

ربما تكون أوروبا قد دخلت نهاية الألفية الأولى وهى فى حالة خوف ورهبة معتقدة بأن يوم القيامة يقترب ، لا أحد يعرف حقًا متى تقوم القيامة؟ الله عنده علم الساعة . ولعلها أقرب مما نظن ! ولكن بالنسبة للمسلمين بالتحديد فنحن مطالبون بالسعى المتوازن بين الدنيا والآخرة . فبينما نعد أنفسنا للآخرة ، ليس هناك سبب يمنعنا حقًا من أن نسعى من أجل حياة أفضل فى هذه الدنيا ، وإذا مددنا يد العون لصنع الثروة للجميع فإن هذا سيحقق حياة أفضل لنا وللآخرين ، إنها هبات وصدقات لا تكلفنا شيئًا ! سوف نصنع عالما أفضل فى القرن الحادى والعشرين إن شاء الله ، وكل ذلك من خلال التزامنا بتعاليم ونصائح ديننا .

٨- مُستَقبَلُ آسيَا ودَورُ اليَابَانِ *

دعونا نلق نظرة عن كثب لبعض التغيرات الرئيسية التى تكتسح آسيا والعالم فى الوقت الراهن ، ففى عالم ينكمش بشكل متزايد ، وعالم بلا حدود لا يمكن أن ننظر إلى آسيا بمعزل عن كل ما يجرى .

أنا أسلّم أنه من المهم لنا أن نتفق بخصوص آسيا الناهضة ، وربما بالنسبة لليابان بشكل أكبر ولأسباب لا أجد نفسى مضطرًا لتناولها بالتفصيل هنا . ولا يجب أن نحاول فهم أبعاد وديناميكية التغيرات التى تجرى حولنا فقط ، بل يجب فهم الأسباب الضمنية ومغزاها ، وأهميتها كذلك .

ننظر لليابان بشكل عام على أنها قصة نجاح ، والقلة القليلة من الناس هى التى تختلف مع هذا الرأى رغم أن للبعض وجهة نظر عن مكونات وعوامل النجاح الفعلى . وبشكل أساسى فإننا نتحدث عن بزوغ شمس اليابان بوصفها قوة اقتصادية فائقة ، فى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، والتى كانت مبعث الإعجاب ، وألهمت العديد من دول آسيا على انطلاق الثورة الاقتصادية فيها ، والتى غيرت تمامًا شخصية الإقليم ، واحتلت هذه الدول مكان الصدارة فى المعادلة الاقتصادية العالمية .

وبعد أن خرجت اليابان من حرب الباسيفيك مدمرة اقتصاديًا ، أصبحت اليوم واحدة من أقوى الدول الاقتصادية القليلة فى العالم ، بل من الدول الدائنة فى وقت قليل وخلال السنوات الأولى من نهضتها . وكما علمت فإنه لا توجد بطالة تقريبًا فى هذا البلد ، وقد تكون هناك دول مزدهرة ، ومتطورة ، ولكنها لم تتمكن من تحقيق عمالة كاملة .

---

* أُلقيت هذه الكلمة فى مؤتمر عن : «مستقبل آسيا ودور اليابان : تحديات القرن الحادى والعشرين أمام الشباب» فى جامعة واسيدا – طوكيو : اليابان ، فى ٢٧ مارس ١٩٩٧م .

وبالرغم من بعض الملمات الاقتصادية المتفرقة إلا أن متوسط دخل الفرد فى اليابان من أعلى نسب الدخل فى العالم ، وربما يكون الأكثر أهمية من ذلك ؛ هو أن اليابان واحدة من أكثر الدول هدوءًا وسلامًا ويحب المرء أن يعيش فيها .

ويرجع بعض الناس سر تفوق اليابان الفذ إلى ثقافتهم الفريدة ، والجدل الأساسى هو أن اليابانيين ببساطة كانوا ناجحين ؛ لأنهم يابانيون وبسبب تفرد ثقافتهم ، ولذلك فإن هناك أشياء كثيرة عنهم لا يمكن تعلمها أو أن ينافسهم فيها أحد .

اسمحوا لى أن أختلف ، ربما تكون الثقافة اليابانية قد لعبت دورًا مهمًا ولكن لا يوجد شىءٌ لا يمكن تعلمه بما فى ذلك عناصر ثقافة بلد ما ، لقد تأثرت ماليزيا دائمًا بالإنجازات اليابانية وقبل عقد من الزمن انطلقنا بجدٍ فى تعلم عوامل معينة من ثقافتكم ، من هنا كانت سياسة : «التوجه شرقًا» . والآن وبعد ١٣ عامًا أثبتت هذه السياسة جدواها بالنسبة لماليزيا وأفادتها كما أفادت اليابان أيضًا .

من المتعذر تبرير مقولة : إن بعض المهارات والمعارف قاصرة على أمة بعينها ، أنا لست ضد ما هو أوروبى ، ولكن خرافة الخصوصية والحصر لمهارات معينة كانت من اختراع الأوروبيين فى العصر الذهبى للإمبريالية الغربية ، ونحن الشعوب المستعمرة كنا نعتقد فى وقت ما أننا لا يمكن ، بأى طريقة من الطرق ، أن نكتسب هذه المهارات ! ولكن اليابان واليابانيين أثبتوا زيف هذا الادعاء ، فيمكن لأى فرد أن يكتسب أى مهارة وأى معرفة ، شريطة أن يكون مستعدًا لأن يناضل بعناد من أجل تحقيق أهدافه ، وأثبتت سياستنا ، سياسة «التوجه شرقًا» أن القيم الأخلاقية اليابانية وثقافة العمل يمكن تعلمها دون أن ينقص ذلك شىء منا نحن الماليزيين .

ستنمو آسيا وتتطور - بعد ما تخلصت من الخرافة سالفة الذكر - فى السنوات القادمة ، فى القرن القادم ! ومن ثمَّ سينمو شرق آسيا ؛ أى شمال شرق وجنوب شرق آسيا ،

بسرعة ، ومن المحتمل أن تظل اليابان ، فى المقدمة أما من يدعون بالنمور والتنانين فلن يكونوا بعيدين جدًا عنها . إذا لم تقع حرب نووية ، فلن يوقف شىء شرق آسيا من الانطلاق كقوة اقتصادية عظيمة ، وبنفس قوة الاتحاد الأوروبى واتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية النافتا فى القرن الحادى والعشرين ، ولكن ماذا يدل على أن مستقبل آسيا والعالم يعتمد على فهمنا وإدراكنا للبدائل المختلفة المقدمة إلينا ، والدور الذى نختار أن نلعبه؟

ونظرًا لحجمها فقط ، لابد من أن تصبح الصين القوة الاقتصادية الرئيسية فى الإقليم ؛ وهذا يخيفنا ، ولكن تضافر ثروة ومساحة دول شمال شرق آسيا الأخرى معًا ، ودول جنوب شرق آسيا يمكن أن يحدث توازنًا بسهولة مع الصين ، وبالطبع لن تكون الصين فى نفس قوة بقية شرق آسيا من الناحية الاقتصادية ، ولن يكون من الضرورى اتخاذ أى موقف عدائى تجاه الصين من قبل بقية دول شرق آسيا ، بل ستكون ظهيرًا إنتاجيًا بالتأكيد . والبديل ؛ هو التعاون بين جميع دول شرق آسيا بما فيها الصين ، ليس فى المجال العسكرى ولا حتى فى المجال الاقتصادى ، وإنما فى دعم السلام والعدالة فى جميع أرجاء العالم ، وفى مساندة الدول الضعيفة ، كل ذلك من شأنه أن يخلق نوعًا من التفاهم الذى يقلل من إمكانية نشوب صراعات ومواجهات فى شرق آسيا ، واتساع هذا التفاهم سيسهم فى المشاركة فى بناء عالم أكثر سلامًا وعدلاً .

ربما يعتقد البعض أن آسيا المتعاونة القوية ستريد أن تسيطر على العالم ؛ فالبعض بالفعل يتحدث عن أن القرن الحادى والعشرين هو القرن الآسيوى ، ولكن آسيا لا يمكن أن تسيطر على العالم كما سيطر الأوروبيون على كلا جانبى الأطلنطى لمدة أربعة قرون ، إن مفهوم السيطرة والهيمنة بالمعنى القديم ، مفهوم سخيف قد عفا عليه الزمن ، ومن المؤسف أن الأوروبيين مازالوا متعلقين ومتشبثين بهذه الفكرة ، ويدّعون أن آسيا يمكن أن تشكل تهديدًا بالسيطرة ، وبعدما فقدوا مستعمراتهم الكونية ، يريد الأوروبيون الآن أن يستمروا فى ممارسة سيطرتهم من خلال فرض شروط التجارة ونظم الحكم وكل نظام القيم العالمى ، بما

فى ذلك حقوق الإنسان وحماية البيئة ، ومازالوا على حالهم ؛ لأنه يبدو أنه لا يوجد أحد أمامهم ؛ الآسيويون ، هم الوحيدون القادرون على إحداث توازن مع النفوذ الأوروبى ، لكنهم منقسمون وغير راغبين فى لعب دور ذى معنى فى الشئون العالمية .

ولكن لو أن الآسيويين (خاصة فى شرق آسيا) يتوفر لهم إحساس أفضل بالمسئولية فسوف يتولون القيام بالمهمة ،آسيا لا يمكن أن تسيطر على العالم ،ولن يكون هناك قرن آسيوى لكن آسيا الأكثر تماسكًا يمكن أن توفر التوازن الذى من شأنه أن يستهم فى صنع عالم أكثر عدلاً ، والآسيويون مثل الأوروبيين مذنبون فى تورطهم فى حروب قاسية فى الماضى ، مات الملايين من جراء حروب الآسيويين الطامحة للغزو ؛ فقد اجتاح السلاجقة والعثمانيون والأتراك والمغول آسيا الوسطى ، ثم أوروبا يقتلون الملايين ، ويدمرون المدن والعواصم ، ووصلت الجيوش العربية إلى ما وراء جبال البرانس فى فرنسا ، وفى العصر الحديث انطلقت اليابان فى مغامرة مماثلة مفتتونة بالمفهوم الأوروبى عن الإمبريالية . . ولا شك فى أنهم كانوا سيواصلون احتلال وحكم المناطق التى اجتاحوها ، إلا أن هناك فرقًا ضئيلاً بين الغزاة الآسيويين ونظرائهم الأوربيين .

استعمر الأوروبيون الشعوب المقهورة وسيطروا عليها ، وظلوا مبتعدين ومتعالين عن رعاياهم حتى بعدما اعتنقوا دين المستعمر وثقافته ! ومن ناحية أخرى مال الغزاة الآسيويون إلى التشرب والاندماج مع الشعوب التى استعمروها وأصبحوا رعاياهم ، وهكذا اعتنق الأتراك الإسلام ؛ ديانة العرب الذين غزاهم الأتراك وحكموهم ، وأصبح المغول مسلمين فى البلاد الإسلامية ، وبوذيين فى الصين ، فلا يوجد خط واضح ودائم بين الغازى والمقهور ، فلم تفرض الشعوب الغازية عقيدتها ولا ديانتها ولا حتى قيمها على رعاياها ! حقًا إنهم يتسببون فى الارتباط برعاياهم ، ثم يسعون فى نهاية الأمر لتحرير أنفسهم ومعهم السكان المحليون من حكمٍ شبيه بحكمهم السابق ! ! فلم توجد مستعمرات للغزاة الأتراك ولا العرب ولا المغول ! !

ما مدى علاقة هذا بمشكلة توازن نفوذ الغرب فى القرن الحادى والعشرين؟ ربما ليس كثيراً ، ولكن الحقيقة أن الآسيويين لعبوا دوراً متميزاً فى وقت ما ، فى تشكيل ثقافات وديانات وسياسات العالم ، وإذا كانوا قد استطاعوا أن يقوموا بهذا الدور فى السابق ، فلابد وأنهم قادرون على أن يؤدوا الدور نفسه مرة أخرى ، ليس من خلال الحروب بالطبع ، ولكن من خلال إحداث توازن مع ضغوط الغرب ، ولكن هل سيفلحون فى ذلك؟

ومرة أخرى أحب أن أقول إن ذلك فى استطاعة الآسيويين لو أن لديهم الشجاعة فى حركتهم ، ولديهم الإرادة لمحاولة ذلك ! والمشكلة حاليًا هى أن الآسيويين سلبيون ومتشرذمون وفى حالة دفاع ، ولو استمروا على ما هم فيه الآن فإن دورهم فى القرن القادم لن يختلف كثيراً عن دورهم الحالى ، وفى هذه الحالة يستحقون أن يسيطر عليهم الأوروبيون فى هذا العالم الظالم والجائر ! !

وأحب أن أؤكد مرة أخرى على أن لعب دور متوازن لا يعنى محاولة فرض الهيمنة ، ولا أقترح أن يكون الآسيويون فى مواجهة مع الأوروبيين ، فى محاولة لجعلهم أقل عناداً فى استخدام وسائل الضغط لفرض إرادتهم وفرض مفهومهم فى أمور ذات طبيعة كونية ! إن الحكمة ليست حكراً على أحد ؛ لا الآسيويين ولا الأوروبيين ولكن الأوروبيين . كانوا مخطئين مرات عديدة فى الماضى القريب ، ويمكن أن يخطئوا مرة أخرى فى تبشيرهم اليوم ، دعونا نفحص سجلاتهم وتاريخهم .

مع فجر القرن العشرين كان الأوروبيون فى أوج سطوتهم وهيمنتهم على العالم ، فكل القوى الأوروبية بما فيها روسيا الأوروبية كانوا يتباهون بإمبراطورياتهم التى أحكمت قبضتها على العالم ، فلم يروا عيبًا فى استعمارهم غير الأوروبيين وتحويلهم إلى رعايا لهم ليصبحوا تحت حكمهم ، حقًا لقد اخترعوا خرافة مسئولية وعبء الرجل الأبيض تجاه العالم ؛ حتى يبرروا قمعهم الاستعمارى ! !

ولكن كـان عليـهم فى نهـاية الأمـر أن يعتـرفـوا بأنهم كـانوا مـخطئين ، وأن لـلسكان الوطنيين حضـاراتهم الخـاصـة بهم ، وأن لهـم الحق فى أن يتـحـرروا من الأعـراف والمعاييـر الأوروبية ، ومن السيادة المفرطة فى السطوة .

وبعـدما اعترفوا بشكل ضـمنى أنهم كـانوا مخطئين بالنسبة لمفهوم مسئولية الرجل الأبيض ، اخترعوا بعـد ذلك الحرب الباردة التى أعقبت انتصارهـم فى الحرب العـالمية الثانية ، وحاولوا إقناع العـالم بأن الحرب العـالمية الثانية كـانت نهـاية كل الحروب ، ولكن وكـمـا هو واضح ، لـم ينتج عنهـا سـوى حـرب بـاردة مطولـة بسـبب الخـلافـات الأيديولـوچيـة . والأيديولوچيات المعنية هذه كـان مصـدرها وأصلهـا أوروبى ، ولدى كل من الطرفين ، وظل الأوروبيـون الغربيـون والأوروبيـون الشرقيـون يروجـون ويبشـرون بأيديولوچياتهم على أنهـا الأيديولوچية الوحيدة الصحيحة التى يجب على العالم كله أن يعتنقها !

وفى النهاية وبعد توتر شديد ، واستعدادات باهظة التكاليف للحرب وحروب أخرى بالوكالة والمواجهات المتنوعة والمصنفة ، اعترف الجميع بأن الأيديولوچية الاشتراكية لأوروبا الغربية والأيديولـوچية الشـيـوعيـة لأوروبا الشـرقيـة كانت خـطأ ، كمـا ادعوا بـأن الديمقراطية الليبراليـة ورأسمالية السوق الحـرة للغرب قد انتصرت وحكم لهـا بأنها أصح الأنظمة ! وعلى العالم أجمع أن يقبل بها .

كـمـا أثبتت أنظمتـهم الأخلاقية أيضـًا خطأها مرارًا وتكرارًا ؛ فقـد أنكروا حق المرأة فى التصويت فى البداية ، ولكن سرعان ما اعترفوا بعـد ذلك به ، وبحقـوق أخرى لم تكن المرأة تحلم بها ! ! وقـالوا إن العمـال ونقاباتهم لا يمكن أن تخطئ ، ولكنهـم اليوم عكسوا ليبراليتهم إلى حد مـا محددين بعض حقوق عمـالهم ، ومرة أخرى اعترفوا بشكل ضـمنى بأنهم كانوا مخطئين !

ولكن بالرغم من أنـهم كانـوا مخطئين فى العـديد من أفكارهم إلا أنهم مقـتنعـون تمام

الاقتناع بأن ديمقراطيتهم الليبرالية هى الأصوب تمامًا ! ! ولذلك فلن يتسامحوا مع أى نظام آخر ! وعلى كل الدول أن تمارس الديمقراطية الليبرالية الآن ! وإن لم يفعلوا فسوف تفرض عليهم العقوبات الاقتصادية وربما التهديدات العسكرية ، ومثل هذه الطرق والأساليب غير الديمقراطية لا تسبب أدنى قلق للأوروبيين ، وهكذا فإنهم عندما يروجون لقضيتهم يصبح كل شيء مبررا !

واليوم ، نؤمن جميعًا بأنه ليس هناك نظام حكم أفضل من الديمقراطية ، ولكن الديمقراطية تفسر بشكل مختلف باختلاف الناس ، حقًا كان يحلو للحكام الشيوعيين السلطويين أن يصفوا بلادهم بأنها جمهوريات ديمقراطية ! والأوروبيون الشرقيون لم يكونوا على اتفاق مع أنفسهم ، مثلهم مثل الأوروبيين الغربيين ، فهاهم قد نبذوا جمهورياتهم الديمقراطية واعتبروها غير ديمقراطية على الإطلاق ، بما يعنى ، أنهم كانوا على خطأ فى نوع الديمقراطية التى كانوا يعتنقوها ، أوَليس ممكنًا أنه طالما أن الأوروبيين سواء الغربيين أو الشرقيين كانوا مخطئين لمرات عديدة ، أن تكون ديمقراطيتهم الليبرالية هذه مخطئة أيضًا فى النهاية؟ أوَليس ممكنًا أن يثبت الآسيوى أن تفسيره للديمقراطية هو الأصوب؟

وفى مجال التجارة الدولية يقال لنا إن النظام الصحيح الوحيد هو التجارة الحرة دون قيود بين كل الدول مهما كان مستوى نموها الاقتصادى ، إن أرض الملعب يجب أن تكون مستوية لجميع المشاركين حتى لو لم يكن جميع اللاعبين متناسبين ومتساوين فى قدراتهم ، فهذا هو العدل ، وهو الصواب ! ! وفى منظمة التجارة العالمية يضغطون بالفعل لفتح جميع الأسواق أمام شركاتهم الضخمة القوية ، وليس هناك عذر أمام الشركات المحلية ؛ لأنها مازالت صغيرة وضعيفة ، وأنها ؛ أى الشركات الأوروبية القوية ، ستفتح أسواقها أمام الشركات الضئيلة من البلاد الفقيرة لكى تظهر كم هى عادلة مع هذه الشركات ! !

ولابد من أن يقبل الجميع بالديمقراطية الليبرالية والسوق الحرة المطلقة ، فقط لأن الأوروبيين يقولون إنها عادلة ونزيهة ! فإذا كانوا قد أخطأوا كثيرًا فى الماضى ، أفلا يمكن أن

يكونوا أيضًا مخطئين فيما يتعلق بتفسيرهم للتجارة الحرة؟ ألا يمكن أن يكون الآخرون بما فى ذلك الدول الآسيوية التجارية الصغيرة على صواب فى اعتراضاتهم؟

لم تتمكن اقتصادات آسيا النامية من أن يكون لها رأى مؤثر فى الشئون السياسية والاقتصادية لبلادها وليس فى شئون العالم نحن نساير وجهات النظر الأوروبية السائدة والمهيمنة ، بغض النظر عن خطأها فى الماضى واحتمال أن تكون كذلك مرة أخرى الآن . ولو اتضح فى نهاية الأمر أن كل أنظمتهم السياسية والاقتصادية على خطأ ، فمن المؤكد والثابت أننا جميعًا سندفع الثمن ، ويحتمل أن يكون ثمنًا فادحًا ، وقد بدأ المفكرون الغربيون فى التنبؤ بوقوع صدام بين الحضارات ، فالضغوط التى تمارس على الصين وعلى دول جنوب شرق آسيا تسبب مرارة ؛ لأنها تعيق نمو وتطور هذه البلاد . إن الانتقادات من غير داع لسجلات حقوق الإنسان ، وتلوث البيئة ، أو تدميرها وربط كل هذه الأمور بالتجارة أمر يثير الاستياء ، وسترتفع حدة التوترات وستزداد التهديدات كما ستلقى الأحداث المؤسفة بظلالها على العلاقات بين الشرق والغرب ، وربما نسمع ذات يوم أن شخصًا ما أقدم على ارتكاب عمل أحمق ، ثم نجد الأمور تطورت إلى مواجهات سياسية ، وربما عسكرية !

ربما يكون فى ذلك تشاؤم كبير ؛ إلا أن كل هذه الأشياء يمكن أن تحدث ؛ لأن الوحيدين القادرين على إيقاف مثل هذه الممارسات يقفون بلا حراك ، ولا يفعلون شيئًا ! وأولئك هم الآسيويون ؛ هى الدول الآسيوية ، خصوصًا دول شرق آسيا .

وحتى الآن فقد رفضت آسيا أن تفعل أى شىء مخطط ومنظم ، وهم يثيرون قلق الأوروبيين على جانب الأطلنطى ، الأمر الذى لا يحبونه ، ولا يجب مضايقة الأوروبيين بأى ثمن ، حتى لو كان الأوروبيون على خطأ ، فلا يجب أن نغضبهم بقولنا إنهم يمكن أن يكونوا كذلك !

وأقر بأن هذا أسلوب خاطئ إذا ما كنا نريد أن يكون القرن الحادى والعشرين قرن

سلام وازدهار ، لابد من أن تتكلم آسيا بصوت مسموع إذا كانت دول آسيا تريد أن تنعم بالسلام والرخاء فى القرن القادم ، يجب أن تكون آسيا على استعداد لمواجهة الأوروبيين بالحوار الآن . هذا إذا كانت تريد تجنب مواجهتهم فى حلبات صراع أخرى .

كانت هناك كتلتان خلال الحرب الباردة ، وكانت كل كتلة حريصة على مصالح واحتياجات الدول الصغيرة لاكتساب دعمها ، حتى لو كان مجرد دعم معنوى ، وقد نجم عن انتهاء الحرب الباردة هيمنة المنتصر التامة على العالم بأكمله . وقد أظهرت القوة الوحيدة المهيمنة ميلاً لأن تكون يدها ثقيلة للغاية مع الدول الأخرى ، خاصة تلك الدول التى لم تكن ضمن الكتلة الأوروبية .

والطريقة الوحيدة للتخفيف من ثقل هذه اليد هو خلق قوة مضادة لإيجاد توازن بينهما ، وتستطيع آسيا أن تكون هذه القوة التى توجد التوازن المقابل ، إننا لا نتحدث عن توازن الإرهاب ، أو توازن بمفهوم القوة العسكرية ، فذلك يعتبر مضيعة للوقت وليس مفيداً ، يمكن للآسيويين أن يسودوا ؛ بأن يعرضوا قضيتهم معًا إزاء اتجاه الأوروبيين لفرض أنظمتهم وإرادتهم على العالم .

وكما أوضحنا فإن الأوروبيين كانوا على خطأ مرات ومرات ، ويجب أن نقنعهم بأنهم يمكن أن يكونوا مخطئين مرة أخرى الآن فيما يتعلق بأيديولوچيتهم وأنظمتهم السياسية وعقيدتهم الاقتصادية ، علينا أن نفعل هذا الآن قبل أن تؤدى طرقهم التى لا تحتمل إلى المرارة والتوتر ، وربما إلى ما هو أسوأ .

يجب أن يقرر الآسيويون أنفسهم مستقبل آسيا ، فلو قبلوا باستمرار هيمنة الأوروبيين والأمريكيين على العالم ، فسوف يتولد جوٌ من القمع والظلم سريعًا ، لكى يؤدى فى النهاية إلى دمار آسيا ، إن لم يكن دمار العالم أجمع ! وإن استطاعت آسيا أن تلعب دورًا واعيًا فى شئون العالم لمواجهة وتصحيح المواقف والسياسات الاقتصادية والمالية الخاطئة للأوروبيين ،

عندئذ سيكون هناك أمل فى عالم أكثر عدلاً ومساواة ؛ عالم يستطيع فيه الفقير والغنى أن يتعايشا فى سلام ورفاهية ، إن التوازنات التى نحتاج إليها ليست مسألة توازن فى التسلح ! الذى نحتاج إليه الآن فعلاً هو أن يطرح الآسيويون أفكارهم بقوة حتى يمكنهم دفع مجتمعهم فى ضوء خبراتهم فى الماضى والحاضر .

دور اليابان واضح ؛ إنها أكثر الأمم تقدمًا فى آسيا ! إن مكانتها تؤهلها لقيادة نظيراتها من الدول فى المنطقة ، كما يجب أن تلعب دورها الصحيح فى الشئون الدولية ، وعليها أن تضرب المثل لآسيا وتتبنى القضايا التى تخص الدول الآسيوية ، ويجب أن تتوقف عن النظر إلى نفسها على أنها أمة أوروبية متطورة فى الشرق ، إن اليابان مؤهلة للقيادة ليس فى اتجاه الهيمنة الآسيوية فى القرن الآسيوى فقط ، وإنما نحو مجتمع دولى يسوده العدل فى قرن العالم الجديد الذى بدأ فجره .

إن المستقبل ملك للشباب ، وهناك مهمة أخرى أمامنا جميعًا اليوم ، وهى أن نتأكد من أننا لا نسرق فرص الشباب ، أما بالنسبة للشباب أنفسهم فالتحدى الذى يواجههم فى القرن الحادى والعشرين هو التخلص من حقيبة التاريخ القديمة ، فعلى شباب القرن الحادى والعشرين أن يفكروا فى أنفسهم باعتبارهم مواطنين حقيقيين فى العالم ، عليهم أن ينسوا اللون والعقيدة وأفكار التفوق والدونية ، عليهم أن يفكروا فى المساواة ليس بمفهوم الثروة المادية فقط ، وإنما على أنهم أعضاء فى الجنس البشرى . العالم الذى لا حدود له والذى سيعيشون فيه ؛ يجب ألا يبنى على أساس حرية تدفق المعلومات ورأس المال فقط ، بل يجب أن يكون عالمًا بلا حدود بالمعنى الحقيقى للكلمة ؛ أى أن تزال منه كل أشكال التميز القائمة على تفاوت الثروات والقوة ، وتباين اللون والعقيدة ، ولابد من أن يكون عالمًا يسوده التسامح الدينى بين كل الأديان ، وفوق كل ذلك ، يجب على شباب القرن الحادى والعشرين ألا يسمحوا بوقوع صدام الحضارات .

على شباب القرن الحادى والعشرين أن يفهموا تمامًا أن الكرة الأرضية مستديرة فلا

توجد دولة حقًا فى الشرق أو فى الغرب إلا بالنسبة لبعضها البعض ؛ فاليابان دولة غربية بنفس الأسلوب الذى تعتبر به الولايات المتحدة دولة شرقية ، ولنا جميعًا كل الحق فى أن نسمى أنفسنا شعبًا شرقيًا أو شعبًا غربيًا دون أى مغزى يدل على أننا أعلى أو أدنى .

على شباب القرن الحادى والعشرين أن يعيدوا توجيه أنفسهم للعيش فى عالم ليس منكمشًا فقط ، بل فى عالمٍ لم يعد مقسمًا بين شرق وغرب ، وعليهم أن ينظروا إلى الأرض على أنها كوكبهم وبلدهم ، وأنها محط ولائهم التام ، وفى الوقت نفسه عليهم الاحتفاظ بتقاليدهم وثقافاتهم الوطنية ، ولكن يجب أن يحترم الجميع كل تقاليد وثقافات البلاد الأخرى على قدم المساواة فى الأهمية والقيمة . ستكون هناك حضارة عالمية واحدة ، ومع ذلك يجب السماح باختلاف تقاليد الأفراد ومستوياتهم وإدراكهم ؛ يجب قبول كل شىء على أنه عالمى ، وما لم نتفق جميعًا على ذلك ، فلن تكون غير مقبولة .

لقد أطل علينا فجر عصر المعلومات ، ومعه يأتى عالم بلا حدود ، لا يمكن أن تكون فيه أى دولة جزيرةً منعزلةً ؛ فكلنا ننتمى للعالم نفسه ، ونتغذى بالمعلومات نفسها ونقبل حتى ثقافة وقيم موحدة . وفى النهاية ، ستنمو وتتطور حضارة عالمية ينتمى إليها الجميع . التحدى أمام شباب القرن الحادى والعشرين هو أن يتواءموا مع القرن العالمى هذا ، وفى الوقت نفسه يحتفظون ببعض التنوع والاختلاف فى الجنس والعقيدة ، الأمر الذى يبقى العالم أكثر إمتاعًا . وبالنسبة للشباب الآسيوى فإن فهمهم لشكل ، وديناميكية القرن الحادى والعشرين سيحدد الدور الذى سيلعبونه ، ويحدد شكل آسيا التى ستنهض فى النهاية .

٩- هَلْ يَظَلُّ الْقَرْنُ الْحَادِى وَالْعِشْرُونَ هُوَ الْقَرْنُ الْآسِيَوِىُّ؟ *[1]

قبل ألف عام وبينما كانت أوروبا تتحرك نحو الألفية الثانية ، كان العالم المتحضر فى ذلك الوقت فى قبضة اليأس . كان رجال الدين المسيحى وبالتالى كل سكان أوروبا على قناعة تامة بأن العالم بعد ميلاد المسيح بألف عام بالضبط سيؤول إلى الفناء ، كانت النهاية تقترب وآلت التجارة والسياسة إلى كساد ، وكذلك كل الجهود الإنسانية والمشاريع التجارية ، وعاش الناس فى خوف من المستقبل الذى ينذر بالنهاية ، وسرى فى العالم المتحضر إحساس بانعدام الأمل وانحطاط الهمة بشكل سيء جداً ، لا يمكن تبريره ! وهذا الشعور يتلخص فى : لو أن كل الجنس البشرى والعالم بأسره مقبل على النهاية المحتومة ، فما الفائدة إذن من التخطيط أو العمل من أجل المستقبل؟ ومع اقتراب الألفية الثانية كان العالم ؛ وهو أوروبا فى ذلك الوقت ، يترقب ويستعد لهذه النهاية .

واليوم ، ونحن نقترب من الألفية الثالثة يترقب كثير من الناس مرة أخرى تحقق نبوءة فناء العالم ، ويخشى الكثير ، ومثلهم فى آسيا ، على مستقبلهم الذى يدنو ! والآن لا يجب أن نركز على النهاية فقط ، ولكن أحرى بنا أن نصوغ بداية جديدة ، دعونى ألتمس وأتمنى بعمق هذه البداية الجديدة بجهد مشترك ويعزم لا يلين من آسيا وأوروبا والأمريكتين وأفريقيا وكل الجنس البشرى ؛ لبناء - ولأول مرة فى تاريخ البشرية - أول كومنولث كونى من أجل ثروة مشتركة ورخاء مشترك ، ولخير كل البشر .

---

* ورقة عمل قدمت فى اجتماع الهيئة الكونية فى عام ١٩٩٦م ، فى هاجو فى الثالث من ديسمبر ، عام ١٩٩٦م .

ولو نظرنا إلى التاريخ الحديث سنجد أن القرن التاسع عشر كان بحق القرن الأوروبى ، حيث انتشرت الرأسمالية الصناعية عبر القارة الأوروبية مع إمبراطوريتها واقتصادها الصناعى المسيطر على العالم ، وجزء كبير من القرن العشرين كان بحق هو القرن الأمريكى ، خاصة الجزء الأخير منه ، فقد تمكنت أمريكا من خلال استخدام ثرواتها وقوتها العسكرية من تحديد الأچندة الدولية ، واخترقت أعمالها التجارية وثقافتها الشعبية كل الأمم . كل ذلك معروف للكل ، أما بالنسبة للأوروبيين والأمريكيين ، فبدا لهم التفوق على أنه النظام الحتمى لطبيعة الأمور ، أو أنه على الأرجح امتياز إلهى بأن يحكم اقتصادُهم وثقافتُهم العالمَ . بالرغم من أن الكثيرين يعتقدون بحماسة بالغة أن القرن الحادى والعشرين سيكون ولابد من أن يكون هو القرن الآسيوى ، وأن آسيا سترث المستقبل وتسيطر على العالم .

وفكرة هيمنة آسيا على العالم فى اعتقادى مجرد وهم وسراب مصحوب بضجيج مبالغ فيه ؛ لأن القرن الآسيوى لن يأتى ، ولن تأتى تلك الحقبة التى تسيطر فيها آسيا على هذا الكوكب ، ولكن علينا فى آسيا ألا نأمل أو نتطلع إلى سيطرة جديدة ؛ لأن ذلك سيكون بمثابة إحلال شر مكان شر آخر .

يجب أن ينتهى عصر الإمپريالية والهيمنة ، يجب دفنها إلى الأبد ويجب الاحتفال بهذا الدفن ، ولا ينبغى أن يشهد القرن الحادى والعشرون أى بعث للإمبريالية ولا أى تأييد لأى سيطرة ، ولا يجب وبشكل خاص أن نعظم من شأن الهيمنة ، أو السيادة سواء سياسية أم اقتصادية أم ثقافية ؛ إن لعنة الإمپريالية لن تكون أقل بأى حال إذا كانت إمپريالية آسيوية .

وما ينبغى العمل من أجله ، ليس هو القرن الآسيوى ، بل القرن العالمى . فيجب علينا أن نبنى عالما جديداً يتميز بالحرية والمساواة والإخاء ، عالم جديد مأهول بديمقراطيات مسئولة ، ومنتجة وبناءة ؛ عالم جديد يتميز بقدر أكبر من الاحترام المتبادل ، وقدرٍ أكبر من التقدير المتبادل ، والنظر بعين الاعتبار لمصالح ومشاعر الآخرين ، واهتمامٍ أكبر بعامة الناس

فى هذا الكون ؛ لأن هذه مسئولية كل الأمم شرقًا وغربًا ، شمالاً وجنوبًا .

لقد افترض عالمُ الشئون السياسية الأمريكية المجدد صَمْويل . پ . هنتنجتون فى مقالة له قبل سنوات ، أثارت كثيرًا من الجدل وكانت بعنوان «صدام الحضارات» (١٩٩٣) ، وفيما بعد فى كتابه «صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمى» (١٩٩٦) ، افترض أن العالم يتجه إلى صراعات ، ليست بين الدول ، ولكن بين حضارات بأكملها . كان ذلك طرحًا نظريًا محكمًا . تاريخيًا ؛ كان هناك صدامات بين القبائل ، ثم بعد ذلك بين الإقطاعيات والممالك الصغيرة ، ثم بعد ذلك مع ظهور الدولة القومية حدثت حروب بين الدول . والخطوة التالية وغالبًا هى خطوة طبيعية على هذا السلم ، هى أن المستقبل سيتميز بصدام الحضارات . إلا أن العالم لا يسير وفق نظريات أكاديمية ، ولكن كلما روجت لهذا النوع من التفكير زادت احتمالات الصدام .

ومما لا جدال فيه أننا لا نحتمل عالمًا يضربه صدام الحضارات . وبدلاً من ذلك ، علينا أن نفكر كيف يمكن أن تتعلم الحضارات وتتبنى القيم الجيدة من بعضها البعض ، وتدرك مناطق التشابه فى الحضارات وليس الصراع الكامن فيها . فلو أنكم ركزتم فقط على نقاط الاختلاف والصراع ؛ فإنكم ستزيدون الاحتكاك ، ولو اخترتم أن تركزوا على التعاون وأوجه التشابه عندئذ يمكنكم العمل معًا متكاتفين .

لماذا يروج الآن مرة أخرى لفكرة صدام الحضارات والديانات؟ ! فبدلاً من ذلك علينا أن نعمل سويًا لكى تتمكن الحضارات من التعايش السلمى مع بعضها البعض . يجب أن تكون رسالتنا هى التعايش السلمى . بل إن التعايش العقيم ، فى اعتقادى لا يمكن تحمله ولا تقبله أيضًا ؛ فلماذا نقبل بالاختلاف ونتسامح فيه فقط ؟ لماذا لا نفيد من ذلك؟ كيف ستكون حياتكم لو أنكم تعيشون فقط على الجبن الهولندى ، وتحرمون أنفسكم مباهج وأطايب المطبخ الفرنسى والإيطالى والصينى والهندى والتايلاندى والملايوى . . إلخ؟ لماذا لا نحتفل ونبتكر لتكون هناك وليمة من كل الحضارات؟

لقد اعتدت أن أسأل الأوروبيين : لماذا يرى ويقبل كثير من الأوروبيين أن تتطور الموسيقى الآسيوية من داخلها ولا تكون محاكاة أو تقليدا لموسيقى البيتلز أو شارل أزنافور أو موتسارت ، بينما لا يحتمل الكثيرون أى نظام للحكم لا يكون نسخة مطابقة للنظام الأوروبى؟ لماذا يفهم ويتذوق الكثيرون الفن الآسيوى ويشيدون بتنوعه الهائل ويرحبون بحقيقة : أنه ليس نسخة من الفن الأوروبى ، ومع ذلك يصر الكثيرون أن الأساليب الآسيوية فى الأعمال التجارية والاقتصاد والسياسة والإدارة لا يمكن الاعتراف بشرعيتها ما لم تكن نسخا مقلدة من الأساليب الأوروبية؟ ! لماذا يشيدون بالموسيقى والفن والأدب الآسيوى ومن ناحية أخرى يحطون من قدر القيم الآسيوية وأساليب الديمقراطية فيها ، ويمقتها الكثيرون فقط عندما يجدون أنها تختلف عنهم؟ ! !

لابد من أن يكون هناك تواضعٌ أكثرَ وغطرسةٌ أقلَّ من كلا الجانبين ، إنكم بالطبع لا تريدون أن تعيشوا فى بيوت متشابهة ، أو أن ترتدوا الملابس نفسها وتستمعوا لموسيقى قياسية واحدة ، ألفها مؤلف موسيقى جيد ، لا يمكن أن نقبل نظرية للتعايش تقول : بأن على كل الشعوب أن تكون على شاكلة واحدة ، يخضعون لقواعد تدفق رأس المال المتعولم ، هذه بالتأكيد ليست فكرتى عن مستقبل الحضارة الكونية .

لم يكن القرن العالمى ممكنًا فى الماضى البعيد إما بسبب الغطرسة الثقافية أو الأيديولوجية ، أو بسبب قسوة الجغرافيا وتباعد المسافات وضعف التكنولوجيا ، ولم يكن ممكنًا فى الماضى القريب لأن العالم كان منقسمًا إلى معسكرات متنافسة على اهتمامات مادية قبل أى قيم أخرى .

القرن العالمى ممكن الآن ولأول مرة ، لأنه لا يمكن لدولة واحدة ولا لشعب واحد ولا لإقليم واحد أن يرث المستقبل ، بل يجب أن تحظى كل الأمم وكل الشعوب وكل الأقاليم بالفرص نفسها ، أتمنى أن يرث المستقبل كل أصحاب الموهبة والاجتهاد والرأى الصواب ، وأعتقد أن المستقبل يجب أن يكون من نصيب كل أصحاب الإرادة والراغبين فى المشاركة

بجهدهم . نعم للعولمة ، ولا للهيمنة والتطابق والشكل الموحد ، نعم للثروات المادية ؛ لتكفى الجميع ويستمتعوا بها ، لا لتحكم المال فى كل الشئون وفى كل أركان العالم .

ومن زمن ليس ببعيد ؛ كنا بما فينا : اليابان وكوريا الجنوبية والصين وإندونيسيا وماليزيا وسنغافوره وتايلاند والفلبين وڤيتنام وتايوان ، كنا كلنا وبلا استثناء فى نظر الجميع «بطٌ ميْتٌ» ، وكنا جميعًا فى وقت أو آخر نعتبر قضايا خاسرة ، ومجتمعات لا أمل يرجى منها ؛ مصيرنا مزبلة التاريخ .

وعلى مدى الجيل السابق بشكل خاص أظهرنا للعالم بما فى ذلك الكثيرين من أولئك الذين فقدوا الأمل وحط عليهم اليأس فى قارات كثيرة ؛ ماذا يمكن أن تفعله الآن البلاد والشعوب التى كان يقال لا أمل فيها ولا رجاء منها ! ! وبالرغم من تنبؤات أولئك الذين لم يستطيعوا أن يروا كيف تمكنا من الاستمرار فى الركض بسرعات مذهلة ، وطوال فترات طويلة من الزمن ، دون أن يفتر عزمنا ، أو تنهار قوانا من شدة الإرهاق إلاَّ أننى أعتقد أننا سنحافظ على ما توصلنا إليه ، وبالرغم من تنبؤات أولئك الذين يعتقدون أننا سنرتطم قريبًا بجدار الموارد المحدودة فإننى أعتقد أننا سنوسع الخطوات ، وبالرغم من تنبؤات هؤلاء الذين يعتقدون أننا لن نستطيع أن نحقق الإنتاجية الضرورية وقفزات القيمة المضافة ، أقول لهم : شاهدوا وانظروا كيف تمكنا بمشيئة الله من تحقيق ما يجب تحقيقه؟ ! وبالرغم من تنبؤات أولئك الذين يظنون أننا لن نستطيع أن نستمر أبعد من ذلك دون أن نصل لحد ارتطام بعضنا ببعض ؛ فإنى أعتقد أننا لن نتقاتل ، وسنستمر بصبر وجَلَد فى سلامِ شرق آسيا ومجتمع شرق آسيا ؛ شبكة تعاون شرق آسيا ، التى يجب أن ندعمها حتى نستمر فى مسيرتنا السريعة نحو حياة أفضل لشعوبنا .

لن نفقد طاقتنا ولن ننهار من شدة الإعياء ، ولن نفقد نظامنا السياسى والاجتماعى ، ولن ننحرف عن الأولوية الاقتصادية ولا عن التزامنا الأيديولوچى نحو البراجماتية ، ولن نذهب فى الطريق المنحدر نحو منزلق الوسطية ، وأولئك الذين يتوقعون منا ألاَّ نستطيع أن

نفعل ذلك سيخيب ظنهم على ما أعتقد إلى حد ما !!

لابد من أن يكون أعمى من لا يرى أن عالمًا مختلفًا وجديدًا قد بدأ يتبلور بعد نهاية الحرب الباردة ، وأن هناك آسيا مختلفة وجديدة جدًا تنهض . تذكروا أوراق دومينو جنوب شرق آسيا التى قال عنها رجال صحافة الغرب المثقفون : إنها ستسقط الواحدة تلو الأخرى حالما تسقط ڤيتنام ! حسنًا ! لم تسقط وبدلاً من ذلك فقد ساعدوا ڤيتنام المنتصرة لإعادة بناء نفسها وجعلوا منها مكان جذب لكى يستثمر فيه الأعداء الذين هزمتهم .

وحديثًا ، فى عام ١٩٨٠م ، وصل إجمالى الناتج القومى لاقتصاد شرق آسيا الإقليمى إلى أقل من ثلث إجمالى ناتج أوروبا الغربية ، أو أمريكا الشمالية ومع عام ١٩٩٠م ، وصل حجم شرق آسيا الإقليمى إلى ثلاثة أرباع حجم أوروبا وأمريكا الشمالية . ويبدو الآن أن هناك إجماعًا متزايدًا على أنه مع حلول عام ٢٠٠٠م ، ستكون الاقتصادات الثلاثة متساوية تقريبًا .

وبالفعل فإن اقتصادات مجموعة الأبيك تنتج أكثر من ٦٠٪ من إجمالى السلع والخدمات على هذا الكوكب ، ويعتقد الكثيرون الآن أن شرق آسيا فقط سيصل حجمه الاقتصادى إلى ضعف اقتصاد أوروبا الغربية ، أو ضعف إنتاج أمريكا الشمالية ، ويتوقعون مع حلول عام ٢٠٣٠م ، أن يصل حجم الاقتصاد الإقليمى لشرق آسيا إلى مثل حجم اقتصاد أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية معًا .

ولسوء الحظ لا يمكننى أن أرى ذلك فى المستقبل الآسيوى ، وتفاؤلى لا يمتد إلى ذلك الحد . ولكنى أعرف فعلاً أننا نشهد فقط بداية آسيا الجديدة ، وهى بداية درامية بما يكفى ؛ ويتوقع صندوق النقد الدولى أن إجمالى الناتج العالمى من السلع والخدمات سوف يزيد فى التسعينيات بما مقداره ٥ر٧ تريليون دولار أمريكى (أى ما يعادل ٠٢ر١٤مليون رينجت ماليزى) ، وأن نصف هذه الزيادة ستنتجها شرق آسيا ، ويعتقد الاتحاد الأوروبى أن

نصف النمو فى التجارة العالمية حتى عام ٢٠٠٠م سيكون مصدره من شرق آسيا . ويتوقع الاتحاد الأوروبى أنه بحلول عام ٢٠٠٠م سيصل متوسط دخل ٤٠٠ مليون آسيوى منهم ٣٠٠ مليون من شرق آسيا إلى مستوى يعادل إن لم يكن أعلى من دخل نظرائهم الأوروبيين أو الأمريكيين . وإنى لأتساءل : إن كنا نقدر تمامًا أهمية هذا التنبوء .

أى أنه خلال ثلاث سنوات أو بالتحديد ٣٧ شهرًا من اليوم ، سيعيش الكثير من آسيوىّ الشرق بمثل مواصفات الطراز الأوروبى من ناحية الطلب ومستوى المعيشة بشكل أفضل من مستوى معيشة الأوروبيين أنفسهم . هل هناك إذن ما يثير الدهشة لأن أوروبا الآن ومنذ فترة تصدر إلى شرق آسيا وبشكل مؤثر أكثر مما تصدره إلى الولايات المتحدة؟ ولأن الولايات المتحدة تصدر إلى شرق آسيا أكثر مما تصدره إلى أوروبا؟ وهل هناك ما يثير الدهشة لأن اليابان تصدر إلى بقية شرق آسيا أكثر مما تصدره سواء لأوروبا أم إلى الولايات المتحدة؟ من المثير حقًا أن تصدر الولايات المتحدة إلى بلد صغير لا يزيد تعداده عن ٢٠ مليون مستهلك مثل ماليزيا أكثر مما تصدره إلى كل من أوروبا الشرقية وروسيا . أما بالنسبة للصادرات إلى الولايات المتحدة فنحن نصدر ثلاثة أضعاف ما تصدره روسيا إليها تقريبًا .

لست فى حاجة لأن أذكر كم عدد التليفونات التى ستشترى ويتم توصيلها فى شرق آسيا خلال العشر سنوات القادمة ، وكم عدد السيارات التى سنقودها . وكم عدد الأميال التى سنقطعها بها على الطرق الجديدة ، وكم عدد القطارات التى ستسير على القضبان ، وكم عدد الطائرات التى ستحلق فى سمائنا وتنطلق من المطارات العديدة ، وكم عدد البدلات التى سنرتديها من إنتاج پيير كاردان . وكم عدد حبات الدواء التى سنتناولها؟؟ ! فى الحقيقة ؛ أنا لا أعرف ! ومع ذلك فإننى أعرف أن الأرقام هائلة : وهذا يكفى وليس لذلك مثيل من قبل ، ولا يجب أن يخرج أحد بانطباع وشعور أن التغيرات الثورية التى اجتاحت شرق آسيا هى مجرد تغيرات اقتصادية وحسب ، بالرغم من أن الاقتصاد هو العامل الرئيسى الذى غير وأثر فى شتى مناحى حياة كل فرد فى شرق آسيا .

لقد تغيرنا سياسيًا أيضًا ؛ فإن عدد أفراد الطبقة المتوسطة يزداد يومًا بعد يوم زيادة هائلة ، ورياح الديمقراطية تهب فى كل بلد ؛ تلك الديمقراطية ذات النكهة الآسيوية وليس الهولندية أو الفرنسية أو البلغارية أو الأمريكية ، وأعتقد أنها لن تتوقف إذا واصلنا عملية تقدمنا الاقتصادى . ففى أى مكان فى العالم ستجد تعددية أكثر ، إلا أن التأكيد عندنا دائما وسيظل ، من أجل مصلحة المجموع بدلاً من أنانية القلة أو إيثار الفرد ، ولن تكون الديمقراطية معبرة عن إرادة الناس ، إذا كانت إرادتهم ومصالحهم يمكن أن تصادر من قبل أفراد أو جماعات . الفرد الذى يفرض إرادته على المجموع يمثل الأوتوقراطية سواء كان فى السلطة أم لا ، أما فى آسيا فسوف تسود الديمقراطية دائمًا وتعلو فوق كل أشكال الحكم المطلق .

لم يحدث فى تاريخ البشرية من قبل أن تحسنت أحوال أعداد كبيرة من البشر بهذه الدرجة وبتلك السرعة ، وإذا ما قارنًا ما حدث عندنا بالثورة الصناعية فى أوروبا فإنها تبدو باهتة أمام ما حققناه ، ولأول مرة فى تاريخ العالم يتولّد هناك إحساس بالضمير الإقليمى ينهض فى شرق آسيا ، وإحساس بالزهو والكبرياء الآسيوى ينمو ويزداد فى كل أرجاء القارة الآسيوية تقريبًا . لقد حدث تغيير أساسى نحو الأفضل فى قدرات الناس وإمكانياتهم . وهناك تغيير أساسى فى القلب والعقل .

أتذكر أنه فى وقت غير بعيد فى أوروبا ، كان الكثيرون من الأوروبيين يعتقدون أن كل ما هو خير موجود فى أوروبا ، وأن كل ما فى أوروبا خير وصالح ! وفيما بعد ، كان الأمريكيون - والأوروبيون معهم - يعتقدون أن كل ما هو خير موجود فى أمريكا وأن كل ما فى أمريكا خير ! ومازال الأمريكيون يحبون هذا الاعتقاد ! ولكن إلى أى مدى؟ ويبدو أن المؤرخين يريدون أن يقولوا : إن التحول الثقافى الأساسى قد تم فى أوائل السبعينيات . وبالمثل فى وقت ما كان الآسيويون يعتقدون أن كل ما هو خير موجود فى الغرب وأن كل ما فى الغرب يعتبر خيرًا ، ولكن اليوم . . . . . أليس مدهشًا أن تشهد آسيا أيضًا تحولاً وانتقالاً ثقافيًا أساسيا؟

إننا نعرف أنه مازالت فى الغرب أشياء كثيرة رائعة ، وأن عملية التعلم من الغرب لن تنتهى قريبًا . وحدهم الحمقى والعميان - أينما كانوا - لا يعرفون ذلك ! ولكننا اكتشفنا أيضًا أشياءً قيمة عديدة فى قيمنا وتقاليدنا وفى قيم وتقاليد آسيا .

فى شرق آسيا ؛ تمكنًا من استرداد الكثير مما فقدناه خلال قرون السيطرة الأوروبية ، فالإحساس بقيمة الذات هو الذى كنا فى مسيس الحاجة إليه وقد استردته الشعوب إلى حد كبير بعد أن كانت قد فقدت احترامها لنفسها ، ولأول مرة منذ قرون أصبحت كل شعوب شرق آسيا واثقة من نفسها ، ومدركة لقواها الكامنة ولإمكانياتها ؛ هذه آسيا جديدة ، آسيا التى لن تعود إلى سابق عهدها ، أو كما كانت فى الماضى وفى الوقت نفسه لن تسمح آسيا الجديدة هذه ، بأن تعامل كما كانت تُعامل فى الماضى .

لقد رفضتُ فكرة «القرن الآسيوى» ؛ لأنها لن تتحقق ، وعلى الجنسْ البشرى أن يعرف أن هناك هدفًا أفضل . فى عالم الاقتصاد ، أرى كل ما يمكن أن يوصف بالمثالية ، أراه قابلاً للتحقيق للجيل القادم :

أولاً : إعادة اكتشاف أوروبا لديناميكيتها الهائلة النابع من نضجها الشديد وعبقريتها .

ثانيًا : النمو الاقتصادى الأمريكى الهائل الناتج عن المشروع التجارى الضخم وعن المنافسة .

ثالثًا : نهضة آسيا النابعة من مواردها البشرية الطليقة ، ومن القدرة على العمل الشاق ، والقدرة على بذل جهد إنسانى فائق عندما يتوفر الدافع والحافز لديهم ، واندفاعهم من أجل الإنتاجية الشاملة لمجتمعاتهم متعددة اللغات .

رابعًا : التنمية التعاونية والجماعية لكل هذه الموارد الأفريقية الهائلة : بشرية وجغرافية للأفارقة وللعالم أجمع ، لا مساعدة ، لا ديون ولكن استثمارات مشتركة برغبة ورضاء الأفارقة بأن يشركوا الآخرين مواردهم وطاقاتهم التى لا حدود لها ، على أن يعوضهم الآخرون .

خامسًا : وأخيرًا ؛ إسقاط تلك المواجهات السخيفة الموروثة منذ الحملات الصليبية ، يجب أن نوقف ربط الإسلام بالإرهاب ؛ لأننا جميعًا نعرف أن المسيحيين واليهود والبوذيين قد دمروا وفجروا مبان أكثر مما دمر المسلمون ، وقتلوا أناسًا أكثر مما قتل المسلمون !

وللحق أقول : إن طرق وأساليب ووسائل الإرهاب قد اخترعت وابتكرت فى أوروبا وأمريكا ؛ هذه الحملة وكل الحملات لتحطيم كل الأعداء لابد من أن تتوقف ، أما حملات المستقبل فيجب أن تكون حملات للإصلاح ولإعادة البناء . تلك هى الرؤية وهذه هى المهمة التى يجب أن يعمل الشباب على تحقيقها بكل ما فى قلوبهم من إخلاص وحماسة . علينا أن نعمل جميعًا من أجل مد اقتصادى جديد يصعد فى كل حدب وصوب فى هذا الكوكب ، بغض النظر عن الموقع الجغرافى أو عنوان القارة .

كيف يمكن أن ننجز هذا المد الصاعد الجديد للديناميكية والرخاء بينما كل المؤشرات تشير الآن نحو الركود والبؤس المنتشر؟ هل نحن فى حاجة إلى محيطات من النوايا الحسنة ، والمساعدات الأجنبية والتضحية بالنفس؟ لو أننا فى حاجة إلى هذه الأشياء فمن الأجدر أن ننساها ؛ لأن البشر لم يتطوروا ويتحولوا إلى مثل هذه الكائنات النبيلة .

كل ما نحتاج إليه هو إدراك معقول ومستنير للمصلحة الذاتية النابعة من أبسط المفاهيم ، إدراك معقول ومستنير للمصلحة الذاتية النابعة من العقلانية القادرة على أن ترى أبعد قليلاً من أنف المرء ، مصلحة ذاتية مستنيرة ومعقولة منطلقة من قدر قليل من الشجاعة ومن القيادة التى تمكننا من أداء ما نعرف أنه حتمى وضرورى .

وكما أكد «آدم سميث» على عامل واحد فريد وهو «اليد الخفية» فى العملية التى تصنع بها الأمم الثروات ، دعونى أؤكد على فكرة معينة لتحديد ووصف الوسائل اللازمة لتحقيق الكومنولث الكونى ، دعونى أطلق على هذه الوسائل اسم : «الكتف الخفية» . لقد ظلت الأمم والجنس البشرى عامة ، لردح طويل من الزمن ، سواء اعترفنا بذلك أم أنكرنا ، فى قبضة مفهوم : «افقر جارك» هل نستمتع بمنظر الآخرين وهم يحققون النجاح خاصة إذا

كانوا يؤدون عملهم بصورة أفضل منا؟ هل نبذل أى جهد على الإطلاق لمساعدة الآخرين لكى يتقدموا مقارنة بذلك الجهد الذى نبذله لضربهم وجرهم للخلف؟

تخيلوا عالما لا نحاول فيه أن نفقر جيراننا ، بل نشترك فيه بحماسة لتأكيد وضمان رفاهيتنا ، وذلك من خلال تأكيد وضمان رفاهية جيراننا . يجب أن نضع أكتافنا الخفية لدفع عجلاتهم للأمام دون أن يروها ، تخيلوا النتائج العجيبة والمذهلة ؛ لو أن العالم بأكمله لم يكن فى قبضة مفهوم : «افقر جارك» وبدلاً من ذلك تكرس كل الجهود لسياسات ومواقف مفهوم : «اعمل على رفاهية جارك» .

هل هذه مثالية غير واقعية؟ لو أن هذه مثالية غير واقعية طيلة الجيل السابق ، دعونا نأمل ألاّ تكون كذلك بالنسبة للجيل القادم . تعالوا إلى منطقتنا وشاهدوا بأنفسكم كم نحن غير واقعيين؟ ! إننا مثابرون ونعمل بدأب ؛ لأننا نرى العجائب ، ونلمس المعجزات من وراء مفهوم : «الكتف الخفية» فى شرق آسيا ، لقد دفعت القوارب إلى البحر ، والجميع ارتفعوا وعلوا مع علو المد الاقتصادى فى شرق آسيا ، نحن - ومعنا حتى أشبال النمور - ذاهبون للخارج إلى أماكنَ دمرتها الاشتراكية الغربية لنضع أكتافنا لدفع العجلات ، ونحقق المعجزات نفسها . . . غير الواقعية .

لقد غامر الأوروبيون بالخروج قبل مئات السنين لتأمين حدود قارتهم الصغيرة فغزوا الشرق . وعادوا ومعهم الحرير والتوابل وحكايات عجيبة ، والآن يغامر الأوروبيون بالخروج لتأمين حدود قارتهم الصغيرة ويغزون الشرق ! ليس لغزو أراضينا ولا شعوبنا ولا كبريائنا ولا إيماننا ، وإنما لغزو أسواقنا ! ليس من أجل السيطرة على مجتمعاتنا واقتصادنا ، وإنما ليكونوا شركاء فى مشاريع لا يمكن الاستغناء عنهم فيها ، وفى بعث نهضة الشعوب التى كانت فى السابق مبدعةً لأعظم الحضارات والديانات !

لقد تحققت المعجزة الشرق آسيوية بالطريقة وبالأسلوب القديم ومن خلال

استثمارات هائلة فى عمل شاق وبعرق الجبين ، كانت معظم الدول فى شرق آسيا تعطى مكان الصدارة للاستثمارات الأجنبية ؛ لأننا لم يكن فى مقدورنا أن نتقدم بدونهم ، وسنستمر فى إعطاء الصدارة للاستثمارات الأجنبية ؛ لأننا لا نستطيع أن نصل إلى حيث نريد خلال العقود المقبلة بدونهم .

لقد بدأت حديثى بمناشدة قادة أوروبا السياسيين والذين يشكلون قيادة العالم ، ولأن ذلك أمر بالغ الأهمية والحيوية . وها أنا أنهى ملاحظاتى بالمناشدة نفسها ، والنداء القوى لقادة الأعمال التجارية والمشروعات فى أوروبا الذين بمشاركتهم يكتمل صنع مستقبل الجنس البشرى ، وأن دورهم لا يقل أهمية على الإطلاق عن الدور الذى يلعبه القادة السياسيون .

تقدموا وجازفوا ؛ ساعدونا فى بناء آسيا الجديدة ، ساهموا واستفيدوا تمامًا من بناء العالم الجديد ، ومن بناء الكومنولث الكونى ، حيث تكون الثروة عامة بمعنى الكلمة .

١٠- بناء كومنولث كونى واحد *[1]

هذا الحوار الباسيفيكى هو - أساسًا - تجمع لشخصيات بارزة من الولايات المتحدة ومن دول شرق آسيا . اسمحوا لى بأن أقول بعض الأشياء لأصدقائنا فى الولايات المتحدة وشرق آسيا ، وأخلص فى النهاية إلى فكرة واحدة فقط ، أرى أنه من المفيد لنا جميعًا أن نفكر فيها مليًا .

ولأصدقائنا من عبر الباسيفيك دعونى أؤكد على ثلاث نقاط :

أولاً : آنَ لنا فى آسيا أن نطلب قليلاً من التفهم وقدرًا من الإنصاف وقليلاً من الوقت والإنصات ، وبكل السبل لا تدعوا أيا منا نحن الآسيويين نتخفى وراء الأعذار والحجج ، اجعلوا كل الطغاة يخشون ضمير الجنس البشرى الذى يجب أن تسهم فيه آسيا وأمريكا إسهامًا تامًا . لكن دعونا نكون منصفين . لن نخسر شيئًا بذلك .

ثانيًا : وأنا هنا لا أوجه ملاحظاتى إلى الساسة الأمريكيين ، ووسائل الإعلام والمؤسسات غير الحكومية فقط ، بل إلى المؤسسات الأمريكية ، فإن لديكم قدرًا كبيرًا من الموهبة وقدرًا كبيرًا جدًا من الإبداع ، لديكم الكثير لتقدموه ولديكم الكثير لتسهموا به فى مستقبلنا ، ولتأمين أنفسكم بالمجىء إلى هنا لإعادة بناء شركاتنا ، أو لترتفعوا بها إلى مستوى أعلى من الأداء والربحية . وأنا أحثكم أن تتجهوا غربًا ، اذهبوا غربًا إلى ما وراء حدود قارتكم وفيما وراء خيالكم الحالى . كونوا رفقاءنا فى رحلتنا الطويلة ؛ حتى نحقق الحداثة التامة ، ساعدونا فى بناء آسيا الجديدة .

ثالثًا : اسمحوا لى أن أتحدث عن الشراكة الإنتاجية ، تعالوا ولنتعاون معًا - سواء فى أمريكا

---

* ورقة عمل قدمت فى الحوار الباسيفيكى الثالث- كوالالمبور- ماليزيا فى ٢١ نوفمبر ١٩٩٦م .

أو فى آسيا أو أى مكان لكى نقيم مشاريع مشتركة لبناء عالم جديد ؛ لبناء كومنولث ديمقراطى كونى لم يشهد العالم مثله من قبل . . كومنولث تستحقه آمال الجنس البشرى ، ويستحقه القرن الحادى والعشرون .

ونحن ، جميعًا لنا الحق فى أن نطلب السماح لنا بكسب لقمة العيش بالطريقة القديمة التقليدية بعرق الجبين ، وكد الملايين من شعوبنا . أما المتقدمون فينا فلديهم كل المزايا : التكنولوچيا ورأس المال والأسواق المحلية الغنية ، والعمالة المدربة وذكاء السوق والخبرة والتنظيم ، ولديهم كل السلع التى تباع . أما نحن فى آسيا بدأنا نتعلم إنتاج سلع مصنعة معتمدين فيها على العمالة الأرخص لدينا ، فهى رخيصة ؛ لأن تكاليف المعيشة عندنا مازالت منخفضة ، وتوقعاتنا ليست عالية . وبالتأكيد يجب أن تقروا أن التهديد الذى نمثله لكم مازال عند حده الأدنى ، إلا أنه كان هناك مؤخرًا حملة من أجل تسوية أرض الملعب . عندما تكون المسابقة بين عمالقة وأقزام ، فهل يكفى تسوية أرض الملعب لضمان فرصة رياضية للأقزام؟ بالتأكيد هناك الكثير من رجال الأعمال فى الغرب ، وحتى السياسيين يلعبون الجولف ويفهمون كذلك حاجة المعاقين .

معظم الدول النامية لا تملك سوى كدح شعوبها ؛ لتعول عليه وليس لديها سوى الفتات الذى تأمل فى أن تلتقطه ، وحتى هذا قد يبدو كثيرًا عليهم . وهناك الكثيرون من بين الأغنياء الذين يريدون التأكد من أن هذه الميزة الوحيدة ؛ هذا العامل التنافسى الوحيد ، يتم تحييده . ولو أخذ الأغنياء من الفقراء الشىء الوحيد الذى يمتلكونه ، الوسيلة الوحيدة التى تمكنهم من شق طريقهم للخروج من الفقر ! فأين يكون العدل إذن؟ أَوْ أن ذلك أمر لا يهم؟ !

وعندما كانت أمريكا شابة ونامية تبحث عن طريقها ، بل وتشق طريقها فى العالم لم تطالب أوروبا بإدخال المؤسسات الأوروبية فيها ! ولم تطالب بتبنى ممارسات العمل الموجودة فى أوروبا نفسها ، وألا تصادروا أراضى السكان الوطنيين لزراعة القمح والتبغ ، ولتربية الماشية . ولفترة من الزمن سمحوا لكم حتى بامتلاك العبيد ، ولم يوقفوكم هم أو غيرهم عن

إزالة الغابات خشية الذئاب والدببة ، وأسود الجبال والحيات ذات الأجراس ، وفى الحقيقة كانت أوروبا سعيدة بشراء المنتجات التى كنتم تصدرونها دون طرح أى أسئلة ، بالطبع كان ذلك فى السابق وليس الآن . الأمور مختلفة الآن فقد أصبحنا كلنا أكثر حكمة وربما أكثر إنسانية . ولكن هل من الإنسانية ومن الحكمة أن نترك الكثير من الآسيويين فى حالة فقر مهما كان السبب؟

أنا لن أدافع عن التلوث ولا عن تدنيس البيئة ولا عن سرقة حقوق الملكية الفكرية ، ولا عن تدمير شعوب بأكملها ، ولا عن عمالة الأطفال . ولكن حين تنظرون حولكم ، هل ترونا نفعل أى شىء آخر سوى تلك الأشياء الفظيعة؟ إننا نحاول ولكن وكما تلحظون أن الفقراء عادة ما يكونوا أكثر يأسًا من الأغنياء ؛ فهم يلوثون البيئة ويقطعون الأشجار ببساطة ؛ لأنه ليس فى وسعهم مساعدة أنفسهم ؛ فالأفران الكهربائية ومطابخ الغاز مازالت سلع رفاهية بالنسبة لغالبية الآسيويين ، ولعل قطع الأشجار من أجل حطب التدفئة أو من أجل كسب لقمة العيش الحل الوحيد . والبديل ربما يكون وجبات غير مطهوة أو بطالة ، وكم نود أن نصنع منتجات حديثة ومتقدمة بأيدينا ونسوقها فى جميع أنحاء العالم ، ولكن معظمنا لا يعرف كيف؟ وتحت أى ظروف بيئية مثالية أو لعل ذلك ليس فى مقدورنا . وبالإضافة إلى ذلك ، أننا إذا حاولنا ، يقال لنا : إننا لا نعامل عمالنا معاملة سليمة ، وإن علينا إما أن ندفع حق الامتياز أو أننا ببساطة سنحرم من التكنولوچيا ! ولكى نعيش علينا أن نقطع أشجار الغابات ونختار التكنولوچيا المتدنية والصناعات كثيفة العمالة قليلة الأجر .

ونتكلم عن القيم الآسيوية : العمل الشاق واحترام السلطة . النظام والإذعان فى سبيل مصلحة وخير الأغلبية وطاعة الوالدين . والآن نجد القيم الآسيوية تتوازى مع الحكم السلطوى ، وتتجاهل حقوق الإنسان والعمال والاستقرار السياسى والنجاح الاقتصادى مهما كلف الأمر ، وأن علينا الآن أن نتخلى عن القيم الآسيوية ونتبنى ما يسمى بالقيم العالمية كما يتصورها الغرب .

ولقد نسى الذين يحطون من قدرنا من الأمريكيين والأوروبيين المحنة العظيمة التى أبطلت النداء من أجل الحرية والمساواة والأخوة ، فى فرنسا أول من نادت بالديمقراطية الحقة . وأول جمهورية حلت محل الملكية المطلقة للنظام القديم أشادت بالمجد الإمبريالى لنابليون ، فلقد رأى الفرنسيون الثورة فى عام ١٧٨٩م ، وفى عام ١٨٣٠م ، وشهدت ثورة ١٨٤٨م ، ميلاد الجمهورية الثانية ، وأتت الجمهورية الثالثة مع الإطاحة بنابليون الثالث بعد الحرب الفرنسية الروسية ، وانتهت الجمهورية الرابعة بعد الحرب العالمية الثانية ، وتواطؤ حكومة فيشى مع أدولف هتلر ! فلقد استغرق كل هذا وقتًا طويلاً من الزمن ولا أعتقد حتى الآن أن الديمقراطية الفرنسية تامة .

وفى الولايات المتحدة ، يقف قرنان من الزمان وحرب أهلية بين إعلان الاستقلال الأمريكى وبين إصدار قانون الحقوق المدنية ، حيث أعلنتم قيم وفضائل الديمقراطية وحيث أعلنتم بحق أن كل البشر ولدوا متساويين ، بين ذلك وبين قانون الحقوق المدنية الصادر فى عام ١٩٤٥م حرب أهلية ومائتا عام ومحن أخرى كثيرة .

وحصل النساء على حق التصويت فى إيطاليا فى عام ١٩٤٥م فقط ، وفى سويسرا قبل أعوام قليلة ، ولم يحصل السكان الأصليون فى أستراليا على حق المواطنة وحق التصويت والاعتراف الكامل بأنهم كائنات بشرية إلا عام ١٩٦٧ ، ومع ذلك توجد قلة من الأستراليين مازالت تعتقد أن الموقف الجديد تجاه السكان الأصليين وتجاه محو سياسة استراليا البيضاء ما هى إلا أخطاء !!

والكثير منا نحن ، الآسيويين ، لم نحصل على حقنا فى الديمقراطية ولا حتى حقنا فى حكم أنفسنا ، وهى من حقوق الإنسان الأساسية إلا منذ سنوات قليلة . والمثير أن الكثيرين منا والذين كان ينظر إليهم على أنهم لا يصلحون لحكم أنفسهم ولا للديمقراطية على مدى مئات من السنين كان يطلب منهم أن يكونوا ممارسين صالحين ونماذج يحتذى بها للديمقراطية فى اللحظة التى أنزل فيها علم الأمبريالية وارتفع فيها علم الاستقلال ! ألم نعط

نحن ، الآسيويين ، الوقت الكافى وطُلِب منا الإتقان فى المحاولة الأولى لحكم أنفسنا . تعدد الأحزاب وإجراء انتخابات منتظمة ، لم يعتبر كافيًا ! ولكى نكون ديمقراطيين حقًا علينا تغيير الحكومات مع كل انتخاب وعلينا تحمل أعمال العصيان المدنى ، واندلاع مظاهرات من حين لآخر مع ازدياد الإضرابات ؛ أى الاقتراب من حافة الفوضى بشكل عام ، كما يجب بطبيعة الحال ألاَّ يكون الأداء الاقتصادى جيدًا وألا نتحدى الدول المتقدمة المستقرة .

لا يعنى شىء من ذلك أن الديمقراطية ليست مهمة لآسيا أو أن حقوق الإنسان أقل أهمية بالنسبة لنا فى آسيا عنها فى أجزاء أخرى من العالم ، ولتناول موضوع الديمقراطية بالنقاش ؛ فإنى أرى أن ما يمارس عندنا قد أُسىء فهمه تمامًا ! وبالنسبة لموضوع حقوق الإنسان ؛ فإنى أرى الآسيويين قد أحرزوا تقدمًا أسرع وأكثر وأعمق لمئات الملايين ، وبسرعات لم يشهدها تاريخ البشرية من قبل فى مجال حقوق الإنسان ، وأن من ينكر هذا فإما إنه يعانى من قصر نظر أو يظهر جهلاً لا يعقل !

لا يمكن لآسيا بعد ذلك أن تجلس وتتلقى الإساءة والإهانة فى صمت الرواقيين من أولئك الذين يعتقدون أن عدم إلمامهم التام بما يجب معرفته لا يجب أن يكون عائقًا أو مانعًا أمام محاكمة دول بكاملها . نحن فى آسيا نطالب ، ولنا الحق فى أن نطالب بقليل من النضج وبقدر من الفكر المتطور الحديث من جانب أولئك الذين يرغبون فى التحليل والإرشاد إلى الطريق القويم ، أولئك الذين ينزلقون بسهولة إلى لعب دور رجل الشرطة ، أو يحكمون ويعاقبون وينفذون الحكم دون أن يعيروا آذانًا صاغية لأحد .

وما يحتاجه الآسيويون ليس نظرية عقائدية ولا فرضية سهلة ، بأننا لا نستطيع أن نفكر لأنفسنا . ربما نكون قد اشترينا زيت الثعبان ذات مرة ، ولكننا تقدمنا وأدركنا قليلاً من الحداثة الآن ، لقد تدفقت مياه غزيرة تحت جسر التاريخ ونقول لأولئك السياسيين ولكل المنظمات غير الحكومية التى تعرف كل شىء ! والذين مازالوا يريدون بيع زيت الثعبان لنا : خذوا بعضًا منه لأنفسكم فربما كنتم أكثر حاجة إليه منا ! ونود أن نشير هنا إلى أن قهر الدول للدول لا يقل

سوءًا عن قهر الحكومات لمواطنيها ، ولا يمكنك إلقاء موعظة دون ممارسة للأخرى .

دعونى أتحول الآن بندائى إلى المشروع التجارى الأمريكى أن يتجه غربًا ، وأن تجيئوا بأعداد كبيرة إلى ما يسميه الكثير منكم والبعض منا بالشرق الأقصى ، الشرق الأقصى بالنسبة لأمريكا هو أوروبا بالفعل ، حتى آسيا الصغرى ! إن العالم مستدير كما أكدت ذلك صور الأقمار الصناعية وأى مكان يمكن أن يكون النقطة المركزية المرجعية . وبالنسبة لأمريكا ؛ تعتبر آسيا الغرب ، وحتى عندما غادرتم منازلكم المريحة الدافئة قبل قرن ونصف القرن ، وبنيتم الغرب الأمريكى ، عليكم الآن أن تفعلوا الشيء نفسه ولكن المغامرة أبعد هذه المرة ؛ فهى عبر المحيط الهادئ ؛ لتساعدوا فى بناء آسيا . لستم مضطرين للتعامل مع النهابين المحليين ، وقطاع الطرق من السكان الأصليين وتفقدوا فروة رءوسكم . سنرحب بكم ؛ وستربحون أكثر بكثير مما ربحتم عندما كنتم روادًا فى فتح غربكم الشرس .

وفى القرن الحادى والعشرين لن تتمكن أى شركة كبرى من أن تلعب دورًا عالميًا إن لم تنتعش من هذا الجزء الذى نعيش فيه من العالم ، بل ويوثقون علاقتهم معنا ! إن سكان وأراضى آسيا-الپاسيفيك يمثلون ٦٠٪ من العالم ، وعلى هذا الكوكب وفى هذا الزمن فإن ٦٠٪ مما ينتج من سلع وخدمات من العالم يأتى من آسيا والپاسيفيك ، وخلال العقود القادمة فإن مركز الجذب الاقتصادى لابد من أن ينتقل غربًا كما حدث فى تاريخ أمريكا قبل مائة وخمسين عامًا .

وأؤكد لكم أن بعضنا فى آسيا لا يرغبون فى تواجدكم ولا يريدونكم وهم غير مستعدين لضمان انتعاشكم ، واستفادتكم وحدكم من مشاريعكم من ديناميكيتنا الهائلة ، ونحن بالتأكيد نريد نصيبًا من هذه الفائدة . لنترك هذا جانبًا ، دعونى أقل لكم : إننا فى معظم آسيا والپاسيفيك وبالتأكيد فى ماليزيا ومن صميم فؤادنا نرحب بكم ؛ فنحن نحتاج إليكم بوصفكم شركاء فى البناء لرفاهيتنا المشتركة ، فلو مددتم يد المساعدة إلينا لكى نزدهر فإنكم فى الوقت نفسه تبنون سوقًا عظيمًا لبضائعكم وخبراتكم ؛ لأنه مهما حاولنا ستظل

هناك دائمًا أشياء سنحتاج إليها منكم ! ومهما كانت رغبتنا فى أن نكون مستقلين فلا يمكن إلا أن يكون الاعتماد متبادل بيننا ، فلا يمكننا أن نبيع لكم فقط ، يجب أن نشترى أيضًا طالما نحن مدركون أنكم حتمًا ستبيعون ؛ حتى تتمكنوا من شراء ما نريد أن نبيعه . إننا نعرف ذلك كما تعرفونه .

إن الآسيويين والقيم الآسيوية ليسوا متطابقين ؛ فنحن نختلف قليلاً ، عمومًا نحن مهذبون ومجاملون ، ولكن أحيانًا لا نكون هكذا فلا تندهشوا إذا ما أصبح المهذب - عرفًا - صريحًا ، وأن الصريح - علنًا - عادة ما يصبح لطيفًا ومجاملاً ، ولو سمحتم لى أود أن أؤيد وأدعو لمشاريع مشتركة بين آسيا وأمريكا وآخرين ، لكى نصنع كومنولث كونى واحد ، وكما ترون فإننا نؤمن بالفعل بالعلاقات الودية الجيدة لصالح البشرية .

لم يكن الكومنولث الديمقراطى الفريد ممكنًا فى عصر الاستعمار العظيم ؛ لأن العالم كان مقسمًا إلى كتل اقتصادية مقتصرة على نفسها وكل كتلة موجهة تجاه مركزها فى الكون الإمبريالى ، أما فى عصرنا هذا فقد أصبح ذلك ممكنًا ولأول مرة فى تاريخ البشرية . تخيلوا ؛ النتائج الإيجابية لهذا الواقع الاقتصادى الجديد ؛ سيكون هو المحرك والآلية التى ستحول التركيبة الاستراتيجية السياسية والنفسية للعالم ، وحقًا سيكون لدينا عالم جديد .

وفى حوار سابق اقترحت أن نؤثر حلول : اربح - اربح - اربح . أقول إنه ينبغى علينا أن ندفن وللأبد انعكاسات مفهوم : «افقر جارك» والتى كانت شيئًا طبيعيًا فى الماضى ، دعونا نضع مكانها دوافع : «اعمل على ازدهار جارك» والتى تهدف إلى ضمان ازدهار جيراننا وجيران جيراننا ؛ البعيدين والقريبين . هل من الخطأ أن يزدهر كل فرد؟ أنا متأكد أننا لاحظنا أن الشعب المزدهر لديه الوقت للعمل على توفير العيش الكريم للبشر ؛ وحرياتهم وحقوقهم ، ألن يكون الكومنولث الكرنى ، حيث تكون الثروة عامة بحق ألن يكون أفضل من ألا تكون الثروة عامة لمعظم دول العالم؟

لقد كان هناك كلام كثير بأن القرن الحادى والعشرين سيكون القرن الآسيوى . اسمحوا لى أن أختلف مع هذا ؛ فبرغم أننى أعتقد أن القرن الحادى والعشرين لن يكون القرن الآسيوى بنفس الأسلوب الذى كان به القرن التاسع عشر هو القرن الأوروبى أو كما كان معظم القرن العشرين ، فإنه عندما يتجاوز العالم المصالح الضيقة للأمم والقارات ، فسوف يكون هذا أفضل ليس لبقية العالم فقط إنما لآسيا أيضًا .

ولن يتحقق قرنُ العالم ، لو أننا جميعًا تحدثنا عن القرن الآسيوى ، لابد أن نقلل من أهمية موضوع القرن الآسيوى هذا ، ويجب أن نزيد من أهمية : أن القرن الحادى والعشرين هو قرن العالم ؛ القرن الذى يتجمع فيه العالم بأسره لبناء رفاهية أعظم ليس فقط للآسيويين وإنما لكل البشرية .

ولابد علينا نحن ، الآسيويين ، من أن نتجاوز دغدغة الذات هذه التى يبدو أن الكثيرين فى حاجة إليها ، وفكرة أن الآسيويين هم الرواد على بقية العالم ، ربما تبدو فكرة جذابة ومشبعة للذات الآسيوية ، ولكن دعونا لا نغتر ولا نستكين لهذا الحلم الأنوى ! إلا أننا وبالتأكيد نريد أن يكون لآسيا رأى أكبر فى صناعة القرن الحادى والعشرين ، ولن يمكننا أن يكون لنا رأىٌ أكثر تأثيرًا لو فسدت إدارتنا من خلال انعدام المسئولية ديمقراطيًا ، وإذا حدثت مواجهات غير ضرورية على مسائل تافهة أو فشلنا فى الإمساك بالزمن . فكيف يمكن أن يكون رأينا مسموعًا لو لم نستطع حزم رأينا على ما نقول؟

ولو كنا نريد أن يتحقق احترام العالم لنا ؛ فإننا فى حاجة فعلاً لأداء أفضل فى اتجاه التحديث ، يجب أن نكون أكثر نجاحًا فى ابتكار أنظمة أكثر ديمقراطية للحكم ، ويجب أن نتقدم بخطى أسرع على جبهة أعرض ، فى كفاحنا ، من أجل تأكيد كرامة الإنسان وكرامة كل مواطنينا وحقوقهم ومسئولياتهم .

لقد تمكنا من تحقيق أكبر تقدم للبشرية فى التاريخ الإنسانى فى الجيل السابق ؛ لأننا

تمكنا من التعرف على ما يدخل فى حساب البراجماتية ، وليس الحماس الأيديولوجى ؛ وأن رفاهية شعبنا يجب أن يكون لها الأسبقية والأولوية فوق كل اعتبارات ذاتية للقلة ، وأن العيش الكريم لن يأتى إلا من النمو الاقتصادى وليس بالغلو فى الوطنية أو حتى الانتماء القارى .

إن الشرق آسيويين والأمريكيين يقتسمون محيطًا مشتركًا ، الباسيفيكى والذى يعنى : محيط السلام ، ربما يكون قد باعد المسافة بيننا فى الماضى كما لم يباعد المحيط الأطلنطى بين أوروبا وأمريكا . ولكن هذه المسافة لم تعد عامل تقسيم كما كانت ، حيث كانت المسافة تستغرق أشهرًا لعبور المحيط ، أما اليوم فتستغرق بضع ساعات ، ويمكننا أن نتحدث ونرى بعضنا كما لو لم يكن هناك فجوة بيننا .

حقيقى أن معظم الحروب نشبت بين الجيران الأقرباء ، ولكن الجيران أدركوا بعد ذلك أنهم الحلفاء الأقوياء والدائمون ، ألا يمكن أن نكون أصدقاء نحن الآسيويين والأمريكيين؟ ألا يمكن أن نكون أكثر تسامحًا لهنات وسقطات كل منا للآخر؟ توقفوا عن المقارنة ؛ لأن لا أحد منا كاملاً ، كما أننا لسنا معيبين تمامًا .

خلال هذا الحوار الباسفيكى ستركزون بشكل بناء على ثلاثة موضوعات . التحرك للأمام على الجبهة الاقتصادية . والتحرك للأمام على الجبهة الثقافية الحضارية . ولكى نتحرك للأمام معًا على أى جبهة فإننا نحتاج إلى التفاهم والتسامح ، وإلا فإننا سنتحرك ضد بعضنا البعض ، ويمكن أن يحدث صدام مدمر فى النهاية .

قبل ألف عام مضت تقريبًا ، عندما كان العالم هو أوروبا ، لم يتحرك نحو نهاية الألفية الأولى وبداية الألفية الثانية ، كان هناك شبه فزع وإحباط تام ، وكان ذلك بسبب رجال الدين المسيحى الذين كانوا يعتقدون أن العالم سوف ينتهى تمامًا بعد ألف سنة بالضبط من ميلاد المسيح ، توقفت التنمية الاقتصادية وخمدت كل الجهود البشرية ، فما الفائدة من

عمل أى شىء إيجابى إذا كان العالم مقبلاً على نهايته المباغتة؟ !

اليوم وبعد ألف عام نحن نعرف أكثر وأفضل . يجب علينا أن نبحث عن بداية جديدة ، دعوا إدراكنا العام ينتشر ويعم ، دعونا نبن بالإصرار نفسه الذى نهدم به ! لو تمكنت آسيا وأمريكا أن يكونا شريكين فى مشاريع مشتركة من أجل ازدهار كلا الطرفين سيكون ذلك بالتأكيد هو العامل المساعد على إقامة كومنولث كونى واحد فى قرن ليس آسيويًا ولا أمريكيًا ولا أوروبيًا ولا حتى أفريقيًا ، ولكن قرن العالم . قد يكون ذلك شيئًا مثاليًا ، لكن الإنسان الذى يسعى من أجل هدف أو مثال ، لابد من أن يحقق شيئًا قريبًا من ذلك .

١١- الحاجة إلى إجراء إصلاحات في الأمم المتحدة *

أنا سعيد بقبول تعيين ماليزى (سرى رازالى إسماعيل) رئيسًا للدورة الحادية والخمسين للجمعية العامة للأمم المتحدة ، فهذه هى المرة الأولى بالنسبة لماليزيا ؛ ونحن شاكرون لكل الدول الأعضاء لدعمهم ؛ خاصة أعضاء المجموعة الآسيوية التى سارعت بترشيح ماليزيا فى وقت مبكر .

وأظن أن هذا الاختيار له علاقة بجهود ماليزيا واهتمامها بالمشاركة مع الأمم المتحدة والعالم فى غضون ثلاث سنوات من استقلال ماليزيا شاركنا فى عمليات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة فى الكونغو ، واليوم نشارك فى حفظ السلام فى البوسنة والهرسك ، ولعل ماليزيا هى الدولة النامية الوحيدة التى تشارك فى قوات حفظ السلام التى تقودها منظمة حلف شمال الأطلنطى ، وقد سددت كافة تكاليف مشاركتها ، وستواصل ماليزيا الإسهام فى الأنشطة الدولية سواء كانت تحت رعاية الأمم المتحدة أم خلافه وهى تجمع بين إنكار الذات والمصلحة الذاتية المستنيرة .

وفى مثل هذا الوقت من العام الماضى كانت هناك احتفالات كبيرة بمناسبة بلوغ الأمم المتحدة عامها الخمسين ، ووسط الاحتفالات بإنجازات الأمم المتحدة المشكورة والتى نالت استحسان العالم ، كانت هناك اهتمامات وتساؤلات جادة عبرت عن مدى تأثير وفاعلية هذه المنظمة والحاجة إلى إصلاحات ديمقراطية حتى تستطيع الأمم المتحدة أن تفى بالتزاماتها على نحو أفضل ، وكذلك تحقيق أغراضها ومبادئها التى وردت فى ميثاقها .

* ألقى هذا الخطاب فى الدورة الحادية والخمسين للجمعية العامة للأمم المتحدة ، فى نيويورك- الولايات المتحدة ، فى ٢٧ سبتمبر عام ١٩٩٦م .

لقد حلت الذكرى الخمسون ومضت وبالرغم من كل المظاهر التى أحاطت بالاحتفالات فإن القليل جدًا هو الذى تحقق .

فالمنظمة نفسها ظلت بعيدة ونائية عن آمال شعوب «الأمم المتحدة» والتى من المفترض أن تحميها وتعلى من شأنها . ونأمل أن يتم حل مأساة البوسنة والهرسك بمساعدة الجهود الدولية ، وتبقى هناك آمال فلسطين وطموحاتها التى تدهورت وانهارت على يد الحكومة الإسرائيلية الجديدة ، وللأسف بمساندة بعض القوى الغربية ! وها هم يرجعون من حيث بدأوا إلى مفاوضات مضنية ، وفى هذه اللحظة اتخذت إسرائيل قرارًا مندفعًا لا يعرض عملية السلام إلى مزيد من الخطر وحسب ، بل يشعل غضب الدول الإسلامية والمجتمع الإسلامى لو دنست قداسة المسجد الأقصى .

وفى القارة الأفريقية ؛ ما زالت الصومال ورواندا وليبيريا على حافة الهاوية ، بينما تنتظر بوروندى الأمم المتحدة ومبادرات إقليمية لتجنب حدوث الكارثة ، كذلك هناك بلاد مثل أفغانستان ؛ من ضحايا الحرب الباردة والتى أهملتها وتركتها القوى الكبرى فى حاجة إلى المساعدة لإعادة البناء والتغلب على الدمار الذى خلفته الحرب ، وما هو مصير دولة صغيرة مثل شيشينيا وشعبها الباسل الذى يواجه الهجوم الضارى لروسيا القوية؟

وبينما تتحول بعض الدول النامية إلى دول مهمشة وشظايا دول ، تستمر عملية نمو الدول الكبرى وتستمر فوائد هذه الدول فى الزيادة ، يساعدهم فى ذلك تحكمهم فى مجلس الأمن ، واحتكارهم للقوة النووية ، ومتانة اقتصادهم .

ويرى المرء الكثير من الأساليب الملتوية وازدواجية المعايير والانتقائية ، ذلك لأن إملاءات السياسة الداخلية تتحكم فى العدالة والاتجاهات الإنسانية وفى الشئون الدولية . والالتزام بالتعددية مسألة مؤقتة لدرجة أن الحاجات العامة غالبًا ما يضحى بها فى الأمم المتحدة .

والآن وبينما تبدأ الأمم المتحدة جلستها الحادية والخمسين ، فإننى مرة أخرى أحث المجتمع الدولى على أن يعمل بشكل جماعى من أجل تغيير جوهرى وأساسى ، يعكس مزيدا من المشاركة العادلة للقوى السياسية والاقتصادية ؛ هذه الدعوى للإصلاح تصبح أكثر إلحاحًا عندما نضع فى الاعتبار أن الافتراضات التى تدار بها العلاقات الدولية اليوم هى التى تبقى على نظام جائر .

إن إساءة استخدام القوة بشكل منتظم من قبل القوى الكبرى مازال مستمراً ؛ فهم يطبقون عقوبات انتقائية ، ويمارسون ازدواجية المعايير على العالم النامى من أجل تعزيز مصالحهم الوطنية الضيقة . ومن الواضح أن إهمال التعددية بكل مزاياها مثل الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة ، مازال الشمال مستمراً فى إحكام قبضته على كل مجالات الأنشطة الدولية والسياسة والتجارة الدولية والتنمية والبيئة ووسائل الإعلام وهذا قليل من كثير !

وحكم النخبة الذى تمارسه الدول الكبرى عادة ما يستتر تحت عباءة العولمة أو من أجل الصالح العام للأمم ! ومع ذلك فإن ذلك اختبار سريع وخاطف لهذا النوع من العولمة الذى يكشف عن مدى ادعائه وزيفه هذا إن لم يكن نفاقًا بيِّنًا ، فعلى سبيل المثال : تحت ادعاء حماية «الأمن والسلام الدوليين» تحتفظ الدول المنتجة للأسلحة النووية بحقها فى تدمير أو التهديد بتدمير كل أشكال الحياة على هذا الكوكب ، ومع ذلك فهذه الدول تنكر على الدول الأخرى حق استخدام الأسلحة ، حتى التقليدى فيها للدفاع عن النفس !

وتأسف ماليزيا بعمق على نقص الإجماع على التصديق على اتفاقية الحظر الشامل لإجراء التجارب النووية ولكنها ترحب فى الوقت نفسه بتبنى الأمم المتحدة اللاحق له فى دورة الجمعية العامة الخمسين . ونحن قلقون من تلك الطموحات النووية فى إقليمنا ومن إسرائيل ، كما أن رفضَ الدول المنتجة للأسلحة النووية الاتفاق على جدول زمنى لنزع السلاح النووى يعتبر مسئولاً إلى حد كبير عن هذا الموقف ، ومسئولاً كذلك عن التصدع

الخطير فى معاهدة حظر التجارب النووية ، وشجعت محكمة العدل الدولية ماليزيا برأيها الاستشارى حول شرعية التهديد أو استعمال الأسلحة النووية . لابد من بذل جهود جادة نحو عملية التعجيل بنزع الأسلحة النووية ؛ حتى يكون هناك معنى لما توصلت إليه محكمة العدل الدولية بما فى ذلك الاتفاق الأخير الذى تم التوصل إليه فى الجلسة الخاصة التى عقدتها الجمعية العامة ، وخُصِّصَتْ لنزع الأسلحة النووية .

وبينما تدافع هذه القوى الكبرى عن السلام وتدين سباق التسلح من قبل الآخرين فإن صناعاتهم تطور وتزيد مبيعات تكنولوجيا الأسلحة الدفاعية وأسلحة الموت . ومثلهم مثل تاجر المخدرات الذى يزود ضحاياه من المدمنين الذين لا حول لهم ولا قوة بالمخدرات . إن صناعات الأسلحة الغربية توقع الدول الفقيرة فى مستنقع الفقر وانعدام الأمن وتبديد الموارد وكل المهارات الإنسانية الحيوية .

ولعل حكم الصفوة السياسية يأتى بشكل طبيعى من مثل تلك الدول الصناعية القوية التى كان الكثير منها دولاً استعمارية من قبل . . ومفتاح أولوياتهم للأچندة الكونية تجدونه فى البيان المشترك الأخير الصادر عن القمة الاقتصادية لمجموعة الدول الصناعية السبع الكبرى . إن إصلاح الأمم المتحدة وخصوصًا مجلس الأمن هو من الأمور العاجلة والمهمة ، وسيفسح الطريق أمام تفوق عولمة اقتصاد العالم ، وهكذا يظل مجلس الأمن آلة غير فعالة وقاطعة فى السياسات الخارجية للأعضاء دائمى العضوية !

فى إطار العالم المعولم تستخدم كثيرًا عبارات ومصطلحات مثل : الاعتماد المتبادل ، والمصالح المشتركة أما التعددية فقد تم إقصاؤها وتنحيتها ، إلا أنها أساس العلاقات الدولية ، والتعاون الذى ترمز إليه الأمم المتحدة . من الآن فصاعدًا سوف تتولى العولمة زمام الأمور وتفقد الأمم سيادتها .

ضعوا فى اعتباركم الأزمة المالية الحالية التى تواجه هذه المنظمة ، إن الأمم المتحدة على

حافة الإفلاس بعد أن أصبحت رهينة للدولة المانحة ؛ أغنى دولة فى العالم والتى رفضت أن تفى بالتزاماتها ودفع الأموال المقررة قانونًا بنسبة مشاركتها ، ومع ذلك تصر على بقاء هيمنتها على الإدارة الكونية ! !

وكان الحل الذى ارتأته القوى الكبرى لكى تخرج الأمم المتحدة من حالة الركود التى تمر بها ؛ هو الكلام عن إعادة تفعيل المنظمة وكأنهم يشتركون فى الحد من نشاطها . وبينما يكون وضع نهاية لعدم كفاءة البيروقراطية وإهدار مواردها فيما لا طائل من ورائه هما الأجدر والأهم بالتصدى والإصلاح ، إلا أننا لابد من أن نعى تمامًا أن الأمم المتحدة ليست مؤسسة أو كيانًا تجاريًا ، والتركيز المبالغ فيه على مسائل الإدارة الداخلية للأمم المتحدة من شأنه أن يؤدى إلى انحرافها عن مسئوليتها الكبرى تجاه العالم . وبينما تنتقد ماليزيا إدارة وقيادة الأمم المتحدة ، إلاَّ أنها لا تملك إلاَّ أن تأسف لميل الدول الكبرى لتحديد مهام جسام ومعقدة للمنظمة ، بل ومستحيلة فى بعض الأحيان وذلك دون تفويض واضح أو سلطة كافية أو موارد ! كيف تتعهد الأمم المتحدة بعمليات حفظ السلام دون سلطة أو وسائل تمكنها من حفظ السلام؟ !

ونرى أن عدم التساوى فى تقاسم القوى فى الأمم المتحدة ؛ أمر لا يمكن التغاضى عنه أو التسامح فيه ، كما نشهد بانزعاج تفشى الاتجاهات التى تفت من عضد المنظمة وتضعفها أكثر مما هى عليه ! وبالفعل فإن مركز الثقل لكل القرارات الاقتصادية التى تؤثر على الدول النامية أصبح مرتبطًا بمصالح مؤسسات بريتون وودز غير الديمقراطية ومنظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولى وبالطبع فهو فى يد مجموعة السبع التى تقود الدول الصناعية .

ويتطلب تقوية التعددية ودعمها عمليات إصلاح فى مؤسسات بريتون وودز التى تسيطر على ساحة التنمية ، هذه المؤسسات تجاوزت صلاحيتها وقراراتها الاقتصادية ؛ قراراتها غير ديمقراطية وغير شفافة ، وبالرغم من تفويضها المحدد بتسهيل عمليات التنمية ، وضبط النظام النقدى الدولى ، إلا أن المؤسسات اعتادت على تنظيم وتأديب دول العالم

الثالث ، والقيام بدور محصل الديون للشمال الغنى ، ومن المفيد أن نذكر أن البنك الدولى قد قام بتحصيل مبلغ ٢, ٧بليون دولار أمريكى فى عام ١٩٩٥م ، سدادَ دينٍ أكثر وأزيد مما وزعه البنك مساعدةً للدول الفقيرة المدينة وبلغت قيمة الفائدة تقريبًا ٥ر١ مليون دولار أمريكى . وأصبح صندوق النقد الدولى الآن منفذًا لإملاءات مقرضى السوق ويقوم بدور الوكالة التى تحدد سعر الصرف عالميًا .

إن غالبية الدول النامية الفقيرة مثقلة بديون كبيرة ؛ تمنعها من الحصول على نصيب من ازدهار العالم ونموه ، وخدمات الدين بالموازين الجارية لا يمكن تحملها وبالتالى لا تستطيع الدول الدائنة أن تفعل الشيء الكثير لتخفيف بؤس وفقر الدول المدينة . إن الأرقام المخيفة تتحدث عن نفسها ! فإن ما ينفق على خدمة الديون أكثر مما ينفق على تمويل برامج أساسى للرعاية الصحية والتعليم والإغاثة الإنسانية !

إن تَخفُّفَ معظم الدول الصناعية من التزاماتها بالمساعدة المتفق عليها يمثل نقطة تحول فى تطوير التعاون الدولى من أجل التنمية ، فقد تخلت الدول الغنية عن التزاماتها الجادة وتعهداتها بشكل سافر . إن تراجع الدول الغنية فى ضماناتها التى قطعتها على نفسها لاستكمال النقص فى مساعدات التنمية العالمية وإعلانها عن عدم رغبتها فى دفع المتأخرات السابقة بقرار من جانب واحد لتخفيض مساهماتهم حدا بالمانحين الآخرين أن يحذوا حذوهم .

والآن ، أصبح مفهوم الكونية مرتبطًا ارتباطًا حميمًا بالتجارة الدولية ، ومن الأهمية بمكان أن ندرس بعين ناقدة واقعيات ما يسمى بالتجارة الحرة . إن التاريخ الطويل المؤلم لمفاوضات الأورجواى يجب أن يعطينا تحذيرات مسبقة عن منظمة التجارة العالمية ، ورغم أنها أسست بوصفها منظمة متعددة القواعد لتنظيم التجارة الدولية إلا أنها أصبحت مسئولة أمام أغنى القوى الاقتصادية . ومثل مؤسسات بريتون وودز ، وتظل منظمة التجارة العالمية بعيدة عن أى علاقة بالمسئولية أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، الأكثر ديمقراطية .

وخلال جولة أورجواى اكتشفت الدول النامية أنه بدلاً من التفاوض من خلال قواعد دولية على تجارة السلع المصنعة ، أن وسعت الدول الغنية جدول الأعمال وأقحمت التحررية فى المناطق الاقتصادية ، حيث تتوفر لهم ميزة حقيقية وخاصة فى الخدمات التمويلية والاستثمارات .

ورغم أن بعض دول الجنوب استفادت من تحرير التجارة (كانت ماليزيا واحدة من هذه الدول) إلا أن اتفاقية الجات تنطوى على تهديدات جديدة للأنظمة الاقتصادية الناشئة والنامية ، ولم يكن على هذه الدول الفقيرة فى الجنوب أن تكافح فقط لكى تفى بالاحتياجات الأساسية لشعوبها ، بل إنهم يرغمون على تعديل سياساتهم الاقتصادية للوفاء بالتزاماتهم الجديدة وفق متطلبات الجات ؛ لكى تتمكن الشركات الشمالية من اختراق أسواقها والتحكم فيها ، ولن تتمكن الدول الفقيرة من الاحتفاظ بأسواقها لنفسها حتى إذا لم يتوفر لها القدرة على اختراق أسواق الأغنياء .

إن المنافسة الشريفة وأرض النزال المستوية هى للأغنياء فقط ! ! وعلى سبيل المثال ، فإن محاولاتهم ربط البيئة ومعايير العمل بالتجارة فى السلع المصنعة ، هى محاولة واضحة لحرمان الدول النامية من الميزة التنافسية الهزيلة ، إن العلاقة بين التجارة ومعايير العمل قد ظهرت ليس من أجل الاهتمام بالعمال ورعايتهم فى الدول الفقيرة ، وإنما باعتبارها تحركات حماية تهدف إلى التصدى للصادرات ذات الأسعار التنافسية من الجنوب .

ولكى نتفق على هذا التفسير غير المنصف لقواعد التجارة التعددية ، نجد أنه عندما نأتى إلى نقل التكنولوچيا ، تتخذ دول الشمال موقفًا معاديًا للتحرر يحتم على كل الدول الأعضاء فى منظمة التجارة العالمية بل ويلزمها بسن مجموعة قوانين محلية لحماية حقوق الملكية الفكرية ، ولأن معظم براءات الاختراعات مملوكة للشمال فإن ذلك يعنى بالفعل حماية قانونية لاحتكارهم التكنولوچيا ، وتقليص رهيب لحق الدول النامية فى الوصول لتكنولوچيا جديدة .

ولذلك يبدو أن تفسير دول الشمال للتجارة الحرة والتحررية ما هى إلا شعارات تعنى فى الواقع : تحررية عندما تفيد الشمال ، ولكنها تعنى : وقائية ، إذا ما كانت تقف فى طريق الجنوب ، وهكذا نجد أنه عندما يتعلق الأمر بالبضائع ورأس المال فإنه يسمح لها ، بل ويتم تشجيعها بأن تتحرك حول الكرة الأرضية أما بالنسبة للعلم والتكنولوچيا فلا سماح .

وحتى عندما طُلِب منا الإذعان لقواعد الجات ومنظمة التجارة العالمية وجدنا إحدى الدول تشوه سمعة منظمة التجارة العالمية وتثير كثيراً من الصخب حولها من خلال سَن قوانين خارجية يجب أن تخضع لها جميع الدول وشركاتها وإلا فسيعانون من آلام الحرمان من العضوية .

كما فشلت اتفاقية الجات أيضًا فى أن تحمى الموارد الچينية للجنوب بينما تسمح للموارد المعدلة چينيًا بأن تحصل على براءة الاختراع ، من خلال سرقة موارد چينية تمكنت بعض الشركات الغربية العاملة فى التكنولوچيا البيولوچية التحويلية من تحقيق أرباح هائلة بإنتاج مواد معالجة چينيًا لها حق براءة الاختراع من المواد المسروقة نفسها . فإلى أى عمق غرقنا فى هذا السوق الكونى ، عندما يكون من المستحيل حماية هبة الطبيعة للفقراء بينما يصبح تحويلها وتعديلها على أيدى الأغنياء ملكية خاصة !!

وهناك بالطبع الكثير من الرابحين ومن الخاسرين فى عالم منظمة التجارة العالمية ولكننا قلقون ؛ لأن الخاسرين الرئيسيين مرة أخرى سيكونون أفقر الدول وأكثرها تهميشًا ؛ فلقد استفاد عدد صغير من الدول النامية مثل : ماليزيا . ولكن دعونى أبين لكم أن مكاسبنا كانت من خلال نمو اقتصادى قوى ومن طاقة إنتاجية ومن إبداع شعبنا وثمار كدنا وعملنا الشاق ، وخشية النسيان فقد أفاد ازدهارنا الجديد الدولة المتقدمة ، فإن منتجاتنا ذات الأسعار التنافسية شاركت فى خفض التضخم فى الدول الغنية ، وازدهارنا شارك فى توسيع الأسواق أمام بضائعها ، وساعدنا فى خلق وظائف خفضت بدورها معدلات البطالة عندهم .

لقد أصبح مصطلح «العولمة» هو العبارة الطنانة فى أيامنا هذه ؛ فقد ورد فى البيان المشترك للدول الصناعية السبع الكبرى أن العولمة عرفت بأنها : «مصدر الأمل للمستقبل والمسئولة عن توسيع الثروة والرفاهية فى العالم» إلا أن البعض يقول : إن العولمة بسعيها إلى تحطيم الحواجز وجعل دول العالم تدخل فى كيان اقتصادى واحد ، قد أدت إلى أفول التعددية أو محاولات لبس قناع للتغطية ، وقد وصف الأغنياء العولمة على أنها : «شراكة كونية جديدة من أجل التنمية» .

وإذا كان سلوك الدول الغنية الحالى يدل على شيء ، فإنه يعنى ببساطة إزالة حدود البلاد ؛ حتى يتمكن أصحاب رؤوس الأموال وأصحاب البضائع من السيطرة على الأسواق ، وسوف تتذكر مستعمرات الإمبراطورية البريطانية السابقة «التفضيل الإمبريالى» عندما كانت هذه المستعمرات سوقًا مقصورة على القوة الكبرى ، والعولمة قد تعنى هذا بالضبط ، فيما عدا أن السوق العالمية ستكون للدول الغنية ، أما الربط بمسائل غير تجارية سيمنع الدول الفقيرة من تحدى الأغنياء ، وبالطريقة نفسها عندما كان غير مسموح للمستعمرات بأن تصنع لنفسها .

إننا نعيش حقًا فى عالم شرس وظالم ، حيث التطورات المذهلة فى العلوم والتكنولوجيا والقاعدة المعرفية المتطورة بشكل متزايد ، لا تقارن مع قدرة الحكومات لتنظيم قواها من أجل التغلب على الظلم الاقتصادى والاجتماعى فى بلادها . فالحقائق والأرقام موثقة جيدًا ، ومعروفة للجميع ولكن يجدر بنا أن نكرر هذا الكلام لعل ضمائرنا تتحرك ، هذا إذا كان ما زال لدينا ضمائر !

ما القيم العالمية فى هذا العالم المعولم ، إذا كانت الأعداد المتزايدة من الناس فى الشمال والجنوب يعيشون فى فقر مدقع؟ تخيلوا ٣ر١ بليون نسمة ، خمس الجنس البشرى ، يفتقدون إلى الضروريات الأساسية للحياة مثل : الطعام وماء الشرب النقى بينما يفتك الجوع القاتل والمرض بـ ٣٥,٠٠٠ طفل فى جميع أنحاء العالم يوميًا ! ويوضح تقرير التنمية

الإنسانية الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٩٦م ، أنه خلال الأربعين سنة الأخيرة شهد أغنى ٢٠٪ من الناس تضاعف التفاوت بينهم وبين أفقر ٢٠٪ .

هل كانوا يتوقعون منا أن نعتقد فى صدق وإخلاص الدول الغنية عندما يتحدثون عن شراكة كونية جديدة ، وعن «إنجاز التنمية المستدامة» بينما تقول الحقائق اليوم : إن لدينا أكثر من ٢٠ مليون لاجئ بيئى بالإضافة إلى رقم مماثل من اللاجئين التقليديين ! فلماذا يجب على الدول النامية أن تقبل العبارات الملتوية للتنمية الشمالية عندما تعنى «مساعدة التنمية» أن يصل صافى تدفق الثروة من الدول الفقيرة للدول الغنية إلى ٤٠٠ بليون دولار أمريكى على الأقل فى السنة ، وعندما نضع أيضًا فى الاعتبار شروط التجارة وسعر التحويل وخدمات الدين وسحب العقول المستنيرة من البلاد الفقيرة للبلاد الغنية .

إن الخوض فى أعباء هذا العالم الذى تمزقه الصراعات مأزق حرج يواجه المجتمع الدولى اليوم ، وهو من علامات الفشل فى التعامل مع هذه القضايا المهمة . وبدلاً من ذلك نشهد تخلى القوى الكبرى عن مسئولياتها التى تصاحب الحقوق والمزايا التى تتمتع بها . علينا أن نحدد شكل العالم والمجتمع الذى نريد أن نعيش فيه وما يجب أن يبنى عليه هذا العالم من قيم عالمية حقيقية .

وبينما نقترب من الألفية الثالثة ، حيث غطى صخب تفوق القوى المتعدية للقوميات على تعريف السيادة الوطنية لابد من أن نتسائل بجدية : لماذا لا يزال مسموحًا للأقلية القوية أن تفلس وتجبر الأغلبية الفقيرة على مواجهة نهايتها الاقتصادية والسياسية الضيقة؟ لم يعد الفقراء بأى حال مستقلين ؛ لقد فقدوا بالفعل السيطرة على عملتهم وهاهم يفقدون حدودهم أيضًا .

تعرف حرية الصحافة على أنها مبدأ ديمقراطى أساسى ، ولكن التحكم فى وسائل الإعلام من قِبَلِ حفنة من الشركات والمؤسسات الغربية جعل من هذا المبدأ شيئًا يدعو

للسخرية ! وبدعوى أن الصحافة ؛ «نوافذ على العالم» تمكنت وسائل الإعلام الغربية المسخرة والمراقبة من تشويه التقارير الصحفية لكى يضعوا أى شيء يحدث فى الجنوب تحت أسوأ ضوء ممكن ، مع تجاهل أى شيء إيجابى فى الدول النامية

إن نمو وتأثير الإلكترونيات والأقمار الصناعية وتكنولوچيا المعلومات أمر مذهل إلا أن تأثيرها يمثل واحدًا من أكبر التحديات السياسية والأخلاقية فى عصرنا ، عندما تحرف وتشوه وعينا الاجتماعى . لقد أصبحت النخبة فى الشمال والجنوب عميان عن شرور الواقع . الناس والأحداث تنتزع من سياقها ولذا أصبحنا أقل قدرة على إدراك كل ما هو إنسانى وإدراك معنى المساواة فى الحقوق بين الناس فى العالم ، لم تعد صور الفقر وعدم المساواه تقابل بغضب أخلاقى ، بل أصبحت من حقائق الحياة البسيطة ، وهكذا تبدأ عملية تفريغ الإنسانية من محتواها والانفصال عن بقية المجتمع الإنسانى .

وبالرغم من أن عصر المعلومات سيتيح وسائل رخيصة وسهلة للحصول على المعارف والتعليم وسيسهل الأعمال التجارية فى جميع أنحاء العالم ، إلا أن سوء الاستخدام الذى يحدث بالفعل سوف يؤثر على القيم الأخلاقية فى العالم ؛ فالكتب البذيئة اللاأخلاقية والعنف المبالغ فيه وغير الضرورى الذى ينشره المجرمون فى الشمال لا يقل تلوثًا عن انبعاثات ثانى أكسيد الكربون ، ولا يقل خطورة عن ترويج المخدرات ، وإذا كانت قوة عظمى ما تستطيع أن تطبق قوانينها على مواطنين من دولة أخرى ، بسبب تهريب المخدرات ، فلماذا لا تستطيع هذه الدول اتخاذ إجراء قانونى ضد من يروج للإباحية الجنسية وفق قانون الدولة المتضررة؟ لماذا لا توجد قوانين دولية ومحاكم دولية لمعاقبة أولئك الذين ينشرون القاذورات ويحرضون على العنف والكراهية العنصرية؟ قبل أن يغوص العالم بأكمله أعمق من ذلك فى مستنقع الانحلال الأخلاقى يجب على المجتمع الدولى أن يتخذ إجراءً وموقفًا حازمًا ، لابد من إيقاف الاستخدام الأخرق لشبكة الإنترنت . لابد من أن نكسر احتكار الغرب لوسائل الإعلام الإلكترونية . وكما هو الحال فإن الأخبار المشوهة التى ترد إلينا تزداد سوءًا

بتفسير الإذاعيين لها وفق هواهم أو وفق مصالح بلادهم ، وكالمعتاد أصبحت الدول الفقيرة التى ليس لها دور فى تشغيل وسائل الإعلام العالمية هى الضحية الرئيسية لشبكات الإعلام العالمية ، ولم يكتفوا بتشويه صور بلادنا عبر وسائل الإعلام المسموعة والمرئية ، ولكنهم يقللون من قدرتنا على فهم ما يحدث أيضا . فى الماضى كان المبشرون ينشرون الكتاب المقدس ، واليوم تولت وسائل الإعلام المهمة ، حيث يتم تدمير كل قيمنا المرعية وثقافاتنا المتنوعة .

لم تكن الأمم المتحدة فاشلة دائمًا ، ففى سنواتها الأولى ساعدت فى تفكيك إمبراطوريات دول غرب أوروبا ، كما أن ماليزيا مدينة لها بالعرفان لأنها ساعدتنا على الفوز بحريتنا بسبب مواقفها الأخلاقية معنا . ولكن الأمم المتحدة تبدو الآن عمياء عما يحدث تجاه العراق وشيشينيا . قوة عظمى واحدة تستمر فى صراعها الطويل ضد العراق ، تطلق القذائف الصاروخية على أهداف بعيدة داخل العراق لكى تركع القيادة العراقية ، دون مراعاة لمعاناة الشعب العراقى المحاصر . وقوة أخرى غلقت أبواب الرحمة على الشيشانيين وتقتلهم بالصواريخ والقنابل بلا تمييز وبوحشية مفزعة حتى تظل شيشينيا جزءًا من الإمبراطورية . إلى متى سيظل الشيشان يقاسون حتى يدرك مجلس الأمن ما يحدث هناك؟ أين المدافعون الشجعان عن حقوق الإنسان ، الذين يزعمون أن الحدود الوطنية لن توقفهم؟

والحقيقة أن هناك بيانات عديدة تصدر كل عام عن الأمم المتحدة ، تبكى على أزمة الفقر وديون العالم الثالث وانتهاك حقوق الإنسان والصراعات والحروب والتفكك الاجتماعى وتدهور البيئة . والواقع أن تلك كلها قد أصبحت ممارسات مضجرة ولا طائل من ورائها . وبالرغم من ذلك كله لم يحدث شىء ولم يتخذ أى إجراء لتحسين هذه الحالة السيئة لشئون العالم . ربما يكون سبب ذلك هو أن عمليات الإجماع والتصويت لاتخاذ القرار داخل الأمم المتحدة طويلة ، ومحبطة ، أو لعله سوء الإدارة من قبل حكومات كثير من الدول الفقيرة هو الذى يعطى المبررات والأعذار للدول الغنية لكى لا تساعدهم !

من السهل بالطبع أن تستخدم الأمم المتحدة بوصفها منتدىً لكشف قناع النفاق والكذب لدى كل من الشمال و الجنوب ، ولكن الأمر أكثر صعوبة للعمل بشكل جماعى من أجل التغيير وحل المشاكل ! إن ماليزيا ما زالت تؤمن بأن النقد المتكرر ممكن وضرورى ، وأن الظلم العالمى وأعمال القمع يجب أن تكنس وتلقى فى سلة المهملات ، وأحب أن أقول مرة أخرى . إن ماليزيا تؤمن بقوة بالتعددية فى الأمم المتحدة ، وعلى استعداد أن نبذل مساعينا فى هذه المنظمة العالمية بكل قوتنا ومعتقداتنا وأخلاقياتنا .

١٢- القَرنُ الآسيَوِيُّ : مَنظُورٌ مَالِيزِيٌّ *

ما المنظور الماليزى على «القرن الآسيوى»؟ أعتقد أننا نقصد بالقرن الآسيوى القرن الحادى والعشرون الذى تنبأ الكثيرون بأنه سيكون القرن الذى تسيطر فيه آسيا على العالم . إن فكرة سيطرة قارة ما على العالم فكرة ساذجة وليست انعكاسًا حقيقيًا للعصر .

يستطيع المرء أن يصف بدقة القرن التاسع عشر على أنه : «القرن الأوروبى» والحقيقة أن سيطرة أوروبا على العالم بدأت فى عام ١٤٩٢م أى فى العام التى اكتشف فيه كريستوفر كولمبس أمريكا ، إلا أننا نعرف أن الهنود كانوا هناك قبله . لكن الأوروبيين كانوا دائمًا يعتبرون أوروبا مركز العالم وأن كل شىء يدور حولها .

وكان جزء من القرن العشرين أيضًا يوصف بالقرن الأمريكى ؛ فبعد الحرب العالمية الثانية سيطرت أمريكا بحق على العالم . نصف اقتصاد العالم كان يخرج من الولايات المتحدة ، ولكن فى الربع الأخير من القرن العشرين لم تعد أمريكا أو بالأحرى الولايات المتحدة ، القوة المسيطرة على العالم . مع أنها مازالت القوة المسيطرة عسكريًا ، ولو أخذنا هذه الحقيقة فى الاعتبار فإنه يمكن وصف القرن العشرين بالقرن الأمريكى . وبالطبع فإن انتهاء الحرب الباردة ، سقوط الاتحاد السوفيتى يؤكدان هذه الحقيقة .

هناك كلام كثير عن أن القرن المقبل سيكون القرن الآسيوى . وفرضية القرن الآسيوى هذه أصبحت الموضوع المفضل ، والجدير بالنقاش العلمى فى العديد من الجامعات وحلقات الدرس فى العالم ، وكان التركيز فى الغرب على الخطر المتوقع لهذا التطور على الإنسانية بشكل عام . وبالنسبة لمعظم المتحيزين ، كان هو الخطر الأصفر مرة أخرى ، وهذه المرة يوجد مسحة من اللون البنى أيضًا . هناك خوف من ظهور أكثر من چنكيز خان جديد ! ومن أن

---

* خطاب فى المنتدى الماليزى- الصينى الثانى ، فى بكين ، فى ٢٦ أغسطس (١٩٩٦م) .

قبائل التتار والمغول على وشك أن تجتاح وتنهب وتسلب وتدمر العالم ، تقتل وتغتصب وتسبى النساء ذوات الشعر الذهبى بعدما يتم ذبح الرجال الشجعان .

ونالت الصين اهتماماً خاصًا . فقد ظلت مدانة لعديد من السنين ؛ لأنها شيوعية وانعزالية ، وتمارس سياسة اقتصادية مغلقة مركزية التخطيط ، أمَّا الآن فقد انفتحت وتبنت شكلاً من أشكال نظام السوق ، وبدلاً من أن يتم الترحيب بها ترحيبًا جمًا ، نُظر إليها بعين الريبة والشك . وأطلق البنك الدولى أجراس الإنذار بأن الصين ستبزغ فى القرن الحادى والعشرين على أنها أكبر قوة اقتصادية فى العالم ، وهكذا يزداد الخوف منها .

وأصبحت الفكرة بأن الصين ستشكل تهديداً ، هذا إن لم تكن قد أصبحت كذلك بالفعل ، وأنه لابد من اتخاذ إجراء لكبح جماح الاقتصاد الصينى المتزايد ، أن يتم التحالف ضدها عسكريًا واقتصاديًا ، ولو انضمت الصين فى أى تجمع فلابد من أن ضمن هذا التجمع قوة غربية عظمى معينة. وأخبرت اليابان وكوريا بأن يكونا على حذر وألاَّ يدخلا فى أى تحالف تكون الصين عضواً فيه دون وجود قوى غربية . ولا يعنى عدم قيام الصين ، على عكس الدول الغربية ، بغزو جيرانها أو احتلال أراضيها ، يعنى أنها لن تفعل ذلك أبدا . ويرى البعض أن الصين بلد كبير وقوى ولابد من أن يكون له طموحات إمبريالية . أما قوى خارج آسيا اليوم تحاول أن تدعى لنفسها حقوقًا خارج نطاق أراضيها فيبدو أنه لا يقلقهم قيد أنملة عندما يلوحون بالشبح الصينى . علينا نحن ، الآسيويين ، أن نثق بغير الآسيويين ؛ لأننا غير جديرين بالثقة ، ومن المؤلم لنا أن يخبرنا الناس بأن نثق فيهم ببساطة ؛ لأنهم ليسوا آسيويين ! والمغزى هو أننا أنفسنا غير جديرين بالثقة !

والحقيقة هى أن القرن الآسيوى ليس من المحتمل أن يتحقق ؛ لأن آسيا ليست أوروبا ، آسيا ما هى إلا كيان جغرافى اعتباطى ، ليست كيانًا سياسيًا ، أو حتى كيان عرقى . والشعوب التى تسكن آسيا مختلفة للغاية عن بعضها البعض لدرجة أننا يجب ألاَّ نحدد بوصفنا آسيويين ، بل على أننا جماعات عرقية مختلفة . وبينما يتبع الأمريكيون والأوروبيون

ديانة واحدة على نطاق كبير ، نجد الخصومة بين الديانات الآسيوية كبيرة ؛ فالروحية والإلحادية وكل العقائد الأخرى المعروفة فى العالم لا توجد فقط فى القارة الآسيوية ، ولكنها تقسم الآسيويين بحدة إلى جماعات متناحرة ، وفى أقصى الغرب من القارة الآسيوية مازال المسلمون العرب يقاتلون عدوهم القديم ؛ اليهود العبرانيين ، وفى جنوب آسيا مازال الهندوس يقاتلون المسلمين ، والبوذيون يقاتلون الهندوس .

وفيما يسمى بالشرق الأقصى مازال الصينيون والكوريون يظهرون غضبهم لليابانيين فى الوقت الذى سامحت فيه أوروبا الألمان . ويهود العالم يبدون استعداداً للتغاضى وربما نسيان الفظائع التى ارتكبها النازى ضدهم فى الحرب العالمية الثانية ، ومن ناحية أخرى لا يستطيع الآسيويون نسيان النساء اللاتى عانين فى الحرب العالمية الثانية رغم أن الجيل الذى قاتل فى تلك الحربَ ليس موجوداً الآن .

مع كل هذا التنوع ، هل يمكن أن يكون هناك قرن آسيوى؟ حتى فى الاقتصاد فإن تطور آسيا غير متساوٍ ! ! فبينما تعانى دول كثيرة من الفقر ، هناك دول أخرى ترفل فى نعيم الثروة العظيمة ! معظم النمو الاقتصادى يحدث فقط فى ركن واحد من آسيا ؛ فى شرق آسيا ، حتى جنوب شرق آسيا ليس متطوراً اقتصاديًا ، ومازالت بعض الدول تعتمد على المعونة الغربية !

الشرق آسيويون الذين من المفترض أن تأتى منهم القوات الصدامية للقرن الآسيوى يبدو أنهم أيضًا غير راغبين فى التعاون مع بعضهم البعض فى المسائل الاقتصادية ، وفكرة المنتدى الاقتصادى لشرق آسيا على سبيل المثال رفضتها دول شرق آسيا الكبرى ببساطة ؛ لأنهم يشعرون بأن ولاءهم ليس لآسيا !

ولم يتغلب معظم الآسيويين حتى الآن على عقدة النقص والإحساس بالدونية التى خلفها فيهم استعمار دام عقوداً ، بل قرونًا من الزمن ؛ فإنهم مستقلون سياسيًا ، ولكنهم

مازالوا مستعمرين نفسيًا ! نظم قيمهم وأساليب تفكيرهم مازالت خاضعة للفكر الغربى .

والنقطة التى أحاول إيضاحها هى ؛ أن القرن الآسيوى – لو أن هناك حقًا ما يسمى بالقرن الآسيوى – لن يشكل تهديدًا لأحد ، فعلى الأرجح أنه سينفجر داخليًا نتيجة لوزنه وضغوط الانجذاب نحو المركز ، فبعض الدول فى آسيا ستصبح قوية ، ولكن قوية فى ذاتها بوصفها دولاً فى آسيا وليس بوصفهم آسيويين من قارة آسيا .

إن احتمال وجود آسيا (أو أمة آسيوية) تسيطر على العالم هو فى الواقع حلم خيالى . والسيناريو الأكثر احتمالاً للمستقبل هو وجود عالم فيه قوى عديدة وبشكل رئيسى قوى اقتصادية ، ولن تكون هذه القوة كلها من آسيا بل سيكون هناك كما هى الحال الآن ؛ قوى أمريكية وأوروبية ، كل قوة تضاهى الآخرين ، وكل هذه القوى ، داخل وخارج آسيا ستقوم بدور قاطرات النمو لبقية العالم ، سيستثمرون فى الدول الفقيرة وستكون هناك أسواقٌ لمنتجات هذه الدول الفقيرة ، منتجات تصنعها الشركات التابعة ، وخلال هذه العملية ستثرى الدول الفقيرة ، ثم بعد ذلك ستشترى الدول الفقيرة بالطبع منتجات الدول الغنية .

وإذا حدث هذا وهو الشيء المتوقع ، فإن القرن الحادى والعشرين لن يكون قرنًا آسيويًا ، بل سيكون القرن الذى تأتى فيه مصالح العالم قبل المصالح الضيقة للقارات والدول .

وحتى الآن يمكننا أن نرى كيف يحتاج كل منا إلى الآخر ، وكيف أن القارات والدول فى حاجة لبعضها ، إن ثروة شرق آسيا لم تنبع تمامًا من شرق آسيا ، بل على العكس ، فكثير من هذه الثروة جاء من التجارة بين آسيا والغرب . قامت أوروبا وأمريكا بدور المحرك لنمو اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان وسنغافوره ، والآن لما يسمى بنمور جنوب شرق آسيا .

إن التجارة بين دول شرق آسيا تنمو بوثبات وخطى واسعة وهذا أمر طبيعى . فبينما

تغدو دول شرق آسيا أكثر ثراء ، سوف تزداد التجارة أيضًا فيما بين هذه الدول ، وكذلك مع بقية العالم . ويقول الآسيويون بالفعل : إنهم لا يريدون أن يشكلوا تكتلات تجارية ؛ إنهم يؤمنون بالانفتاح الإقليمى ، ولكن يبدو أن الغرب لا يثق بهم ، ولا يأخذ كلامهم مأخذ الجد .

ربما يكون لدى الغرب أسباب تجعله يشك فى كلام الآسيويين ! فهناك دائمًا بعض الدول الآسيوية التى لا تحبذ فتح أسواقها ، مع أنهم يقولون غير ذلك . يقولون إنهم يفتحون أسواقهم بينما يصنعون حواجز التعريفة الجمركية ضد التجارة ، الغرب لديه مبرراته لعدم الثقة فى الآسيويين ، ولكن هل من العدل صبغ كل الآسيويين بصبغة واحدة؟ هناك بعض الدول الآسيوية التى كانت منفتحة دائمًا ، والبعض الآخر ينفتح بشكل واضح الآن ، ربما تكون العملية بطيئة ، ولكنها مستمرة .

ومن ناحية أخرى ، وبالرغم من أن الغرب يبدو منفتحًا ؛ فذلك لأنهم يعتقدون أن الآسيويين لن يسمحوا للمنتجات وخاصة السلع المصنعة بالمنافسة فى أسواقهم ، لقد كانوا كرماء حتى أدركوا أن احتكارهم لقطاع التصنيع قد كسر ، وأن البضائع الآسيوية قليلة الجودة التى تحدتهم فى السابق (والتى ركنوها جانبًا بإهمال) أصبحت الآن بضائع عالية الجودة بينما ظل السعر منخفضًا . عند هذه المرحلة شعر الغرب بأنهم لن يستطيعوا أن يتحملوا أكثر من ذلك فى أن يكونوا كرماء ولذلك اتخذوا إجراءات لعرقلة المنتجات الآسيوية ، والبعض من هذه الإجراءات غير أخلاقى .

لو تمكن الأوروبيون الإثنيين من التغلب على مواقف التمييز والانحياز فإن التجارة والعمليات الأخرى بين الدول الآسيوية والإثنيين الأوروبيين فى أوروبا وأمريكا ستغدو أكبر حجمًا وأكثر صحة ، وإذا ما أقدموا على ذلك فإن القرن الحادى والعشرين سيؤدى حتمًا إلى قرن العالم ؛ قرن تبادل المصالح الدولية الحقيقية .

ولو سمحتم لى ؛ أود أن أتكلم عن تجربة ماليزيا بشيء من الشرح ، ربما يكون لها صلة بفكرة تبادل المصالح بين دول المجتمع العالمى . فى ماليزيا ، كما فى كثير من البلدان الأخرى ، كانت الحكومة تنظر للقطاع الخاص على أنه أنانى وجشع وبخيل ، ونأت الإدارة الحكومية بنفسها عن مجتمع المال والأعمال ، وصعَّبتْ الأمور بقدر ما تستطيع على القائمين بالأعمال التجارية ؛ فقد ابتكرت كل ما يمكن أن يشكل ضغطًا ، وعرقلة من قواعد وقوانين وإجراءات وروتين على رجال الأعمال ؛ حتى تشعرهم بتفوق وسيادة الإدارة الحكومية ، وكان على رجال الأعمال أن يدركوا أنه بالرغم من أنهم يمتلكون كل المال ، إلا أنهم سيظلون دائمًا فى مكانة أدنى من الإدارة الحكومية .

وذات يوم تنبهت الحكومة إلى أن موقف المواجهة بين إدارتها وبين مجتمع المال والأعمال لن يسهم على الإطلاق فى بناء ورفاهية الأمة ، فإذا كان لابد من وجود القطاع الخاص لدينا فلماذا لا نتعاون معهم؟ ونتيجة لذلك تبنت ماليزيا رسميًا مفهوم «ماليزيا المتحدة» .

بمعنى آخر فقد ساعد الانتقال من موقف المواجهة مع القطاع الخاص إلى موقف التعاون بين الكيانين إلى التعجيل والإسراع بعجلة التنمية فى ماليزيا . وقد أسهمت عوامل أخرى فى هذا النمو بالطبع ، ولكن الود القائم بين الإدارة الحكومية وقطاع الأعمال قد ساعد فى سرعة الحصول على الاعتمادات والتسهيلات ، تلك العقبة الرئيسية فى طريق تنمية أى دولة . وهكذا فإن ماليزيا تختلف اليوم تمامًا عما كانت عليه قبل تبنيها لمفهوم «ماليزيا المتحدة» .

الدرس من هذه التجربة واضح ؛ التعاون بدلاً من المواجهة هو الأفضل للجميع ، والآن وبدلاً من تخويف الدول الآسيوية ومحاولة إعاقة تقدمها فالأحرى بالغرب أن يتعاون ويساعد ؛ فالجميع سيستفيد بطريقة أو أخرى ، ولن نهدر الوقت فى محاولة البحث عن سبل لإحباط بعضنا البعض ، ولا تأخير ما يجب أن يحدث يومًا ما بأى حال .

إن ماليزيا تؤمن بمبدأ : «اعمل على ازدهار جارك» ولا تؤمن بمبدأ «اعمل على إفقار جارك» ، ولو عملنا على ازدهار جيراننا ؛ فإننا سنزدهر بالتالى وكذلك الغرب . ولو ازدهرت آسيا وأوروبا فسوف يزدهر العالم بأسره بما فى ذلك أفريقيا وأمريكا اللاتينية !

لن يكون هناك إذن قرن آسيوى ، بل سيكون هناك ولأول مرة «قرن العالم» ، قرن الرفاهية للجميع . وكل ما نحتاج إليه لحدوث ذلك : هو التوقف عن تصوير الدول الآسيوية على أنها غول أو شبح ؛ إننا لا نود أن نزدهر لكى نجعل الآخرين فقراء ؛ إنها ليست لعبة (الناتج صفر) التى نسعى إليها ، إن عالم الأثرياء ، والمعدمين لن يضيف شيئًا لمجمل إنجازات هذا العالم الحديث ، أما عالم الأثرياء فسينجم عنه مزيد من الثروة للجميع .

ربما يبدو ذلك مثاليًا ! ولكن إن لم تكن لدينا مثاليات ، فستصبح الحياة عقيمة جرداء ؛ فالمقصود بالمثاليات هو أن نسعى من أجل تحقيقها .

سيشهد القرن الحادى والعشرون عالمًا مختلفًا ، عالمًا صغيرًا لدرجة أننا لن ندرك أن هناك حدودا فاصلة على الإطلاق ، يقال لنا إنه فى وجود تكنولوچيا المعلومات سيكون علينا أن نقبل بعالم بلا حدود ، ولو أن هناك سوقًا فلن تكون سوقًا أوروبيةً أو أمريكية أو آسيوية ، بل ستكون سوقًا عالميةً ، لا يمكن تجاهل دولة فيها ولا قارة . وبهذا لن تكون هناك عزلة بعد ذلك ، لا للبلاد ولا للقارات ، وستظهر بعض الدول فى آسيا بوصفها قوى اقتصادية عظيمة ، ولكن الغالبية من الدول ستكون فقيرة أو متوسطة . ولا يعنى وجود عدد قليل من الدول الغنية والقوية أن آسيا ستصبح قوية . سيظل متوسط دخل الفرد منخفضًا بالمقارنة مع نظيره فى الغرب .

دعونا ننس موضوع دغدغة الذات : وهو القرن الآسيوى ، دعونا لا نصنع منه شبحًا مخيفًا . لو أصبحت الصين ، بثقل التعداد فقط ، أكبر كيان اقتصادى فى العالم ، فلن تصبح المملكة المتوسطة مرة أخرى ، ولن يكون هناك طريق للحرير ولا چنكيز خان ، ولا قبائل

التتار والمغول ، بل سيكون هناك العديد من الآسيويين والأوروبيين الإثنيين الذين يعدون حول العالم لإنجاز أعمالهم التجارية فى قرن العالم ، وفيما عدا اليابان ، فإن الأوروبيين الإثنيين سيكون لهم الصدارة تكنولوچيًا . وسيستمر الآسيويون فى شراء التكنولوچيا الأوروبية ، ويطبقونها فى أعمالهم التجارية وسيصير العالم كله أكثر ثراءً .

وستكون شعوب العالم أكثر حركة وانتقالاً ؛ سيهاجرون فى أعداد غفيرة على فترات متفاوتة من الزمن ، ولن يكون من السهل دمجهم فى الشعوب المضيفة ، ونتيجة لذلك لن تكون هناك أمة ذات عرق واحد عمليًا ؛ فكل الدول ستحفل بسكان متعددى الأجناس مثل : ماليزيا . ولن يتذكر معظمهم أصولهم فحسب ولكنهم سيحتفظون بالوشائج التى تربطهم ببلاد المنشأ .

وحتى الآن لم نر سوى الهجرة الأفريقية والعربية والآسيوية إلى الدول الأوروبية وسيأتى اليوم الذى يهاجر الأوروبيون ويستقرون فيه فى دول آسيوية وأفريقية وسيأتون أولاً من أوروبا الشرقية ولكن فى النهاية سيتبعهم الأوروبيون الغربيون .

والمعنى الضمنى هو أن الآسيوى لن يكون بعد ذلك آسيويًا فى القرن الحادى والعشرين ؛ قد تكون الدول فى آسيا ؛ ولكن الشعوب ستكون خليطًا مع تزايد الأقليات الأوروبية . التلاقح الثقافى سيغير شخصية آسيا كما سيغير أوروبا وأمريكا . والنتيجة مرة أخرى لن تكون آسيا ذات جنس واحد تسود القرن الحادى والعشرين . لن يكون هناك قرن آسيوى .

إن القرن الآسيوى ليس سوى خرافة ! خرافة لإسالة لعاب الآسيويين ، وخرافة مخيفة للأوروبيين ، إلا أنه سيظل خرافة ، دعونا ننس خرافة القرن الآسيوى هذه ، ولنبدأ الآن فى صنع القرن العالمى ، أو قرن العالم كله .

١٣- عصر النهضة الآسيوى *

لدى يقين من أن آسيا ستواجه تحديات كثيرة ، وإن كنت أعتقد أنها خلال السنوات القليلة الأخيرة من القرن العشرين ، وحتى عام ٢٠٢٠م ، ستواجه ثلاثة تحديات رئيسية .

الأول : خاص بالإصلاح الداخلى والثورة . **والثانى** : خاص بالتعاون الإقليمى والصداقة . **الثالث** : خاص بالنضال من أجل نظام عالمى جديد أكثر إنتاجية وأكثر عدلاً . والثلاث يمثلون ما يمكن أن أشير إليه بأنه تحدى تحقيق وإنجاز النهضة الآسيوية .

ومن بين التحديات الثلاث الأساسية هذه ؛ ربما يكون التحدى الداخلى هو الأهم ؛ لأنه إذا كانت آسيا تريد أن تنمو وتزدهر فسوف يكون عليها قبول وإدارة الإصلاح والثورة فى كل دولة آسيوية على حدة .

لقد أبلت آسيا بلاءً حسنًا حتى الآن ، ولكن ليس هناك وقت للشعور بالنشاط والخفة ، فلا يجب أن نركن إلى الراحة أو التحلى بأكاليل الغار ، علينا أن نفهم أننا قد بدأنا للتو ، بل أجد أنه من المفيد أن نقلل من شأن إنجازاتنا لو أردنا أن نتجنب مضايقة أولئك الذين فقدوا الثقة فى قدرتهم على التنافس ، تلك المجتمعات التى تعرف أنها لكى تواجه العالم عليها أن تغير طرقها وأساليبها ولكنها ليست راغبة ولا قادرة على فعل ذلك !

التواضع شىءٌ جيد بالنسبة لنا ، ولكن يجب أن يكون تواضعَ السلوك الحميد وليس تواضع أولئك الذين يعانون من مركب نقص وإحساس بالدونية ، فذلك من شأنه أن يعيق ويؤخر تقدمنا !

وتقدمنا بالطبع ليس اقتصاديًا وحسب ، فقد حققنا تقدمًا سياسيًا أيضًا ، رغم أنه ليس

---

* كلمة فى المؤتمر الإقليمى لأندية هارفارد فى آسيا ، كوالالمبور : ماليزيا ، فى ١٥ أغسطس (١٩٩٦م) .

على الطريقة التى تحظى بموافقة الغرب .

داخليًا : تجاوزنا الكثير من طرقنا السلطوية القديمة ، لسنا ديمقراطيين تمامًا ، ولكن عناصر التفكير الديمقراطى ورعاية شعبنا قد أثرت فى أفكارنا وفى أعمالنا .

إقليميًا : لازالت هناك مناطق توتر كثيرة ، وقضايا حدودية وكثير من احتمالات الصراع وبالرغم من ذلك كله إلا أننا لم ننعم بسلام طيلة القرن ونصف القرن الماضيين بقدر ما ننعم به الآن ، لم نعرف مثل هذا الهدوء النسبى منذ ١٥٠ عامًا ، لا توجد حروب بين الدول فى شرق آسيا . نحتفظ ببارودنا جافًا ولكن مدافعنا صامتة .

اقتصاديًا : نحن أصحاب تحطيم الأرقام القياسية فى العالم من ناحية الديناميكية والنمو لأكثر من جيل ، وهذا يمكن ملاحظته بشكل أكثر ؛ لأننا فى الخمسينيات ولوقت قريب كان متوسط دخل الفرد فى اليابان نصف متوسط الدخل فى الهند وباكستان ، ولسنا فى حاجة إلى وضع متوسط الدخل فى أمريكا وسويسرا والسويد فى الاعتبار ، فى عام ١٩٦٠م فقط وصل متوسط الدخل فى ماليزيا إلى متوسط الدخل فى هايتى . أمَّا اليوم فإن مستوى المعيشة فى ماليزيا يتقدم تقريبًا كل الدول الرئيسية فى الأمريكتين باستثناء الولايات المتحدة وكندا .

ومع حلول عام ٢٠٠٠م سيصل إجمالى الناتج الإقليمى لاقتصاد شرق آسيا إلى ما يساوى إجمالى ناتج أوروبا الغربية أو أمريكا الشمالية وهى قفزه عملاقة عندما نلاحظ أنه حتى فى عام ١٩٨٠م ، كان إجمالى الناتج الإقليمى ثلثا ناتج أوروبا الغربية أو أمريكا الشمالية . ووفق ما ذكره البنك الدولى فإنه مع حلول عام ٢٠٢٠ ستكون سبع من أصل أكبر عشر اقتصادات فى العالم آسيوية ! ويعتقد البعض أنه مع حلول عام ٢٠٣٠م سيكون شرق آسيا فى حجم أمريكا الشمالية ، وأوروبا الغربية مجتمعتين ، ولم تبن هذه التنبؤات على أساس توقعات خطية أو من قبيل التبسيط .

ولسوء الحظ فإن هذه الإحصائيات الجيدة ليست محل ترحيب من الناس ؛ وهناك دول ليست سعيدة بذلك ، وهناك كلام قليل عن أن آسيا ستصبح محرك النمو لبقية العالم ، وبدلاً من ذلك هناك ما ينذر بأنه ستكون هناك معوقات كثيرة .

هناك تشابه سياسى مع قانون نيوتن الثالث : «كل فعل له رد فعل مساوٍ له فى القوة ومضاد له فى الاتجاه» ، فى السياسة قد لا يكون رد الفعل مساو دائما رغم أنه غالبًا ما يكون مضاداً ! وهكذا فإن توقعات البنك الدولى للصين قد كلفت تلك الدولة الكثير ! وسوف تستمر فى تحميلها تكاليف باهظة ، وينطبق هذا على كل الكلام الدائر عن معجزة شرق آسيا .

وفى وسعنا أن ننظر إلى الماضى بعين الرضا ، ولكن كما قلت لا مكان للكلام المنمق والمزخرف ، وليس هناك من سبب يدعونا للرضا عن أنفسنا ، ولا يجب أن ننسى أبدًا أن الزهو والكبرياء يأتيان دائمًا قبل السقوط .

أثناء الحرب العالمية الثانية قال تيودور روزفلت : « إن الشيءَ الوحيد الذى يجب أن نخافه هو الخوف نفسه» ! ولكن علينا أن نفهم أن هناك وجهًا آخر للعملة . فبالنسبة للبعض منا ممن تغمرهم البهجة ، جدير بأن نتذكر ، إن ما يجب أن نخافه هو عدم وجود الخوف نفسه ، لأن التحرر من الخوف يؤدى إلى الإحساس بالرضا ، والإفراط فى الثقة فى النفس ، إنه المرض الذى أصاب الدول القديمة المتقدمة فى الغرب .

وهناك سبب ثان أكثر أهمية ؛ ولضرورة عقد العزم على مواصلة الإصلاح والثورة ، فهناك أشياء كثيرة خطأ فى مجتمعنا يجب تصحيحها . والمسافة التى يجب أن نقطعها طويلة ، والوقت المتاح لقطع هذه المسافة قصير للغاية ، ولذلك فإن كلمة «ثورة » هى أكثر الكلمات ملائمة . ولسنا فى حاجة إلى إراقة قطرة دم واحدة ، والتغيرات يجب أن تكون منظمة ، وليست عنيفة ، ولكن لابد من أن تكون التغيرات ثورية ، ومنظمة وجذرية بالرغم

من ذلك .

ما المناطق الرئيسية للإصلاح الداخلى والثورة؟ إن الأولويات الدقيقة مختلفة باختلاف المجتمعات الآسيوية بطبيعة الحال . ورغم ما حققناه من تقدم سياسى ، فمازال العديد منا فى حاجة إلى التخلى عن ولائه للأيديولوچيات القديمة عديمة الجدوى ، وعلينا أن نقرر بأنفسنا دون أن يدفعنا الآخرون . بيد أن النظريات الاقتصادية التى عفى عليها الزمن والتى نجمت عنها تلك الأيديولوچيات ثبت أنها خاطئة ، فإذا قبلنا نماذج اقتصادية جديدة ، علينا أن نعدل من سياساتنا لتتلائم معها .

كان الأمر بالنسبة لكثيرين هو الحاجة إلى إصلاحات أساسية ، وكان بالنسبة للبعض الآخر هو الحاجة إلى مبدأ (كايزين) أو التحسين المستمر والتناغم الدقيق الثابت حتى يتم التحول الشامل . وهناك اعتقاد فى بعض المجتمعات الغربية يقول : «إن لم يكن مكسوراً لا تقم بإصلاحه» . يجب أن نلتزم فى كل مجتمعاتنا بمبدأ (كايزين) وإن لم يكن متقنًا ، فلنحاول أن نتقنه .

كنا ومازلنا دائمًا نمارس الديمقراطية فى ماليزيا . ربما يختلف البعض حول هذا ، لكن دعونا نتذكر أن أولئك الذين يدعون أنهم ديمقراطيون أكثر منا ليسوا ملتزمين تمامًا بالمبادئ الديمقراطية ، عندما يصل الأمر إلى إقحام وجهات نظرهم وأرائهم وسياساتهم الأنانية فى حلق شعوبهم . نحن ديمقراطيون ؛ لأن جوهر الديمقراطية هو حكم الأغلبية وحقها فى إسقاط حكومة دون اللجوء للعنف أو لحرب أهلية . ولذلك نحبذ الديمقراطية باعتبارها النظام السياسى المثالى للدول الآسيوية .

إلا أنه من الحماقة اعتبار الديمقراطية دواءً عامًا لجميع الأمراض ، إن عقيدة الديمقراطية يمكن أحيانًا أن تكون طفولية إلى حد ما ، ولابد من أن بعض منظّريها من أصحاب الصوت المرتفع يضعون فى اعتبارهم أنهم يبيعون الحلوى لأطفال صغار . إلا أننى

أوصى بالديمقراطية رغم ما فيها من نقاط ضعف عديدة ، وإمكانية أن تكون غير منتجة أو مناهضة للإنتاجية فى بعض الأحيان . وأوصى بالديمقراطية رغم الحقيقة التى تقول إن هناك دولاً آسيوية كثيرة نجحت فى إرساء ديمقراطيات لم يجنوا منها سوى أعمال الشغب نتيجة ضعفها بدلاً من بناء ديمقراطيات تتجلى فيها كل مظاهر القوة .

ورغم أن الدول الآسيوية قد حققت نجاحًا ، إلا أنه ما زال هناك حاجة إلى الإصلاح الاقتصادى والثورة ، لقد كان أداؤنا جيدًا فى الماضى ، ولكن لابد ألاّ ننسى أبدًا أن النتائج الاقتصادية الهائلة التى حققناها بالأمس كانت نتيجة لما تم عمله ، وما تم إنجازه قبل الأمس ، وعلينا الآن أن نضع الأسس اللازمة لتحقيق نتائج الغد والعقود القادمة التى لا تقل عما تم إنجازه .

لا يمكننا القيام بذلك كله دون إصلاحات اقتصادية داخلية وثورة مجتمعية مستمرة . وفى هذا المقام أجد أن هناك بعض الأشياءً الأكثر أهمية من الكفاح من أجل زيادة الإنتاجية .

يكرر پول كروجمان القول بأنه ليس هناك ما يسمى بـ«المعجزة الآسيوية» ، وهو على حق ؛ فليس هناك تلويح بعصا سحرية ؛ لأنه لا يوجد سحر ، ولا يوجد غموض أو أسرار ، لقد عملنا كل ما عملنا بالطريقة التقليدية القديمة من خلال استثمار محيط من العرق ، ومن خلال استثمار رأس مال ضخم ، ومن خلال تحسين الإنتاجية الشاملة لمجتمعاتنا (والتى يطلق عليها الاقتصاديون : إنتاجية العامل الإجمالى) وهو محق فى قوله إن الطريقة التقليدية القديمة هى الطريقة الوحيدة التى يستطيع أى فرد أن يحصل بها على نتائج اقتصادية عظيمة . نظريته صحيحة ، وهو محق فى قوله إن بعض اقتصادات التنانين والنمور الآسيوية كان أداؤهما سيئًا من ناحية إنتاجية العامل الإجمالى .

ولكنه فقط مخطئ فقط بالنسبة فى بعض إحصائياته ، وهو على خطأ كبير أيضًا فى افتراضه أن أولئك الذين كان أداؤهم الإنتاجى رديئًا ومتدنيًا فى الماضى ، سيظلون على أداء

إنتاجى فقير ومتدن فى المستقبل .

ولو أن اقتصادات شرق آسيا قد أظهرت شيئًا ، فهو أمانة فكرية فى اكتشاف ما هو واضح ، وفى اكتشاف الطرق المطروقة إلى التنمية الاقتصادية الدينمية ، وفى اكتشاف الوسيلة الوحيدة لتحقيق وإنجاز نمو هائل . إن عبقريتنا نابعة من قدرتنا على أداء ما يعرفه كل الناس ومن قدرتنا أيضًا على أن نفعل الأشياء الواضحة ومن قدرتنا على أن نجعل شعبنا يدخر ويعرق ويجتهد ؛ حتى يحقق ما نحتاج إلى تحقيقه .

والذى يحتاج الشرق آسيويون دون استثناء إلى تحقيقه الآن هو الوصول إلى أعلى دفعة إنتاجية ممكنة لتحريك نظمنا الاقتصادية إلى مستويات جديدة من الأداء المنتج ، قد لا ننجح كلنا فى كفاحنا من أجل الإنتاجية ، فالبعض بلا شك سيفشل وعلينا أن نتوقع دفع الثمن ، ولو سقطنا علينا أن ننهض ونتقدم مرة أخرى !

يجب على العالم المتشكك أن يرقب ما يفعله الآسيويون ويتخذونهم نماذج تحتذى . ولأن الآسيويين يعرفون أن شركاء التجارة الفقيرة لا فائدة منهم لأحد ، فإننا نود أن ينتعش كل الناس ؛ لأننا نعرف أن العالم المقسم إلى أثرياء ومعدمين لن يكون هدفًا يستحق النضال من أجله ، فمثل هذا العالم لا يشكل أى فائدة لأى أحد .

وهناك بند ثالث على جدول أعمالنا الداخلى يجب التأكيد عليه ، يجب أن نتأكد من أن التنمية السياسية والنمو الاقتصادى لدينا لابد من أن يصحبهما أو أن ينتج عنهما عدالة اجتماعية للجميع .

إن تحدى العدالة الاجتماعية واسع وعميق ، فهو يمتد من القضاء التام على الفقر المدقع إلى أن تصل إلى تأمين نظم قضائية وحكم القانون والمساواة ورعاية وحماية المرأة والطفل ومساعدة المعوزين والذين تخلفوا عن ركب التقدم .

إن جدول أعمال العدالة الاجتماعية فى كل دولنا الآسيوية طويل ، ولكى نواجه

تحدى العدالة الاجتماعية ، فإننا لن نخسر شيئًا إذا انحنينا بجدية وإخلاص أمام حقيقة أن كل مواطن لدينا مهم . فكل إنسان فى بلدنا هو العالم فى نظرنا .

دعونى أنتقل الآن إلى التحدى الأساسى الثانى الذى تواجهه آسيا تحدى الصداقة والرفاهية الإقليمية لقد كان الكثير منا غرباء عن بعضنا البعض ، كنا أعداءً وخصومًا لفترات طويلة لدرجة أن أعدادًا كبيرة من الآسيويين لم تجرؤ على طرح أكثر الأسئلة وضوحًا وهو سؤال أساسى ، لماذا لا نستطيع أن نكون أصدقاء؟ لماذا لا يجب أن نكون أصدقاء؟

إننا فى حاجة للهرب والتخلص من مجموعة الأفكار التى تملى علينا من عواصم وقارات أخرى ، والعديد من أصحاب هذه الأفكار لا يبالون بسلامنا ولا يهتمون بتوطيد الصداقة بين دولنا ، ومن المؤلم أن يكون هناك عدد كبير منا فى آسيا يبدو أنهم يصدقون أن للآخرين اهتمام أكبر برعاية ورفاهية آسيا من الآسيويين أنفسهم ! والجدير بالملاحظة أننا نستعير من الآخرين الكثير مما نفكر فيه ، وكيف نفكر فيه حتى ما نفكر أن نفكر فيه ! و رغم أن الاستعمار قد مات تاريخيًا ، إلا أن فكر التبعية ما زال نشطًا وقويًا ، ومما يثير الدهشة أن سيكولوچية العبودية ما زالت عميقة فى نفوسنا .

والحد الأدنى من المهام أمام الإدارة الإقليمية هو التأكيد على ألا ينزلق أحد منا إلى المنحدر المؤدى إلى الصراعات العنيفة . إن المهمة الحقيقية لإدارة الشئون الإقليمية تكمن فى بناء سلام تعاونى حميم فى وطننا ، شرق آسيا بداية ، ثم فى بقية آسيا .

وبينما نحاول أن نحقق ذلك ، يمكننا تشجيع ودعم المساعدات البناءة من أصدقائنا ، ولكن سلام شرق آسيا الذى يجب أن نبنيه ، يجب أن يُشيد بسواعدنا ، وعلى أساس من عدم التوازنات والتحالفات العسكرية .

إن المتحمسين والمؤيدين لتوازن القوى العسكرى والذين غالبًا ما يرون أنفسهم واقعيين جدًا والمدهش أن أعدادهم كبيرة جدًا حتى فى آسيا ، هؤلاء الواقعيون يزعمون أنه

إذ لم تستطع دولة واحدة أن تخلق توازنًا عسكريًا بنفسها ، فإن الإجابة الواضحة هى خلق الحلفاء ! ومن المثير أن نلاحظ أنه لا يوجد بين هؤلاء الذين يسمون بالواقعيين فرد واحد يؤيد أو يدافع عن تحالف ضد الولايات المتحدة أو حتى ضد اليابان ! ومن يريدون التحالف ضده واضح . الصين هى التهديد الأهم . وعندما لا يجدون شيئًا يقولون عنه إنه يهدد الأمن ، تبرز الصين دائمًا !

والحقيقة أنه منذ أن تنبأ البنك الدولى بظهور الصين بوصفها أول قوة اقتصادية فى العالم ، نشط الترويج بأن الصين تشكل تهديدًا . لم نر مثل هذا النشاط الترويجى المحموم منذ أيام جون فوستر دالاس (١٨٨٨م - ١٩٥٩ م) ، وهذا أمر مقلق لأننى أعرف أننا بمجرد أن نعامل الأمم الأخرى كما لو كانوا أعداء الغد ، فسرعان ما يصبحون أعداء اليوم !

عندما أقول إننى ضد مفهوم توازن القوى لصنع سلام شرق آسيا ؛ فأنا لا أنفى أهمية القدرة العسكرية ، ومن الطبيعى أن بعض الدول فى الإقليم لابد من أن تبنى قوتها العسكرية ، مثلما ينبغى على البعض أن يخفض قوته .

إن مفهوم توازن القوى الصعب لابد أن يعنى خلق حلفاء وحلفاء مناوئين ورسم الحدود الفاصلة بين الأصدقاء والأعداء ، وتقسيم شرق آسيا إلى معسكرات متناحرة وهذا لا يعتبر اتجاهًا ضد الإنتاجية وحسب ، بل ويعد عملاً أخرق . فعندما نبدأ فى التسلح إلى أقصى درجة ممكنة لكى نكون قادرين على التعامل بشكل مناسب عسكريًا مع بعضنا البعض ونحدث التوازن بالقوة ، نكون قد فقدنا الحكمة ! ما هو إذن الثمن النفسى الذى يتولد من تلك الأنشطة العسكرية وتضاؤل الثقة التى تم بناؤها بين الدول وثقة كل دولة فى نفسها؟ ناهيك عن الكلفة الرهيبة وضياع الأموال والوقت والجهد . عندما نستعد للحرب أليس الاحتمال الأكبر هو أن نجد الحرب ولا نجد السلام؟ هل السلام الحقيقى الذى هو غياب الحرب يتم من خلال عملية التوازن العسكرى الهدامة؟

لو أننا حقا نريد سلامًا فى شرق آسيا ، يجب أن نكون مستعدين أن نحارب من أجله بكل الإرادة وبكل الوسائل التى ندخرها من أجل الحرب . وأكثر الأوقات ملاءمة لخوض هذا القتال من أجل سلام شرق آسيا هو الآن ، عندما تكون التوترات منحسرة ، وعندما تكون الدول فى حالة استرخاء وعندما يكون السلام موجودًا بالفعل .

تحت هذه الظروف الملائمة والمواتية يجب أن نبنى سلامًا دائمًا مدعومًا بالتعاون والصدق . لقد كانت الظروف فى جنوب شرق آسيا فى منتصف الستينات عندما بدأ أعضاء الآسيان تولى الإدارة الإقليمية التاريخية ، كانت أقل ملائمة من الظروف السائدة فى شرق آسيا اليوم . وأعتقد أنه قد حان الوقت لكى يقوم شرق آسيا بهذا الدور الإقليمى .

إن سلام شرق آسيا يجب أن يسمح بالإسهام البناء لكل دول الإقليم ، وأى إعاقة خارجية ليست غير ضرورية فقط ، بل إنها يمكن أن تناهض وتعترض تحقيق الهدف . ورفاهية شرق آسيا يجب أيضًا أن تسمح بالمساهمة البناءة لجميع دول المنطقة صغيرة أم كبيرة ؛ لأن كل الدول الآسيوية قد أظهرت كفاءة وتساويًا بغض النظر عن حجم الدولة أو موقعها .

يجب أن تتزاوج شرق آسيا بقوة مع مبدأ الانفتاح الإقليمى . وهذا يعنى أننا لو تعاونا إقليميًا فى المسائل التجارية ، فإن نتائج هذا التعاون لا بد من أن تؤدى إلى خفض فى الحواجز ليس فقط فيما بيننا ، ولكن بيننا وبين العالم الخارجى .

فى بداية حديثى تكلمت عما أعتقد أنها المكونات الرئيسية الثلاث الباعثة للنهضة الأسيوية والإصلاح الداخلى والثورة والصداقة الإقليمية والمساهمة فى بناء نظام عالمى جديد أفضل ، وأكثر عدلاً وأكثر إنتاجية .

منذ إعلان مصطلح «النظام العالمى الجديد» كانت هناك محاولة غير معقولة من البعض لطرده من شعورنا . وبالنسبة لهؤلاء الذين كانوا متحمسين جدًا من قبل ، يبدو أنهم

غير راغبين فى نظام عالمى جديد الآن ! أتكلم عن نظام عالمى جديد ؛ لأننى أعتقد أننا فى حاجة إلى نظام عالمى جديد ؛ نظام فيه عدالة أكبر ، فيه احترام متبادل ، فيه مساواة أكثر وإحساس أقوى بالأخوة الكونية وبسلامٍ كونى أعظم وأكبر ، ورفاهية كونية أكثر وأعظم .

آسيا يجب أن تنهض ، يجب أن تحقق إسهاما أكبر فى الثروة الكونية العامة للإنسان ، ويجب أن تسهم فى عدالة أعظم للعالم ، وفى احترام متبادل فى العالم ، وأن تشارك فى مساواة أعظم فى العالم ، وأخوة أعظم فى العالم ، وتسهم فى سلام أعظم فى العالم وفى زيادة رفاهية وازدهار العالم بشّكل أعظم .

ولكى تحقق ذلك يجب على آسيا أن ترتب بيتها الداخلى ، يجب أن تقوى نفسها ، يجب أن تكون جديرة بالقيادة ، وعليها أن تنهض لتواجه تحديات هذا الإسهام الكبير .

لعلكم لاحظتم أننى وضعت من البداية ، بداية عام ٢٠٢٠م أفقًا زمنيًا ، لن أكون فى العالم عام ٢٠٢٠م لأشهد ذلكّ اليوم ، ولكنى آمل أن يتحقق الكثير قبل هذا التاريخ حتى نرى وميض عصر نهضة آسيا التى تحدثت عنها .

لقد أمضى الكثيرون وقتًا طويلاً يصبون الماء البارد على الفكرة نفسها ، بأن آسيا على وشك النهوض ، وأن آسيا الناهضة ستشهد عودة التاريخ إلى الأيام التى أسهمت فيها بنصيب وافر فى الحداثة والحضارة الإنسانية . لقد سمعنا الدعاية المقززة عن الأسباب التى ستؤدى بنا حتمًا إلى زوايا النسيان فى التاريخ ، والأسوأ من ذلك هو أننا نستحق أن نكون نفايات ! ولكن وعلى مدى أكثر من جيل الآن ثبت أن الشكوك فى آسيا كانت خاطئة .

للماء البارد استخداماته ؛ فقد كان الماء البارد ضروريًا لأصحاب الرؤوس الجامحة والمتطرفة ولكن فى هذه المرحلة التاريخ ، قد فندنا كل مزاعم المتشككين فى إمكانيات آسيا ، وربما نستمر فى تفنيد وضحد مزاعمهم وتهكماتهم تلك .

ربنا ألهمنا الحكمة لنتجنب الزلل ، ربنا اعطنا القدرة على التماسك لمواصلة مسيرة التنمية واعطنا الإرادة لمواجهة كل التحديات الطاقة والحيوية لإتمام رحلتنا نحو عصر نهضة آسيا .

١٤- جَدَلُ القِيَمِ الآسيَويَّةِ *

هناك اعتقاد حقيقى بين كثيرين فى الغرب بأن قيمهم ومعتقداتهم عالمية ، أى أنها قيم ومعتقدات لكل المتحضرين فى العالم ؛ رجالا ونساء وفى كل مكان ، وهناك أيضًا اعتقاد بأن المدافعين عن القيم الآسيوية وأبطالها إنما يبحثون فقط عما يبرر أعمال القمع والديكتاتورية والسلوك غير المتحضر .

وأنا ممن يؤمنون بأن هناك أرضية واسعة عامة للقيم التى يشترك فيها كل الناس فى كل مكان . ومع ذلك فأنا أيضًا أعتقد أن هناك فوارق واختلافات طبيعية فى نظم القيم والمعتقدات ، ومهما كانت الفكرة كريهة أو لا تحتمل أن الآخرين يؤمنون بعمق بأشياء مختلفة ، وأن هذه المعتقدات والقيم وأساليب العمل لديهم ، من المحتمل أن تكون أفضل وأكثر إنتاجية ، بل أكثر تحضرًا من أساليبنا ، وعلى المرء أن يكون مستعدًا لقبول هذا الاحتمال .

وها هو جزء من المشكلة ، فلعدة قرون ، كان الكثيرون منا يعتقدون أن قيمنا ومبادءنا تأتى فى المرتبة الثانية ، أما اليوم فقد اكتشف الآسيويون أن الطرق والقيم الآسيوية ليست أدنى ولا أقل لأنها ببساطة قيم وطرق آسيوية ، وأن القيم الآسيوية فى الغالب أرقى وأعلى بالرغم من أنها آسيوية ، فلماذا نغير من أنفسنا لنناسب الغرب والقيم الغربية؟ ! ولماذا يصر الكثيرون فى الغرب على أن نصبح مثلهم تمامًا؟ !

لقد توصل المؤرخ اليونانى القديم ثيوسيديدس فى نهاية كتاباته عن حروب بيلوبونيسيا إلى خلاصة مؤداها أنه فى شئون الأمم : «القوى يملى إرادته على الضعيف ،

---

* كلمة فى اللقاء الدولى فى العام التاسع والعشرين للمجلس الاقتصادى لحوض الباسيفيك فى واشنطن دى سى ، الولايات المتحدة فى ٢١ مايو (١٩٩٦م) .

وعلى الضعيف أن يذعن لما يملى عليه» . ولكن معظم آسيا لن يستسلم أكثر من ذلك ؛ لأن معظم آسيا لم يعد ضعيفًا سواء ماديا أم عقليا ، معظم آسيا سيقاوم ، والبعض سيرد ، وسنفعل ذلك ، لأننا ألقينا إلى الأبد أصفاد العبودية الذهنية .

ما هى إذن بعض هذه القيم الآسيوية التى أصبحت موضوع جدل قوى؟

إن آسيا بطبيعة الحال قارة ضخمة ، مثلما أمريكا دولة ضخمة ، ولكل تعميم يقال عن أمريكا أو آسيا هناك استثناءات ، إلا أنه يوجد مجموعة من القيم والمعتقدات العامة التى يتمسك بها معظمنا فى آسيا ؛ ترشدنا فى طريقنا فى العالم الذى يمكن أن يسمى الآسيوى ، مثلما هناك مجموعة من القيم العامة والأساليب التى يمكن أن تسمى أمريكية .

ديفيد هيتشكوك المدير السابق لشئون شرق آسيا والپاسيفيكى بوكالة الإعلام الأمريكية ، قام بعمل مسح إحصائى كمى يقارن فيه بين القيم الشرق آسيوية والقيم الأمريكية . فى عام ١٩٩٤م طلب هيتشكوك من أمريكيين وآسيويين من شرق آسيا (يابانيين وتايلانديين وصينيين وكوريين وماليزيين وسنغافوريين وإندونسيين وفلپينيين) أن يختاروا ست قيم اجتماعية وخمس قيم شخصية من التى ينظرون إليها بوصفها قيمًا أساسية لا يحيدون عنها ، ونشرت النتائج فى مطبوعة بعنوان «القيم الآسيوية والولايات المتحدة : ما مدى الصراع؟ »

وكشف المسح الذى قام به هيتشكوك عن أن هناك ست قيم اجتماعية تعد هى الأكثر تقديراً وشهرة بين القيم التى تم الاقتراع عليها وهى :

أولا : توفر مجتمع منظم . **ثانيا :** الانسجام الاجتماعى . **ثالثا :** التأكيد على فعالية وجدوى كبار موظفى الحكومة العموميين . **رابعا :** الانفتاح للأفكار الجديدة . **خامسا :** حرية التعبير . **سادسا :** احترام السلطة .

من ناحية أخرى كانت أهم ست قيم مجتمعية بالنسبة للأمريكيين الذين شاركوا

هى : **أولا** : حرية التعبير ، **ثانيا** : حقوق الفرد ، **ثالثا** : الحرية الشخصية ، **رابعا** : الحوار الحر ، **خامسا** : تفكير الشخص لنفسه (وكلها لم تظهر ضمن الاهتمامات الأساسية للشرق آسيويين) ، **سادسا** : مسئولية الموظفين العموميين .

ومن المثير أن يؤكد شرق آسيويون أكثر من الأمريكيين على أهمية الأفكار الجديدة والمسئولية العامة ! وكون الآسيويين قد اختاروا النظام والانسجام واحترام السلطة ، بينما أولى الأمريكيون اهتمامًا أكبر لحقوق الفرد والحوار الحر ، لا يجب أن يكون مفاجئًا للكثيرين .

ويرغم اهتمام هيتشكوك باكتشاف الاهتمامات المشتركة بين الشرق آسيويين والأمريكيين ، إلا أنه وجد اختلافات أساسية وجوهرية ، ليس فقط فى القيم الاجتماعية ولكن بالنسبة للقيم الشخصية أيضًا .

وكانت أهم خمس قيم شخصية أكد عليها الأمريكيون هى :

أولا : الاعتماد على النفس . **ثانيا** : الإنجاز الشخصى . **ثالثا** : العمل الجاد . **رابعا** : تحقيق النجاح فى الحياة . **خامسا** : مساعدة الآخرين . أما **سادس** أهم قيمة شخصية فكانت : الوفاء بالالتزامات تجاه الآخرين . وأجمع عليها ٣٩٪ من الشرق آسيويين بينما أكد عليها ١٩٪ فقط من الأمريكيين من جانب آخر ، بينما أكد ٥٩٪ من الأمريكيين على «تحقيق النجاح فى الحياة» ، فإن نصف هذه النسبة من الشرق آسيويين هم الذين أكدوا عليها . وبينما أكد ٥٩٪ من الأمريكيين على قيمة «الإنجاز الشخصى» ، فإن ٣٣٪ فقط من الآسيويين هم الذين فعلوا ذلك . كما كانت هناك أيضًا النسب التالية : أكد ٦٩٪ من الشرق آسيويين على احترام التعلم بينما ، اختار ١٥ ٪ من الأمريكيينن هذه القيمة . وبينما أكد ٤٨ ٪ من الشرق آسيويين على الانضباط الشخصى ، كان عدد الأمريكيين الذين اختاروه ٢٢٪ .

ومن المستحيل ، بالطبع ، أن نحدد إلى أى درجة من الدقة تعكس هذه الدراسة

الأمريكية الواقع . ومع ذلك فقد زودتنا بيانات هيتشكوك بنتائج تبدو متناغمة مع فرضيات مدركة بالحدس من كل الشرق آسيويين والأجانب الذين يعرفون ويفهمون حقًا شرق آسيا . وأقر بحقيقة أن العديد من القيم الآسيوية التى ينتقدها كثير من الآسيويين تحظى بالتقدير عند خرقها أكثر منه عند ممارستها ، وتعكس بعض القيم الآسيوية بوضوح مرحلة التطور التى نمر بها ، وربما تشكل فى المستقبل عقبة وتحديًا لنا ، وربما يتم التخلص منها - سواء للأحسن أم للأسوأ - أثناء مسيرة آسيا للأمام .

وهناك ملاحظة مضللة أخرى يستخلصها المرء من إحصائية هيتشكوك وهى أن الكثير من القيم التى ينظر إليها الآن على أنها آسيوية كانت أيضًا قيمًا غربية كذلك ، والحقيقة أنها ما زالت قيمًا أساسية لجماعة كبيرة ومؤثرة من الأمريكيين تدعى اليمين المسيحى ، و العديد من هذه القيم مثل احترام السلطة والأسرة والنظام الاجتماعى والانضباط الذاتى ، يمكن أن يطلق عليها «قيم فيكتورية» وهى معتقدات قد نبذها الغرب أو فقدها خلال رحلة السنين .

أتمنى أن تكون تعليقاتى على القيم الآسيوية حتى الآن لم تفسر - بشطحة خيال - على أنها تبرر أو تدافع عن الديكتاتورية والسلطوية . والممارسات غير الديمقراطية ، مثل انتهاك حقوق الإنسان وغياب الديمقراطية والتعذيب واستغلال عمالة الأطفال وقهر المرأة أو العبث المدمر بالبيئة . وبعد أن أغضبت الذين يؤمنون بعمومية القيم ، ومعظمهم موجودون فى الغرب ، اسمحوا لى الآن أن أغضب الشموليين ومعظمهم موجودون فى الشرق .

وأول شىء ينبغى أن يقال هو إن القمع وكل أعمال الظلم والشرور التى تمارس فى أى مكان وفى أى زمان لا يمكن أن تمضى دون إدانة أو أن تمضى دون عقاب ، والاختباء وراء عباءة النسبية الثقافية شىء ممجوج أخلاقيًا ، بل إنه يثير الاشمئزاز عند التعامل مع مسائل خطيرة مثل هذه . يجب مراعاة القيم الأخلاقية والإنسانية دائمًا سواء فى الوقت الراهن أم مستقبلا ، سواء فى آسيا أو فى أى مكان آخر .

ثانيا : بعض القيم الآسيوية يجب أن تنسى ، فالله وحده يعلم كم بذلنا من جهد وكافحنا ضد العديد من هذه القيم الضارة فى الماضى ، لقد أصيبت أجزاء عديدة من آسيا بوباء المادية الزائدة عن الحد بينما أجزاء أخرى تعانى من التوجهات المضادة للمادية المفرطة ، أيضًا ، وهناك بالطبع التيار الروحانى المتطرف أيضًا ، والروحانية المتطرفة ، تعبر عن نفسها بطرق غير روحانية بالمرة ، إما من خلال العنف أو من خلال قمع جماعات معينة فى المجتمع .

وهناك النقيض لها أيضًا ؛ فبينما تؤمن بعض المجتمعات الآسيوية بالقدرية ، نجد آخرين معجبون بالسيطرة أو القناعة أو الاهتمام بالمظهر والتأنق أو حتى الغطرسة ! ! ومازلنا نشهد فى آسيا مظاهر عدم المساواة وقهر المرأة والضعفاء واستغلال الأطفال فى العمل البدنى الشاق . وهناك مجتمعات فى آسيا لا تهتم ولا تبالى ولا تحمل ذرة من الحب والاحترام لخلق الله من العجزة والمعاقين والمقعدين أو البيئة الطبيعية ، ورغم أن الكثير من هذا كله يرجع إلى الجهل والفقر ، إلا أن بعضه يرجع إلى الجشع ومواقف اللامبالاة وعدم الاكتراث بالآخرين ، وهناك أيضًا من لا يزالون متمسكين بالسحر والشعوذة والخرافات ، وفى أماكن كثيرة ينتشر الفساد وما ينتج عنه .

وهناك نقطة ثالثة لا تقل أهمية ، وهى أن القيم الآسيوية ، لا هى جيدة ولا سيئة بطبيعتها فإذا كانت القيم الآسيوية لا تعنى بالضرورة أنها جيدة وبشكل حصرى ؛ فإن القيم الغربية لا تعنى بالضرورة أنها سيئة بشكل حصرى أيضًا . أمام آسيا إذن ، الكثير لتتعلمه من خلال عملية التنمية ، ومن خلال النضال الاقتصادى ، ومن الغرب أيضًا . هناك بعض القيم الغربية القيمة التى يمكن أن نتبناها ونضفى عليها من ذواتنا بشكل أكثر عمقًا فى المستقبل .

إننى أتذكر تاريخ بلادى ؛ لقد بذلنا مساع جمة من أجل إقناع البريطانيين المدافعين عن الديمقراطية ، لمنحنا حق الانتخاب والتصويت ؛ لقد كنا نحن ، الماليزيين ، الذين أنكروا علينا حق ممارسة الديمقراطية والكثير من حقوقنا الإنسانية وفى النهاية لانوا وتراجعوا ،

ولكن الديمقراطية جاءت متأخرة جدًا إلى هونج كونج ، رغم أن البريطانيين دافعوا عن الديمقراطية فى كل مستعمراتهم السابقة . والمبرر بأن هونج كونج ستعود للحكم الصينى الشمولى الاستعمارى فى منتصف ١٩٩٧م كان مبررًا بغيضًا وممقوتًا .

وعندما أصبحت الملايو مستقلة فى عام ١٩٥٧م كان متوسط دخل الفرد لدينا أقل منه فى هاييتى ، لم تسلك هاييتى طريق الديمقراطية ، لكننا سلكناه ! واليوم هاييتى هى أفقر دولة فى الدول الأمريكية . لدينا الآن مستوى معيشة أعلى منه فى أى اقتصاد رئيسى فى كل الدول الأمريكية ماعدا الولايات المتحدة وكندا . لم يكن فى مقدورنا أن نحقق ما حققناه دون الديمقراطية . ولم يكن فى مقدورنا أن ننجز ما أنجزناه دون السوق الحرة ، ولكن على أولئك الذين يظنون أن الديمقراطية والسوق الحرة تعنى الرفاهية ، أن يفكروا مرة أخرى ، وعلى الرغم من أن الديمقراطية والسوق الحرّة هما الأكثر احتمالاً لتحقيق الرفاهية إلا إنهما لا تضمنان ذلك ؛ فهناك أشياء أخرى لازمة .

لذلك فإن نقطتى **الرابعة** هى أننا فى آسيا يجب أن ندافع عن الديمقراطية ونكون أبطالاً لها ونتبع نظام السوق ونلتزم باحترام حقوق الإنسان للجميع ، ونحن ملزمون بذلك ؛ لأن نظام قيمنا يرى ذلك قضية أخلاقية ، وأنها هى الطريق المثمر من أجل المستقبل .

دعونى أناقش معكم النقطة **الخامسة** بالحماسة نفسها ؛ ليست كل أشكال الديمقراطية بناءة وذات إنتاجية ، فهناك ديمقراطية جيدة ومنتجة كما أن هناك ديمقراطية سيئة ومدمرة ، فالحرية الديمقراطية يجب أن تسير جنبا إلى جنب مع المسئولية الديمقراطية . وهناك أنظمة سوق جيدة ومنتجة كما أن هناك أنظمة سوق سيئة ، وهناك وسائل جيدة ومنتجة لتحقيق التقدم فى ظروف وكرامة شعبنا ، وهناك أيضًا حسن النية الرومانسى الذى لا يزيد عن كونه هراء غير منتج .

لابد من أن يُسمح لكل مجتمع بأن يجد أفضل أشكاله ، وعملياته الخاصة . وعلى

الأمريكيين ألاّ ينسوا أنه بين ٤ يوليو ١٧٧٦م وقانون الحقوق المدنية فى سنة ١٩٤٥م كان هناك تقريبًا قرنان من التطورات السياسية وحرب أهلية .

الأفكار والأفعال عظيمة ليس لأنها رومانسية ومفعمة بمظاهر الشجاعة بل لأنها تسهم فى الرفاهية الإنسانية ، ومنتجة ليس فقط فى المرحلة الراهنة ، ولكن على المدى الطويل أيضًا . لابد من أن نكون منصفين وألا نلعن من كانوا فى ظروف أقل مثالية ، ومن المؤسف أن الكثيرين ممن يصدرون أحكامًا ليس لديهم الوقت حتى يتقنوا الأساسيات فضلاً عن المسائل المعقدة .

لقد تكلمت بما فيه الكفاية عن القيم الآسيوية وعن الجدل الدائر بشأنها لأغضب كلا الطرفين المنقسمين انقسامًا كبيرًا ! دعونى الآن أتناول موضوع إثراء الاحترام المتبادل .

قبل أن أصر على أن من الواجب على الغرب أن يُكنّ مزيدًا من الاحترام للقيم والثقافات الأخرى ! دعونا - أولاً - نسلم بأننا خارج الغرب ، نحتاج أيضًا إلى وجهة نظر متوازنة عن الغرب . وإن كان من غير المعقول بالنسبة لعدد كبير من الصفوة عندنا أن يعتقدوا مجرد الاعتقاد بأن كل ما هو جيد يوجد فى الغرب ، وأن كل ما فى الغرب جيد . وبالقدر نفسه من غير معقول ومن سخف القول أن نعتقد الآن أن كل ما هو شرير وسيء موجود فى الغرب ، وأن كل ما فى الغرب سيء وشرير .

والاعتبار المتبادل هو ببساطة كالتالى : هناك الكثير فى الغرب مما يستدعى الاحترام ، وفى الوقت نفسه فإنه من الصواب وفى وقته تمامًا أن تنال آسيا ما تستحقه من اعتبار واحترام .

ويتطلب الاحترام المتبادل ألا نعتبر من لديهم وجهة نظر مختلفة مضللين أو أشرارًا بالضرورة . يتطلب الاحترام المتبادل حدًا أدنى من التواضع من جميع الأطراف ؛ فالدول الغربية لها الحق فى الأفضلية ، ولكن ليس لهم الحق أن يفرضوا بالقوة أفضليتهم هذه على

الجميع ، لهم كل الحق فى اللجوء إلى قوة الإقناع ولكن ليس من حقهم اللجوء إلى الإقناع الذى يتحقق بالقوة .

فى مجتمعات غربية كثيرة هناك مشكلات هائلة خاصة بإدمان المخدرات ، وكثيراً ما يخشى المدرسون طلابهم ، وهناك تخريب مزمن للمنشآت العامة ، وفى بعض هذه المجتمعات عدد أطفال غير شرعيين أكثر من الشرعيين ، وهناك بلاد فيها أعداد ضخمة ممن هم فى سن الثلاثين أو حتى الأربعين والذين لم يعملوا ولو ليومٍ واحد فى حياتهم ! وهناك أماكن يكون حال المتعطل فيها أفضل من أنه لو يعمل ! وهناك أنماط من الديمقراطية يخشى فيها القادة السياسيون أن يفعلوا ما يعرفون أنه صواب لسبب أو آخر . ويعيش الحكام والشعب فى خوف ؛ خوف من وسائل الإعلام الحرة التى يزعمون ويصوت مرتفع أنها فوق النقد ! والحقيقة أنهم مقهورون إلى حد كبير بوسائل إعلامهم مثلما كان الناس فى المجتمع الإقطاعى تحت قهر حكامهم ويعرفون وضعهم التعس ولكنهم لا يجرؤن على رفع أصواتهم ضد مؤسسة راسخة لكبح جماح تجاوزاتها .

ويتصور كثير من القادة الآسيويين فى لحظات الخفة أن لديهم حلولاً لمثل هذه المشاكل ! ولو أرادت بعض البلاد الأوروبية مساعدتهم ونصيحتهم ، فأنا متأكد من أنهم سيكونون على استعداد لأن يقدموا هذه المساعدة ، ولكن حتى الآن ، لم يطرأ على ذهن أى زعيم آسيوى أن يهدد بفرض عقوبات على أية دولة أوروبية تفشل فى ترتيب أوضاعها الداخلية ! وأنا على يقين من أنه لا يوجد برلمان آسيوى واحد قد مرر قراراً واحداً يدعو حكومته لاتخاذ خطوات فى حالة ما لم تتمكن أى دولة أوروبية من إصلاح نفسها ؛ ولو هدد أى زعيم آسيوى أو اتخذ أى برلمان آسيوى أى إجراء فسوف ينظر إليه الغرب على أنه مجنون . وسينظر الغرب للفكرة بأكملها على أنها منافية للطبيعة والعقل ! !

فإذا كان من المنافى للطبيعة والعقل أن يهدد القادة الآسيويون بفرض عقوبات على الأوروبيين عندما يفشلون فى أن يكونوا على مستوى قيمهم ، ومعاييرهم ، أفلن يكون منافيًا

للعقل والطبيعة ، ولو قليلاً ، أن يهدد الأوروبيون بفرض عقوبات على مجتمعات آسيوية مسالمة عندما تفضل معاييرها وأعرافها على المعايير والأعراف الأوروبية؟

ولكننى لم أتلق ردًا عن ذلك وعن أسئلة أخرى كثيرة أخرى سألتها . وكل ما تلقيته هو عتاب عام ، بالرغم من أن ما قلته عن أوروبا ربما يكون حقيقيًا ، وكان الرد هو إن كل ما قلته غير مقبول ! ولم يقولوا إنه «غير حكيم» أو أنه «طيش أو حماقة» ، وإنما غير مقبول ! غير مقبول لأننى ذكرت بعض العيوب الموجودة فى أوروبا على الملأ !

بعد ذلك سألنى مراسل صحفى أوروبى ما إذا كنت أعتقد أن المشاركين الأوروبيين الذين حضروا الندوة (ندوة الاقتصاد العالمى) فى سنغافوره فى ١٣ أكتوبر ١٩٩٤م ، حيث أبديت هذه الملاحظات ، قد أتوا إلى الندوة لكى يستمعوا منى إلى محاضرة . الصحافة الحرة التى تلقى محاضرات على العالم طوال الوقت يبدو أنها لا تعتقد أن من حقى أن أتحدث بحرية .

لقد أنهى المفكر السياسى الشهير صمويل . پ . هنتنجتون مقالته المثيرة للجدل بعنوان «صدام الحضارات؟» -١٩٩٣- بدعوة غير متحمسة للحضارات بأن تتعايش ، أما أنا فلا أدعو للتعايش ، وإنما إلى الإثراء الحضارى المتبادل .

لقد تعلمنا فى آسيا الكثير من الغرب ، ولو توقفنا عن ذلك فسوف نقيد إمكاناتنا . وفى الوقت نفسه علينا أن نتعلم الكثير أيضًا من الشرق ومن بقية آسيا ومن أفريقيا ومن أمريكا اللاتينية ، ومن أفضل ما يقدمه لنا تاريخنا وثقافاتنا . وأعتقد أن أمريكا الشمالية ، أيضًا يمكنها أن تجد قيمة فى هذه الرسالة من أجل إثراء كل منا الآخر ، الإثراء المتبادل ، ومن أجل تجديد شبابنا ، وإعادة اكتشاف أنفسنا .

القيم الآسيوية هى القيم الآسيوية ، والقيم الأمريكية هى القيم الأمريكية ، وكلتاهما يمكن أن تلتقيا ، ومن هذا التلاقى لابد من أن يحدث بعض التفاهم والتقدير لحكمة كل من

الطرفين نأمل أن يتم التزاوج بين كل ما هو صالح وخير فى قيم كل منا ورفض كل ما هو سىء وشرير .

دعونا نقر هنا أن الحكمة ليست حكراً على أحد ، دعونا نستعد بكل إرادتنا للمشاركة بحماسة فى الاحتفال بعيد الحضارات ، حيث يحصل كل منا على أفضل ما يمكن أن نقدمه جميعا ، ولكى نبنى معًا ، ولأول مرة ، حضارة كونية واحدة لم يشهد العالم مثلها من قبل .

١٥ـ نحو آسيا مستقرة *

من وجهة نظرى ، أرى أن آسيا قد حققت مستوى ملحوظًا من الاستقرار ، فهناك اليوم حروب كثيرة فى العالم بينما منطقة شرق آسيا خالية منها ، نعم ، هناك ؛ القليل منها فى آسيا حيث يعيش نصف الجنس البشرى ، وأؤكد لكم أنه ليس هناك سببٌ للشعور بالرضا ولا هناك مبرر للراحة والاسترخاء تحت الأشجار المورقة ؛ إن استقرار آسيا الحالى له خطوط واضحة من الضعف ، وهناك عيوب خطيرة ؛ فبعض الأساسات تحتوى على حديد تسليح وخرسانة أقل ! الاستقرار مهزوز ، والموقف الاستراتيجى فى شمال شرق آسيا أكثر إشكالية من البيئة الاستراتيجية فى جنوب شرق آسيا ، إنه ينذر بحدوث بعض المشكلات الخطيرة التى تحتاج إلى الإمساك بها والتحكم فيها ، ولا أجد مبرراً للظهور بمظهر المنتصر كما أننا لا نقرع طبولاً لإنجازاتنا ، يجب أن نكون متواضعين وألا نغالى فى علو شأننا ، متذكرين دائمًا أن الزهو والكبرياء غالبًا ما يسبقان السقوط .

وفى الوقت نفسه ، يجب أن ندرك أن آسيا كانت مستقرة على مدى ١٥٠ عامًا ، لم نر مثل هذا الهدوء لمدة قرن ونصف القرن ، أمَّا اليوم ، فالمدافع صامتة تقريبًا فى كل ركن وزاوية من شرق آسيا ، لم تنطلق رصاصات عبر الحدود ، وكل ذلك ليس من السهل إنكاره ؛ لأننا فى الـ ٥٠ سنة الأخيرة كنا أكثر المناطق اضطرابًا فى العالم !

لقد مرت كل الدول بحروب أهلية أو حركة عصيان وتمرد ، أو اضطرابات داخلية مدمرة وخطيرة . لقد قتل ملايين وملايين ، وكانت أخطر الحروب التى أعقبت الحرب العالمية الثانية هى الحرب الكورية (١٩٥٠ - ١٩٥٣) وحرب ڤيتنام (١٩٥٤ - ١٩٧٥م)

* ورقة عمل قدمت فى المؤتمر العالمى (نيهون كيزاى شمبون) حول مستقبل آسيا - طوكيو - اليابان ، فى ١٧ مايو سنة (١٩٩٦م) .

وقد كانتا فى إقليم شرق آسيا .

لا خلاف فى أننا قد حققنا الكثير ، وأصبحت آسيا فى معظمها مستقرة ، والمهمة الآن هى تدعيم وتقوية هذا الاستقرار .

ولكى نحقق ذلك ، أعتقد أن هناك ثلاثة أمور بالغة الأهمية يجب تحقيقها وهى ؛ **أولاً** : علينا أن نرسى قواعد سلام تعاونى حميم ودائم بين دول شرق آسيا ، **ثانيًا** : لابد من توفير مجتمع رخاء ودينمية اقتصادية فى منطقتنا ، **ثالثًا** : لابد من توفير العدالة الاجتماعية فى الداخل . . فى كل مجتمعاتنا . هناك أشياء أخرى مهمة يجب عملها بالطبع ، إلا أننى أعتقد أن تلك هى التحديات الرئيسية الثلاثة أمامنا فى العقود القادمة .

دعونى أتناول التحدى الأول بقدر من التفصيل ، وهو تحدى إرساء قواعد سلام تعاونى حميم ودائم .

علينا أن نكون مدركين تمامًا أن السلام لا يعنى عدم وجود حرب فى المنطقة ، ففى أول طرف من سلسلة الحرب والسلام هناك حرب شاملة فى نهاية الطرف الآخر ، ومن حسن حظ البشرية أننا لم نشهد حتى الآن حربًا شاملة ومن سوء حظ البشرية أننا لم نحقق سلامًا شاملاً . وبين الحالتين هناك حرب عنيفة وساخنة ، وحرب باردة ، وسلام بارد ، وسلام حميم وتعاونى . والمهمة العملية أمام قيادة الدولة المستنيرة هى التأكد بشكل دائم من أننا لن ننزلق فى الطريق المنحدر المؤدى إلى الصراع ، والمهمة العملية أمام قيادة الدولة هى محاولة السير فوق الصعاب نحو سلام أفضل ودائم .

لقد نجحنا بالفعل فى القضاء على الحرب فى شرق آسيا ، ووضعت الحرب الباردة أوزارها رغم أن بعض آثارها مازال موجودًا . يجب ألا نكون مستعدين الآن لقبول سلام بارد فى شرق آسيا ، علينا أن نهدف إلى سلام حميم وتعاونى تميزه الصداقة والتفاهم والثقة والنوايا الحسنة فيما بيننا ، ومثل هذا السلام يعتبر جوهريًا بالنسبة لنهضة آسيا التى يجب

علينا أن نرعاها ، ذلك هو السلام الذى يدوم ويصمد .

علينا أن نقدر أن كثيرين قد لا تكون لديهم الرغبة فى ذلك لأسباب مفهومة . وقد لا يكونون متحمسين لهذا السلام التعاونى ؛ لأن لديهم حزازات وأحقاداً لابد من تسويتها ، وأهدافًا شخصية يسعى أصحابها لتحقيقها ، ومصالحَ أفراد يحاولون حمايتها بالإضافة إلى أهداف أخرى يسعون إليها ، وبالرغم من ذلك فإن الأمر يرجع إلينا نحن الذين نؤمن بقرية الصداقة الشرق آسيوية ، وبالتفاهم ، وبالثقة وّالنوايا الحسنة لكى نعمل على تحويل الأمانى التى نحملها فى قلوبنا إلى واقع راسخ على الأرض .

وليس من الضرورى أن نكون كلنا مثاليين وغير واقعيين ؛ حتى نحقق كل ذلك ، والحقيقة أنه يجب أن نكون واقعيين تمامًا ، ولا ينبغى لنا أن نكون حمقى أو قليلى الذكاء أو أن نعتمد على الأمل وحسن الحظ ، نعم لابد من أن نأمل فى الحظ وحسن الطالع ؛ لأن ذلك ما نحتاجه فعلاً . كما يجب ألاّ نتخلى عن السلاح ، بل يجب أن نكون مسلحين بما يكفى لتأمين دفاع كاف ، وهذا قد يعنى بناء القوة العسكرية وللبعض الأخر قد يعنى : خفض التسلح .

كان الرومان القدماء يقولون «إذا كنت تريد السلام عليك الاستعداد للحرب» ، وأخشى لو أننا استعددنا للحرب أن يكون ما نجنيه حتمًا هو الحرب ، ومن حسن حظنا فى شرق آسيا أننا لسنا مضطرين للاستعداد للحرب ، ليس هناك ضرورة لذلك ، ولو فعلنا فسوف نخون وعدنا الذى قطعناه على أنفسنا ، ونخون مستقبلنا بالتالى ، فما يجب أن نفعله حقًا هو النضال من أجل السلام الذى ننشده .

ومن وجهة نظرى أن بناء سلام شرق آسيا على أساس من توازن القوة العسكرية ليس ممكنًا ، ولا أنصح به ، فهو ليس بنَّاءً ولا يؤدى إلى سلام تعاونى ودى ودائم وهو ما يجب أن نعمل من أجله .

والسبب فى أنه ليس ممكنًا هو أن معظمنا لا يمكنه تحمل التكاليف الباهظة التى يمكن أن ينطوى عليها ، هل نستطيع كلنا بناء آلة عسكرية يمكن أن تحقق توازنا مع الإمكانيات العسكرية للصين؟ ثم من الذى يمكنه أن يبارى القوة العسكرية للولايات المتحدة التى هى قوة عسكرية فى شرق آسيا؟ كيف يمكن لكوريا الجنوبية أن تتوازن عسكريًا مع اليابان؟ هل تستطيع تايلاند التوازن العسكرى مع ڤيتنام؟ هل تعمل كمبوديا للتوازن عسكريًا مع الصين؟ هل تعمل بروناى للتوازن عسكريًا مع إندونيسيا؟ وبأى هدف؟ أستطيع أن أرى تجار السلاح يفركون أيديهم فرحًا وبهجة لمجرد التفكير فى هذا الأمر ! ! ياله من سيناريو مدهش ! ولننس موضوع التوازن العسكرى هذا ونتأمل كشف الحساب !

فى مقدورى استيعاب رد فعل المتحمسين لتوازن القوى المطلق وغير المحدود ، وإن لم تستطع دولة بمفردها صنع توازن القوى معتمدة على إمكانياتها ، فيمكنها صنع حلفاء ، ولكن من سيوافق على التحالف ضد الصين؟ من سيوافق على التحالف ضد الولايات المتحدة؟ من سيوافق على التحالف ضد اليابان؟ ومن سيفعل ذلك ضد إندونيسيا؟

وهناك جدل قوى دائر ضد مفهوم توازن القوى التقليدى ، إنه غباء ! ؛ فما جدوى أن يحاول كل طرف أن يتوازن ضد كل طرف آخر؟ ما هى الأعباء والتكاليف النفسية ؛ أى ما يترتب على ذلك من شكوك وتآكل الثقة والمصداقية عندما نبدأ فى التسليح حتى نتعامل مع بعضنا وضد الجميع؟ وكما قلت من قبل لو عاملنا الدول على أنهم أعداء الغد فسيصبحون أعداء اليوم وبسرعة . ولو كان سلوكنا اليوم فى التعامل مع تهديدات الغد المتخيلة ، فإن ما نتخيله سيتحول إلى حقيقة واقعة - قبل أن يأتى الغد ، وسندهش كيف أن التهديدات المحتملة تتحول إلى تهديدات حقيقية .

هل السلام الحقيقى يتحقق بعملية توازن القوى المدمرة هذه؟ ولو أن كل شىء مضى فى هذا الاتجاه وحققنا نجاحًا عظيمًا ، فإن ما سنحققه هو دمار وإفلاس الاقتصاد ، وإفقار المجتمعات ولن نحصد سوى السلام البارد العقيم ، فلماذا نصبوا إلى سلام بارد ومجدب ،

خاصة عندما يتوفر لدينا فرصة تاريخية ؛ لكى نضع التاريخ وراء ظهورنا ونبنى سلامًا تعاونيًا ووديًا وأن نعيش فى وئام مع جيران طيبين .

أعتقد أننا لو أردنا سلامًا حقيقيًا لوجب علينا أن نستعد للنضال من أجل سلام حقيقى ، بكل الإصرار والعزم والإبداع الذى ندخره عادة لشن حرب مدمرة ، وأعتقد أيضًا أن أنسب الأوقات لصنع السلام وبنائه هو عندما لا نكون فى حاجة ماسة إليه ، وعندما تهدأ التوترات ، وعندما تسترخى الأمم ، فى هذه الظروف يستطيع السلام أن يمضى قدمًا ، علينا أن نسرع عندما تشرق الشمس ؛ لأنه من العسير علينا البهجة عندما تتجمع السحب العاصفة فى السماء ، وعندما ينهمر المطر يكون قد مضى وقت البهجة .

علينا أن نتحرك فى شرق آسيا الآن و ألا نتخلى عن إصرارنا وعزمنا على المضى قدمًا . وأفضل السبل للتقدم فى طريق صنع السلام التعاونى الصادق الذى نريده ؛ هو التقدم على كل الجبهات ، يجب أن يبذل كل طرف منفردًا كل ما يستطيع من جهد لتقليل التوترات وحل الصراعات وخلق الثقة ، كما يجب ألا ننسى المثل العربى القديم : «لو كنس كل فرد أمام منزله لأصبح الطريق كله نظيفًا» .

ثانيًا : يجب أن نعمل بشكل ثنائى وثلاثى ومتعدد الجوانب لصنع السلام والصداقة ، سيحل السلام بكل إقليم شرق آسيا لو كنا أصدقاء تجمعهم علاقة جوار طيبة .

وأعتقد أن هذه العمليات يجب دعمها ، ومساندتها بجهد إقليمى ، وخاصة أن العملية الإقليمية لن تسهم فى صنع السلام فقط ، بل وفى دفع وتقوية الرخاء الاقتصادى .

لست متأكدًا ما إذا كانت عمليات المجموعة الاقتصادية الأوروبية فى أوروبا قد خدمت المصالح الاقتصادية لأوروبا الغربية أم لا . وليس عندى شك فى أنها حققت هدفها الأولى . . . وهو هدف صنع سلام وصداقة بين أعداء جلبوا على هذا الكون حربين عالميتين فى هذا القرن . ولا يجب أن نقتفى أثر أوروبا على هذا الطريق ؛ فنحن لا يمكننا

ذلك ، كما أنه ليس مجديًا ! وإنما يمكننا أن نتبع المثال الأوروبى ، ويمكننا أيضًا أن نسترشد بمثال أقرب إلينا .

فى عام ١٩٦٧م أى قبل جيل سبق تقريبًا ، قامت خمس دول فى جنوب شرق آسيا برحلة تاريخية غير مسبوقة من أجل إقليمية ؛ لقد عاشوا جنبًا إلى جنب على هيئه كيانات سياسية لمئات السنين ؛ ولكنهم كانوا يعيشون فى عزلة ، إندونيسيا كانت تحت السيادة الهولندية . وماليزيا وسنغافوره تحت الحكم البريطانى . والفيلبين كانت أولاً تحت الحكم الإسپانى ، ثم الأمريكى . تايلاند فقط لم تكن مستعمرة ، إلا أنها تعرضت لأعمال استعراض القوى ، وكانت هذه الدول غرباء عن بعضها بالرغم من أنهم كانوا يعرفون بالتفصيل كل شىء عن أمور بعيدة عنهم تمامًا فى أوروبا ! لقد انتقلت كل مظاهر التكبر والصلف الأوروبى من الأسياد المستعمرين إلى الشرق ، فمارسوا كل تلك الصور فيما بينهم

وفى بداية الستينيات كانت هناك توترات شديدة بين العديد من هذه الدول ، كانت هناك حرب أقل كثافة تسمى مواجهات - شنتها إندونيسيا ضد ماليزيا وسنغافوره ، وكانت إندونيسيا دولة عظمى أكبر بالنسبة لأعضاء الآسيان الآخرين ، كانت أكبر من الصين بالنسبة لبقية شرق آسيا .

وفى عمل إقليمى قررت خمس دول فى جنوب شرق آسيا التحرك لوضع حد لشكوكهم ومخاوفهم وعداواتهم ، فارتأوا رغم صعوبة الأمر ، أن الوقت قد حان ليحاولوا أن يصبحوا أصدقاء ، وتجمعوا فى بانكوك وأسسوا منظمة دول جنوب شرق آسيا المعروفة باسم الآسيان .

والآسيان حاليًا منظمة تضم سبع دول (بانضمام بروناى فى عام ١٩٨٤م وڤيتنام فى عام ١٩٩٥م) وقبل نهاية هذا القرن ، تتطلع الآسيان لأن تكون منظمة مكونة من عشر دول وذلك بعضوية لاوس وميانمار وكمبوديا .

ومن الجدير بالذكر أن الآسيان الآن منطقة سلامٍ حقيقى ، ومجتمع سلامٍ تعاونى ثابت وودى . كانت الرحلة طويلة ولم يكن الطريق سهلاً ولكننا ثابرنا وكان الناتج لا يقدر بثمن !

ويرجع الفضل لمجموعة الآسيان فى أننا لم ننضغط لكى نصبح قطع دومينو تتساقط الواحدة تلو الأخرى بعد سقوط سايجون ، وبسبب موقفنا الصارم مع كمبوديا ، إذا طبقنا القانون وأرسينا بحزم قواعد الممارسة السلمية والمواطنة الصالحة فى جنوب شرق آسيا . وبفضل الآسيان أصبح صوتنا الجماعى مسموعًا ، وكانت الآسيان هى المنظمة الآسيوية المناظرة للأوروبيين فى القمة الآسيوية الأوروبية التى عقدت فى بانكوك قبل شهرين ، كما أن الآسيان هى قلب المنتدى الإقليمى .

لا يمكن إنتاج نسخ مطابقة تمامًا لأى نموذج ، ولا ينبغى ذلك . وإنما تبين النماذج ما يمكن عمله وطريقة عمله؟

وعندما قررنا فى جنوب شرق آسيا أن نبنى مجتمع سلامٍ ، بدون رجال شرطة ؛ لأن الجميع سيتصرف بطريقة تتناسب وحسن الجوار ، كانت الظروف فى الإقليم فى عام ١٩٦٧م أقل ملائمة من الظروف فى شرق آسيا اليوم ، وأعتقد أنه قد حان الوقت للبدء فى إجراءات الإدارة الإقليمية لشئون شرق آسيا التى عقدت العزم على المضى فى الطريق الطويل نحو سلام حقيقى ونحو صداقة بين دول شرق آسيا .

وهذا لا يتطلب أن نديرظهورنا لأى صديق من أصدقائنا ؛ سواء الجدد أو القدامى ولا يعنى إهمال الاستعداد العسكرى ، ولا يعنى هجر الأشياء الإيجابية الموجودة بالفعل وتشارك فى دعم السلام بيننا ، بل ويجب دعمها .

وهذا يعنى أن رحلة الألف ميل يجب أن تبدأ ، ويجب أن تبدأ بلقائنا جميعًا ، أن نتحاور معًا على أعلى المستويات لأول مرة فى تاريخ البشرية على أساس المساواة والاحترام

المتبادل ، بشجاعة فى قلوبنا وصداقة فى عقولنا .

أعتقد أننى قد تكلمت أكثر مما ينبغى عن التحدى الأول الذى يواجه الاستقرار الآسيوى ، دعونى أتناول فى عجالة **التحدى الثانى** : وهو تحدى إقامة إقليم الرفاهية التعاونية ، والدينمية الاقتصادية .

ومرة أخرى ، التأكيد على الأحادية ؛ أى على أن كل ما يمكن أن تفعله كل دولة لنفسها ، يعتبر أمرًا رئيسيًا . فبالرغم من كل ما يقال عن الاقتصاد بلا حدود والعولمة الدينمية الاقتصادية ؛ إلا أن الرفاهية مازالت تصنع داخل الوطن ؛ داخل كل دولة وضمن كل اقتصاد ، وعلينا أن نستمر فى وضع كل النظم الاقتصادية تحت السيطرة ، ويجب أن نستمر فى متابعة السياسات الإنتاجية التى تدفع شعبنا للعمل الجاد والشاق وأحيانًا إلى ما يصل إلى الأعمال الفذة والبطولية الخارقة .

ومن أعظم الأخطار التى تهدد الرخاء الكونى ظهور الروح التجارية الجديدة والحمائية الجديدة مدفوعتين بسياسات : «اعمل على إفقار جارك» ، إذن علينا أن نستمر بنصف وعى ونصف لا وعى ، فى سياسة : «اعمل على ازدهار جارك» ، تلك السياسة التى أفادتنا كثيرًا فى شرق آسيا ، وأكرر مرة أخرى بأنه يجب علينا ألا ننسى الإسهامات الثنائية والثلاثية والمتعددة فى خلق مجتمع الرفاهية التعاونى .

وبالطبع يجب ألا نهمل ما يجب عمله على المستوى الكونى (فى منظمة التجارة العالمية وأى جهة أخرى) على المستوى دون الإقليمى (فى الآسيان) وعلى المستوى الإقليمى الأعلى (فى الدول الآسيوية المنتجة والمصدرة) وعلى مستوى عبر القارة ، كما يجب ألاَّ ننسى المستوى الإقليمى ؛ أى ما نحاول أداءه معًا فى آسيا .

ومرة أخرى فإن الخطوة الأولى التى يجب أن نبدأ بها هى أن نتعامل و نتحاور معًا فى عدد كبير من المسائل المهمة . وقد أسهبت فى القول إنه قد حان الوقت لدول شرق آسيا أن

تلتقى وتناقش مسألة السلام والصداقة ، بل الرخاء المشترك والدينمية الاقتصادية الجماعية كذلك ، ولقد شجعنى فى ذلك ما يحدث الآن .

فى شهر يوليو عام (١٩٩٤م) اجتمع وزراء خارجية دول الآسيان بالإضافة إلى الصين واليابان وكوريا الجنوبية عقب مؤتمر الآسيان الوزارى الذى عقد فى بانكوك . وفى شهر يوليو عام ١٩٩٥م اجتمع وزراء خارجية الآسيان بالإضافة إلى الصين واليابان وكوريا الجنوبية عقب مؤتمر الآسيان الوزارى فى بروناى . وفى فبرايرعام ١٩٩٥م اجتمع وزراء خارجية الآسيان بالإضافة إلى الصين واليابان وكوريا الجنوبية للإعداد والتخطيط للمؤتمر الأول لرؤساء دول أسيا وأوروبا .

وأنا على ثقة تامة من أنه فى يوليو القادم سيلتقى فى إندونيسيا وزراء خارجية دول الآسيان بالإضافة إلى الصين واليابان وكوريا الجنوبية مرة أخرى ، وأرى أنه من الطبيعى جداً أن يلتقوا وإنْ لم يلتقوا فسيكون ذلك فى الحقيقة هو أمر غير طبيعى .

وهناك اجتماعات دورية ومنتظمة لوزراء اقتصاد دول الآسيان مع وزير التجارة الدولية والصناعة اليابانى . وقد تشكلت بالفعل مجموعة عمل للتعاون الاقتصادى فى الهند الصينية ومايانمار فى سبتمبر (١٩٩٤م) .

وفى أوزاكا فى نوفمبر (١٩٩٥م) التقى وزراء الاقتصاد الآسيان فى اجتماع مشترك مع وزراء اقتصاد كل من الصين واليابان وكوريا الجنوبية لأول مرة .

وكبار المسئولين لدينا فى مشاروات دائمة بطبيعة الحال ، قد اقترحت تايلاند فى قمة الآسيان فى بانكوك مؤخراً أن تنظم ماليزيا أول لقاء يضم كلا من دول الآسيان والصين واليابان وكوريا الجنوبية من أجل التنمية التعاونية لحوض ميكونج الكبير . واقترح رئيس وزراء سنغافوره جوه تشوك تونج فى خطابه الافتتاحى أن يدعى لقمة قادة القادة الآسيان غير الرسمية والذى سيعقد فى چاكارتا فى ديسمبر من هذا العام أيضًا ، قادة كل من الصين

واليابان وكوريا الجنوبية لحضورها .

دعونى أعترف أنه عندما أنظر للوراء فى تاريخ المجموعة الاقتصادية لشرق آسيا وفى تاريخ التجمع الاقتصادى لدول شرق آسيا . أتذكر كلمات شكسبير فى « روميو وچوليت» : ماذا فى الاسم؟ فالذى ندعوه بالوردة ، سوف نشم منه تلك الرائحة الذكية تحت أى اسم ! !

واسمحوا لى أن أتكلم عن **التحدى الثالث** المحورى للاستقرار الآسيوى ، والخاص بتأكيد العدالة الاجتماعية فى الوطن ، والعناصر الرئيسية فى هذا التحدى ربما تختلف جزئيًا بين دولة وأخرى ؛ فالتحديات كثيرة جدًا ، ولا تحصى ، وتتراوح من تأمين أجر مناسب للعمال إلى توزيع عادل للدخل ، والقضاء على الفقر ، وإقامة نظم قضائية وإرساء حكم القانون ، إلى تطور الأنظمة السياسية بما فى ذلك ضرورة وجود الأشكال الديمقراطية للحكم ، والمشاركة العادلة العامة فى الاقتصاد ، وأيضًا مشاركة الجميع فى النظام الثقافى والاجتماعى والسياسى .

ومن الواضح أنه مهما بذلنا من جهود طيبة على المستويين الدولى الإقليمى لخلق قرية كونية جيدة وجوارٍ ودى ومزدهر ، فيجب ألا ننسى أبدًا أن الاستقرار الحقيقى يبدأ فى الداخل ؛ أى الجهد الذى يبذله كل منا داخل بيته لتحقيق هذا الاستقرار .

معظمنا الآن يشكل قصص نجاح عظيمة ، بينما كنا فى الماضى أمثلة فشل كبيرة ، ولقد أنجزنا أعمالاً ضخمة فى مواجهة فشلنا ، ومن أجل تحقيق نجاحات عظيمة ، وعلينا الآن أن نبذل تلك الجهود العملاقة فى مواجهة نجاحاتنا ، وفى بناء مزيد من النجاح فوق النجاحات العظيمة . إن مشكلات النجاح يمكن أن تكون هائلة ولا يمكن تصورها ، مثلها مثل مشكلات الفشل . ولابد من أن أقر بأننى سأكون أسعد بكثير عندما أتعامل مع مشكلات النجاح الكبير عنه مع مشكلات الفشل .

ومن المؤسف حقًا أن نقر هنا بأن هناك محاولات متعمدة للتقليل من شأن ما تمكنت

آسيا من إنجازه على مدى الجيل السابق . هناك ترويج مكثف للتهديدات فى شرق آسيا ، وهناك أخطر محاولة لإلقاء الماء البارد على معجزة شرق آسيا بأكملها ؛ وكلمة معجزة هذه لم نستخدمها أبدًا لأنها تبدو وكأنها تفسر إنجازاتنا كما لو كانت قد تحققت بفعل السحر وليس نتيجة العمل الشاق والدم والكدح ودموع شعبنا .

إلا أن للماء البارد منافعه كذلك ؛ فهو مفيد خاصةً مع البعض منا من أصحاب الرؤوس الكبيرةالتى تبدو أكبر بكثير من أجسامهم .

وفى الوقت نفسه ، دعونا لا نركن إلى التفاؤل والتواكل وفقدان الثقة . . لدينا كل ما يدعونا إلى الثقة بأنفسنا ، هيا نمضى للأمام معًا ، مسلحين بالآمال فى المستقبل ومحصنين بالرغبة فى العمل معًا ؛ لنبنى وطنًا شرق آسيوى عظيمًا لكل شعوب شرق آسيا ، وطنًا منتجًا لمصالحنا ولمصالح البشرية .

وهكذا يمكننا تحقيق السلام والاستقرار لنصف آسيا ، ويمكننا حينئذ أن نركز على بقية آسيا ، وبإذن الله ستصبح آسيا بأكملها مستقرة ومزدهرة .

١٦- حَقِيقَةُ بَعْثِ آسْيَا *

إن تأسيس هذا المعهد وإنشاء كرسى الدراسات الملايويّة فى جامعة ڤيكتوريا فى ويلنجتون ، يدل على الرغبة فى معرفة المزيد عن آسيا والحاجة من جانب نيوزيلندا والنيوزيلنديين أن يمدوا صلات القرابة مع جيرانهم الشماليين . ونحن نرحب بهذا التغير ؛ لأن نيوزيلندا لا يمكن أن تعتبر نفسها جزءًا من أوروبا بينما هى فى موقع بعيد عنها ! كان النيوزيلنديون فى الماضى يمرون بآسيا فى طريقهم إلى أوروبا وإلى بريطانيا بالتحديد . وكانت التجارة أيضًا مع أوروبا ؛ لأن الآسيويين كانوا يفضلون القطن على الصوف الذى تنتجونه ، ويأكلون الأرز أكثر من القمح ، والزبدة النباتية أكثر من الزبدة الطبيعية والجبن . وكانت الصناعة الآسيوية فى مهدها ولا تحتاج إلى المواد الخام التى تنتجونها ، كما أن الهجرة الآسيوية إلى بلادكم والاستقرار فيها كانت ممنوعة .

ولكن الماضى ذهب ، وتغيرت أشكال السوق وأنماط التجارة وتنتج أوروبا الآن كل الأطعمة التى اعتادت على استيرادها من الجانب الآخر من الكرة الأرضية ! وسياسيًا ؛ توقفت نيوزيلندا عن القربى البعيدة القائمة على أساس عرقى . وحل التقارب الجغرافى والإقليمى محل الروابط التاريخية ، حتى رابطة الكومنولث فقدت مكانتها فى المشروع البريطانى .

ومن ناحية أخرى ، فقد بزغت آسيا وخاصة شرق آسيا بوصفه إقليمًا دينميًا ولم يعد الناس فى شرق آسيا أكثر رغدًا ، ولكن سبل معيشتهم فى الحياة تغيرت أيضًا ،فقد عرفوا المربى والجبن ، والخبز والنبيذ والمحار واللحم المشوى ، كما أن الصوف بكافة أنواعه أصبح

* ورقة عمل قدمت فى الافتتاح الرسمى للمعهد الآسيوى- النيوزيلندى فى جامعة أوكلاند- نيوزيلندا ، فى ٢٨ مارس (١٩٩٦م) .

القمـاش المفضل فى صناعة الملابس وأضحى مخلوطًا بالألياف الصناعية بالطبع . صناعاتهم الناشئة فى حاجة إلى الفحم وخام الحديد من هذا الجزء من العالم ، تنقلهم خطوط طيرانهم لقضاء الأجازات فى الجنوب ، حيث اشتروا العقارات والمنتجعات وأعمالاً تجارية أخرى .

وربما يكون من الضرورى لنيوزيلندا أن تلاحظ وترصد وتتكيف ، ويجب أن تتغير مفاهيمها وأفكارها عن آسيا ، ومن ثمَّ إلى إرساء قواعد علاقة جديدة ويعمل على تنميتها و معهد كهذا من شأنه أن يخدم غرضًا مفيدًا كما يجب أن يساعد فى تنوير نيوزيلندا ، وتعريفها الصحيح بآسيا ، وجمع النيوزيلنديين والآسيويين معًا فى جو طبيعى . ونحن نعتقد أن النيوزيلنديين لن يجدوا أية صعوبة فى تعديل مواقفهم ويجب أن تسهل الثقافة النيوزيلندية ذلك ؛ هذا لأن النيوزيلنديين ودودون بطبعهم وكرماء . وبالرغم من أن النيوزيلنديين الأصليين لديهم من الأسباب ما يجعلهم غير سعداء بأعدادهم القليلة ؛ إلا أنهم على الأقل مازالوا موجودين ، ففى بعض الدول ؛ تم القضاء على السكان الأصليين ومحوهم من على وجه الأرض سواء عن عمد أو خلافه وذلك على يد المستوطنين الجدد ، والدليل على مدى تسامح النيوزلنديين . أن السكان الأصليين فى نيوزيلندا يطالبون اليوم بحقوقهم ، وبالفعل تمت الموافقة على بعضها .

ولذلك فإنه من السهل على النيوزيلنديين أن يتوافقوا مع الواقع الجديد فى آسيا . وآسيا – بطبيعة الحال – ليست متجانسة مثل أوروبا ، والآسيويون ليسوا آسيويين بسبب العرقية وإنما لأنهم ينتمون إلى كيان جغرافى . ولكنهم مختلفون سوى ذلك عن بعضهم اختلافًا كبيرًا ؛ مختلفون فى اللون والثقافة والتاريخ والدين واللغة أشياء أخرى كثيرة . ومع ذلك ، ورغم كل تلك الاختلافات فإنهم يصنفون على أنهم آسيويون ! ربما كان الأوروبيون هم الذين صنفوهم على هذا النحو ، ومع ذلك فإن الآسيويين لديهم إحساس ضعيف بالوحدة إلا أنه يمكن أن يتطابقوا بسهولة خصوصًا فى وجود الأوروبيين .

وتشير الدلائل التاريخية إلى أن الحضارات الأولى قامت فى آسيا ، وبالتأكيد فإن الحضارة الأوروبية تدين بالكثير لانتشار المسيحية وهى إحدى ديانات التوحيد الرئيسية الثلاث التى جاءت أصولها من غرب آسيا . وربما تكون حضارة حوض البحر المتوسط أقدم من المسيحية ، ولكن فى ذلك الوقت كان فى آسيا العديد من المجتمعات المتحضرة ، أمَّا أوروبا فكانت ماتزال بدائية .

إن حاجاتنا إلى احترام الآخرين لنا ومعاملتنا على قدم المساواة لا تنتج منْ ماضينا التليد وتاريخنا المجيد ، لكن أهمية هذا الماضى العظيم تكمن فى أننا قادرون على تحقيق إنجازات عظيمة فى الحاضر أيضًا ! وإذا كان لآسيا فى الماضى حضارة أعظم من حضارة أوروبا آنذاك أفلا يمكن أن تصبح متقدمة مثل أوروبا الآن؟ لا يوجد شيءٌ فى تكوين الآسيويين يجعلهم أقل شأنًا كما لا يوجد شيء فى تكوين الأوروبيين يجعلهم أكثر تفوقًا .

التاريخ ملىء بالإمبراطوريات التى ظهرت تقريبًا من المجهول ؛ ازدهرت وامتدت إلى حد العظمة ، ثم تلاشت وانزوت . وظهرت فى مكانها إمبراطوريات وأمم عظيمة ، بدت لفترة وكأنها خالدة ستظل إلى الأبد ، ولكنها تعثرت مثل غيرها وضعفت وتفككت .

من المؤكد أن هناك عوامل لذلك ، وهذه العوامل لا يمكن أن تكون غامضة لدرجة لا يمكن تعلمها ، أو حذوها ، وبإمكان أى دولة أو قارة أن تطبق دروس الماضى ، لتحقيق العظمة ، أو على الأقل درجة منها ، ولكن شرط تحقيق ذلك هو تحليل تلك العوامل التى توثر على الحضارات .

لقد حققت أوروبا العظمة ؛ لأن الأوروبيين كانوا مستعدين للعمل والتقدم بروح المغامرة إلى الأمام وأن يتحملوا المخاطر ويقبلوها ، لقد أبحروا آلاف الأميال من سواحلهم وراء التجارة . لم ينطلقوا من بلادهم لبناء الإمبراطوريات لكن الإمبراطوريات هى التى دفعت إليهم دفعًا ، لقد وجدوا البلاد التى يريدون الاتجار معها ضعيفة ، ومحطمة ، جاهلة

و تحكمها الخرافة ؛ أهلها سذج ويسهل خداعهم ، ومستعدين للاستسلام والإذعان ! ووجدوا أنهم لكى يتنافسوا مع الدول الأوروبية لابد من إقامة مراكز تجارية توسعت وأصبحت مناطق شاسعة ثم إمبراطوريات .

وحققت الدول الآسيوية العظمة بكثير من الحماسة نفسها ، رغم أنهم كانوا أقل اهتمامًا بالتجارة ؛ فقد انطلقوا لنشر الدين والاستيلاء على الأراضى ، وكرس العرب والأتراك والمغول كل جهودهم للغزو وغنائم الحرب وحملوا الثروات والعبيد والنساء معهم ، كانوا مغامرين لا يعرفون الخوف ولا الرحمة وتمكنوا من بناء إمبراطوريات تفاوتت فترات بقائها . وغزا العرب وبنوا حضارات عظيمة ، ثم انكمشوا وتشرذموا ، واليوم مازال العرب الآسيويون يحتلون شمال أفريقيا ، وهى أراضى لم تكن للأفارقة الذين نعرفهم اليوم ، بل كانت لشعوب حوض البحر المتوسط بمن فيهم الفينيقيون والآشوريون وآخرون غيرهم .

وكانت الإمبراطورية الفارسية فى حالة مد وجزر فى تنافسها مع البيزنطيين فى الشرق ، ثم بعد ذلك مع العرب المسلمين ، لم يُهزم الفرس ، ولكنهم قبلوا دين العرب ، وإن كان فى شكل مختلف . ومن ذلك الوقت وحتى الآن والصراع بين الأديان أكثر مما هو بين الإمبراطوريات .

ثم أتى الترك ؛ الشعوب القبلية من الصين الغربية ، وآسيا الوسطى وتحركوا غربًا عبر سهول آسيا الوسطى مؤسسين دولاً جديدة ، ومضوا لا يوقفهم أحد . وسقطت أوروبا الشرقية فى يد الأتراك العثمانيين الذين دخلوا الإسلام وارتضوه دينًا لهم ، وظل العثمانيون لمدة طويلة أقوى قوة آسيوية لدرجة أن أوروبا كانت ترتجف رعبًا عندما لوح سلطان تركيا بسيفه المرصع بالجواهر فى وجهها !

وأسس الأتراك فى آسيا الوسطى دولاً وأممًا عظيمة ، مثل : كازاخستان ، وأوزبكستان وتركمانستان وأذربيجان وشيشينيا وإنجستيا وغيرها ، وشعوبًا أخرى بزغت وازدهرت ؛

لأنها تشكل جزءًا من طريق الحرير ، وقد حققت هذه الدول تقدمًا علميًا ، وثقافيًا ، وهكذا صعدت وانهارات إمبراطوريات يقودها قادة عظام أمثال : تيمور الأعرج والمعروف فى الغرب باسم تيمورلنك .

أمَّا أعظم الإمبراطوريات فى آسيا فقد كانت للمغول ؛ وهم شعب قبلى بدائى مقسم إلى قبائل صغيرة من الرعاة القطعان ، ولم يكن المغول يتميزون بشىء يؤهلهم لبناء إمبراطورية عظيمة ؛ ولكن رجلا يدعى «چنكيز خان» وهو زعيم قبلى ، ظهر وشق طريقه لزعامة كل المغول ، وجمع حوله جيشًا مسلحًا من الفرسان الذين تمكنوا وبسرعة من هزيمة الأتراك والعرب والفرس والروس والأوروبيين الشرقيين ، ليبنى أعظم إمبراطورية فى التاريخ ممتدة من شواطئ المحيط الهادى الصينية إلى موسكو فى الشمال والبلقان فى الغرب . ودمر چنكيز خان - الذى لم يعرف معنى الرحمة ، والذى تميز بالقسوة والغلظة - كل شىء فى طريقه ، يقتل مئات الآلاف من الناس الذين غزا بلادهم ؛ ويغتصب النساء ، ويبيح مدنهم للنهب والسلب والاستعباد .

ولكن هذه الإمبراطورية كان عمرها قصير ، على الأقل باعتبارها إمبراطورية مغولية ومع الجيل الثالث من عائلة چنكيز خان تمزقت تلك الإمبراطورية ، ولكن قبل أن تهوى تأسست دول عظيمة فتوحدت الصين على يد «كوبلاخان» وبقيت أمة واحدة فريدة حتى يومنا هذا ، وهى التى كانت قد تفتت ذات يوم إلى عدد من المقاطعات المستقلة نسبيًا ، يحكمها قادة عسكريون . أما فى الهند فتأسست إمبراطورية المغول التى ساعدت فى خلق هند واحدة موحدة من العديد من الإمارات والتى كانت تملأ شبه القارة الهندية الشاسعة فى السابق .

وتدين تركيا الحديثة بشىء ما إلى المغول ؛ لأن المغول دخلوا أيضًا فى الإسلام وامتزجوا بالشعب التركى الأصل . ولهذا فإن شعب آسيا الوسطى ومعظمة من الأتراك يحمل ملامح منغولية ، وكما يبدو كثيرون أقرب للصينيين فى ملامحهم من الهند

والأوروبيين . ربما تكون الإمبراطورية المنغولية قد تفككت واختفت ، أما منغوليا الحديثة فقل عنها أى شىء إلا أن تكون إمبراطورية ، وبالرغم من ذلك ومع هذا فإن المغول تركوا أثراً لا يمحى فى كل البلاد التى غزوها !

والسؤال الذى يبحث عن إجابة هو : كيف تمكنت قبيلة من الرعاة البدو الرحل المتخلفين من إنجاز كل هذه العظمة؟ الإجابة تكمن فى مهارتهم فى نقل وإمداد وتموين الجنود ، فقد سبقوا المدرعات الألمانية والأفواج المتحركة والمدربة تدريبًا راقيًا التى أدهشت الأعداء بصفة خاصة ؛ لأن قوات الفرسان المغولية السريعة كانت تعادل أفواج المشاه الميكانيكية الألمانية فى التسليح الخفيف وسرعة الحركة . ولم تتمكن القوات الأوروبية المزودة بأسلحة ثقيلة فوق جيادهم المدرعة من التحرك بسرعة للهرب من ضربات سيوف المغول الخاطفة ، وعلى الجانب الآخر كان المغول فى غاية البراعة فى تسديد سهامهم وهم على ظهور جيادهم المنطلقة بأقصى سرعة ، فى تقسيمات غاية فى التنظيم فى وحدات من عشرات ، ومئات ، وآلاف وعشرات الآلاف ، فى خطوط متتالية متميزة ، وقدراتهم العالية فى تحريك أعداد كبيرة من الجنود والعتاد بسرعة فائقة ، وأسهم كل ذلك فى نجاحهم . إلا أن السؤال مازال قائمًا وهو : كيف تمكن جنس بدوى بدائى من الرعاة من تطوير تلك القدرة العسكرية والقتالية المدهشة لهزيمة وقهر كل من يقف فى طريقهم؟ ذلك هو لغز المغول المحير ! وبالتأكيد فإن أى مهتم ببناء الأمم لابد وأن يتعلم شيئًا من خبرة المغول .

ولكن آسيا أكبر من أن تكون فقط الترك والمغول والفرس والعرب ، فهناك حضارة الصين ذات الأربعة آلاف سنة ، وقد تقدمت المملكة الوسطى فى الفنون والعلوم ، وهى حضارة عرفت التقدم التكنولوجى ، فى حين كان الأوروبيون يعيشون فى الكهوف ويرتدون جلود الحيوانات !

والحضارة اليابانية عمرها ٢٦٠٠ عامًا ، والحضارة الكورية لا تقل عنها كثيراً ، وحتى

فى الحضارة الملايويَّة القديمة كان هناك سرى فيجايا ، وماجا پاهيت وهى بعض حضارات الشعب البنى على سبيل المثال لا الحصر .

ولكن ، لماذا أقص عليكم هذه الحكايات عن الإمبراطوريات الآسيوية السابقة ، وعن نجاحاتها؟ ذلك لأنى أعتقد أن الشعب الذى صنع ذلك فى الماضى يمكن أن يصنعه الآن ، وأبادر بالقول إن الدول الآسيوية لن تنطلق لغزو العالم مرة أخرى لكى تبنى إمبراطوريات ، ولا أظن أن الصين واليابان سوف أو يجب أن تخوضا غمار حروب للغزو من أجل إعادة تأسيس القدرات ؛ والعظمة الآسيوية .

الإمبراطوريات لا تقام بهذا الأسلوب الآن ؛ فالغزو والاحتلال أشياء من الماضى ؛ والبلاد التى يتم غزوها تصبح عبئًا على الغزاة اليوم ، ولن تظل طويلاً مستعمرات أو تابعين أذلاء فسرعان ما سيقاتلونكم ؛ يحاربون ويستنفدون ثرواتكم ، وفى النهاية يحصلون على استقلالهم ويطالبونكم بكل مرارة وكراهية بتعويضات عن كل ما ألمَّ بهم من وحشية وقسوة ، سواء أكان ذلك حقيقة أم افتراء أثناء استعماركم لهم .

أما الإمبراطوريات الحديثة فهى اقتصادية صنعتها التجارة والعلاقات الاقتصادية ، وغالبًا ما يكون هناك هيمنة وسيطرة سياسية أيضًا بالرغم من أن الاحتلال العسكرى فى أى شكل من الأشكال غير وارد ، كما أن التجارة لا تكون إلا مع الدول المزدهرة اقتصاديًا ، لذلك فإن مساعدة أى دولة على أن تزدهر معناه أنكم تساعدون أنفسكم ، فالدول المزدهرة هى التى تصنع أسواقًا جيدة لصادراتها .

الدول الآسيوية تسعى إلى بناء مثل تلك الإمبراطوريات ، وتكون مقصورة عليهم إن استطاعوا ، ولكنها عادة بمشاركة آخرين ؛ الآسيويين والأوروبيين أو الأمريكيين ، ولقد وجد الآسيويون صيغة أكثر مساواة وأهون من الإمبرياليَة ، **فأول** شىء : عليهم أن يفعلوه هو ترتيب بيوتهم ، عليهم أن يحكموا بلادهم جيدًا ، ويرعوا شعوبهم ، ويذل أقصى جهد

لمساندتهم ، وعليهم تشكيل حكومات شعبية من خلال أساليب ديمقراطية .

وعندما يتحقق الاستقرار السياسى ، عندئذ يمكنهم التركيز على التنمية الاقتصادية . ولابد من اكتساب التكنولوچيا وتطويرها . والشعب يجب أن يكون متعلمًا ومدربًا . عليهم أن يكونوا مسئولين أمام أنفسهم ومجتمعاتهم ويتجنبون الصراعات والفرقة . وعليهم أن ينتجوا ويسوقوا منتجاتهم بكفاءة وقدرة تنافسية عالية ، وعليهم أن يحققوا ازدهارًا اقتصاديًا على قدم المساواة مع أكثر الدول تقدمًا فى العالم .

وستكون بعض الدول الآسيوية أقوى اقتصاديًا من دول آسيوية أخرى ، ولكنهم فى نهاية الأمر سيزدهرون جميعًا ، يلقون بوعاء التسول بعيدًا ، سوف يستغنون عن المعونة ، والحاجة لشراء الحماية من قوى خارجية .

إن الدول الآسيوية أخذت وضعها الآن لتحقيق كل ذلك ، ولأول مرة تنعم كل الدول الآسيوية باستقلالها ، وشرق آسيا كذلك بما فيه جنوب شرق آسيا ؛ فكلها مناطق خالية من الحروب . والسلام يظلل الجميع ليسوا كسالى ولا عاطلين فهم يعملون جميعهم بجد واجتهاد لتحسين قدراتهم .

إلا أنهم للأسف ليسوا كلهم متحررين من الهيمنة والسيطرة الغربية ، فمازالت القوى الغربية موجودة فى بلادهم بموافقتهم ! عنصر الهيمنة مازال موجودًا فى بعض الدول ، فلا يسمح لهم بأن يفعلوا ما يحلو لهم ، ولا حتى الاتصال والتنسيق مع البلاد المجاورة لهم غير المرغوب فى التعامل معها ، ولا الانضمام إلى منظمة من الدول دون موافقة وبالرغم ذلك فإن الدول الآسيوية ستمضى فى طريقها بكل عزم ، وتحمى استقلالها وتستمر فى تحقيق قوة اقتصادية أعظم . وفى النهاية سوف يحققون العظمة المنشودة وسيصبحون دولا إمبراطورية مرة أخرى ليس بمعنى الساحة الإقليمية وإنما بالمعنى الاقتصادى .

ستصبح آسيا والآسيويون مرة أخرى اللاعبين الأساسيين فى العالم ؛ ستُسمَعُ

أصواتُهم مرة أخرى وستُحترَمُ فى الشئون الدولية ، لن يسيطروا على العالم ، ولكنهم سيحافظون على مكانتهم فى النظام العالمى .

الشرق الأقصى ؛ لم يعدذلك المكان الغريب العجائبى الذى كان ، شرق آسيا أصبح الآن فى الغرب ؛ أى غرب أمريكا . لقد انتهى العالم الذى كان مركزه أوروبا كما انتهت المملكة المتوسطة ولم يعد لها أثر . العالم مستدير ، وأى جزء أو نقطة فيه يمكن أن تكون مركز العالم أو والنقطة المرجعية ، وعلى كل فرد أن يعيد توجهاته وفق ذلك .

إن سكان غرب الباسيفيك آسيويون ؛ لذلك فعندما تقومون بدراسات عن الآسيويين وعن آسيا فى «معهد آسيا- نيوزيلندا» ، فكروا فيهم باعتبارهم غربيين . وأمريكا فى الشرق وأوروبا فى الشرق الأقصى اوشعب آسيا ؛ الغربيون الجدد ، ليس لهم أغراض معينة يبتغونها من الشرقيين ، كل ما يريدونه هو المعاملة العادلة الحسنة ، وأن يحظوا بالاحترام المقبول مثل الآخرين .

لو أنكم فى هذا المعهد متوجهون توجهًا صحيحًا ، ونبذتم كل المفاهيم الخاطئة وكل أشكال التحيز التى ذهبت واندثرت ، مع فكرة أن أوروبا هى مركز العالم ، فإنكم ستكونون على الطريق الصحيح فى فهم الآسيويين ، وبهذا الفهم الصحيح ستتخذون المكان الملائم للتعامل منه مع الواقع الجديد ؛ مع آسيا التى بُعثتْ مجددًا ، وسيكون ذلك لمصلحة الآسيويين الذين يمكن أن نطلق عليهم الغربيين الجدد ، ولمصلحة الجميع ، وسيغدو العالم مكانًا أفضل بمعنى الكلمة .

١٧- شَرَاكَةٌ آسْيَوِيَّةٌ - أُورُوبِّيَّةٌ مُتَكَافِئَةٌ مِنْ أَجْلِ عَالَمٍ أَفْضَلَ *

كانت آسيا منذ زمن غير بعيد مجرد مكان يستغله الأوروبيون ، ويستنفدون خبراته ، وكانت شرق آسيا – فى عالم مركزه أوروبا – هى الشرق الأقصى ؛ نائية وغامضة ، لا أمل يرجى منها ! أما اليوم ، فإننا نلتقى بعد أول لقاء فى تاريخ العالم بين شرق آسيا وأوروبا الغربية ، لم يخطر هذا على بال أحد ، بل ولم يفكر فيه أحد قبل عشر سنوات ، لا بل قبل خمس سنوات مضت ! نلتقى اليوم تقريبًا بوصفنا أطرافًا متكافئة ونظراء ، وأقول : تقريبًا ؛ لأن البعض منا فى آسيا مازال يتملكهم الخوف والرهبة من أوروبا ! مازلنا نشعر بأننا مستعمرون أو مقهورون ، والحقيقة أننا معذورون فى ذلك ؛ لأن هناك أشكالاً أخرى من الاستعمار بما فى ذلك الاستعمار الفكرى ، قد حلت محل الاحتلال المادى والبوارج الحربية . إن سيطرة الغرب على وسائل الإعلام العالمية قد جعلت من التفكير المستقل أمرًا مستحيلاً .

ولعل هذه العبارة أقوى مما ينبغى ، ولكن خلال المائة عام الماضية أو ما يزيد سيطرت على العالم الأفكار والقيم الأوروبية التى تجسدت فى إيديولوجيات متنوعة وكانت منها : الاشتراكية والرأسمالية والشيوعية وإفرازات أخرى مختلفة نابعة من أوروبا ؛ نتيجة للمشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى واجهها الأوروبيون .

ولكن بعد أن تجذرت هذه الأيديولوجيات فى المجتمعات الأوروبية ، تم تصديرها إلى بقية العالم بما فى ذلك الشرق ؛ ولأن القوى الإمبريالية كانت إلى حد كبير من الرأسماليين أنصار السوق الحرة ، فإن استياء وغضب الشعوب الخاضعة للتهديد

* ورقة عمل قدمت فى الافتتاح الرسمى للمعهد الآسيوى- النيوزيلندى فى جامعة أوكلاند- نيوزيلندا ، فى ٢٨ مارس (١٩٩٦م) .

الأوروبى جعلهم يرون الشيوعية والاشتراكية ، جذابة بما فيها من مبادئ تنادى بالمساواة والعدالة ، ومن ناحية أخرى لم تكن الإمبريالية الشيوعية تسمح بأى أيديولوچية أو أى نظام آخر .

وهكذا فإن معظم الدول المستعمرة أو الواقعة تحت سيطرة رأسمالية السوق الحرة والدول الشيوعية اختارت ، أو بالأحرى أرغمت على أن تختار الاشتراكية والشيوعية . وفى منتصف القرن العشرين هيمنت الأفكار الغربية أو الأوروبية على العالم أجمع -حتى ديانات العالم التى نبعت من الشرق كان عليها أن تفسر تعاليمها الدينية على ضوء المفاهيم والأفكار والآراء الغربية عن معنى العدالة والأخوة والحرية للروح البشرية . وكان عدم الالتزام بهذه الأفكار يجعل الأديان غير مقبولة بالنسبة للقيم الثقافية والأفكار المهيمنة والسائدة فى العالم . وهكذا عندما يقال إن التحكم والسيطرة الغربية فى وسائل الإعلام الدولية من المستحيل أن يقدما تفكيراً مستقلاً ، لايكون فى ذلك مبالغة .

عندما يقبل مجتمع مجموعة قيم معينة وينظر لها على أنها عالمية ، ثم ينحرف عنها فسوف يعتبر ذلك هرطقة ! ودائمًا تكون المجاراة آأمن من الرفض أو الانحراف ولكن مع مرور الزمن تتغير القيم وتتغير الثقافات وحتى الأيديولوچيات تتغير ؛ واليوم لم تعد الاشتراكية أو الشيوعية هى الأيديولوجيات التى يحارب المرء ويموت من أجلها . لقد فقدت مصداقيتها تمامًا .

ونعرف جميعًا كيف دمرت الاشتراكية والشيوعية اقتصاد بلاد كانت مزدهرة ، بل وأفقرت واستعبدت الناس ، لم يكن هناك مساواة حتى فى الفقر ؛ كان بعض الاشتراكيين الشيوعيين ينعمون بالثروة ، بينما الغالبية تعانى مرارة الفقر والحرمان ، ولم يتحقق على أرض الواقع أبداً مجتمع المساواة التى كانت تعد به هذه الأيديولوچيات ، والأسوأ من ذلك أن مواطنى الدول الاشتراكية والشيوعية كانوا كلهم دون استثناء أكثر فقراً من العمال فى دول السوق الحرة الرأسمالية .

وهكذا وبعد مرور ثلاثة أرباع قرن فإن الذين اعتنقوا النظريات الاشتراكية والشيوعية ، وما رسوها بالفعل اكتشفوا أنها كانت خاطئة ويجب التخلص منها . وكان الأمر كله خطأً فادحًا ، وكانت المذابح وكل الفظائع التى عانت منها الشعوب لامبرر لها ، ولم يسفر غرس المبادئ والسيطرة على الفكر ثقافة ذات قيمة أو نظامَ قيمٍ محترم .

ولسنا فى حاجة لمناقشة لماذا تخلت أكبر دولة شيوعية ، وكثير من الدول الاشتراكية التى كانت تدور فى فلكها عن معتقداتهم ، المهم أن الفكر الغربى كان مخطئًا ، كما كان المفكرون الغربيون مخطئين فى تحليلهم لأوجاع وأمراض مجتمعاتهم ووصفوا لها العلاج الخطأ . كان الثمن غاليًا ، إلا أن الأهم من ذلك كله هو أن أولئك المفكرين الغربيين كانوا مخطئين تمامًا . . . . .

فإذا كانوا قد أخطأوا من قبل ، و إلى هذه الدرجة التى كلفت الكثير ، أفلا يمكن أن يخطئوا مرة أخرى؟ ؛ هل يمكن أن نعتقد أن المفكرين الغربيين الحاليين على صواب تمامًا؟ ألا يمكن أن يكونوا مخطئين مرة أخرى ، إلى حد ما ، على الأقل؟

الشرقيون معنيون بالمسائل الروحية ، بينما الغربيون معنيون أكثر بالمسائل المادية . الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية كلهم أيديولوچيات مادية . والفكرة الأساسية هى أنه لو توفر لك الرخاء المادى فلابد وأنك ستكون سعيدًا ، ولو أن الأشياء المادية قد وزعت بالتساوى على الجميع ، فلابد وأن يشعر الجميع بالسعادة .

إن هاجس المساواة هو المسيطر على كل التفكير الأوروبى أو الغربى ، وهو أمر جدير بالثناء حقًا . فهذا عدل وإنصاف ، ولكن فى أمور معينة فإنه أبعد ما يكون عن العدل والإنصاف .

من الجميل أن يشعر الجميع بأنهم سواء أمام القانون ، ويمكننا التمسك بذلك بالرغم من أن المساواة فى الواقع العملى أمر أبعد ما يكون عن المثالية . فعلى سبيل المثال ؛ المجرم

الغنى الذى يستعين بأفضل المحامين يمكن أن يخرج بريئًا من جريمة قتل ! بينما المتهم الفقير ومعه محام مصنف من الدرجة الثالثة قد لا يقدر على أن يثبت براءته بالرغم من أنه قد يكون بريئًا تمامًا ؛ فالمساواة فقط ظاهرية ولكنها بعيدة تمامًا عن المساواة فى الحقيقة !

وعندما يتعلق هذا بالعلاقات الدولية ، فإن القوى العظمى ستعتبر حينذاك أكثر مساواة من غيرها . قد يكون لدولة فقيرة حقوق متساوية لكى تطبق عقوبات على دولة غنية ، إلا أنها فى الواقع لا تستطيع أن تفعل ذلك ! المساواة ؛ مرة أخرى ، ليست حقيقية . هى كلام فقط ! وفى الواقع العملى تظل الدولة الفقيرة دائمًا محرومة من المساواة .

لكن المساواة تُؤكَّدُ دائمًا فى التجارة ، والمطلوب من منظمة التجارة العالمية أن تمهد الساحة للجميع ، أى أن تهىء ظروفًا متساوية للجميع فى التجارة والاستثمارات الدولية ، وإذا وافقت الأنظمة الاقتصادية الأضعف على فتح بلادها للاستثمارات الأجنبية غير المقيدة ، عندئذ يكون لها ظروف جذب متساوية ، لاستثماراتهم فى الدول الغنية .

لذلك لا يجب أن تكون الاستثمارات الأجنبية المباشرة مشروطة ، بل يجب ألا تكون مقيدة لابد من السماح لمنتجاتهم بأن تتنافس بحرية فى السوق المحلية مع منتجات الشركات الوطنية . وبصراحة ما كانت ماليزيا لتدخلَ صناعة السيارات مطلقًا لولا فرق المعاملة الضريبية . ولكم أن تتخيلوا مدى استنزاف العملة الصعبة لو لم تنتج ماليزيا سياراتها ؛ لأنها كانت سترغم على شراء سيارات مستوردة ، أو سيارات منتجة محليًا بواسطة الدول القوية والمتقدمة تكنولوجيًا والمتوفر لديها السيولة النقدية مثل : اليابان ، أو الدول الغربية ، وسيكون العجز فى ميزانية المدفوعات رهيبًا .؟ !

ولولا القدرة على تنظيم الاقتصاد لصالح المحليات فى مجالات معينة ، وفى الوقت نفسه السماح ، بل وتقديم الحوافز للاستثمارات الأجنبية فى مجالات أخرى ، لكان هناك شك – فى أن تصبح ماليزيا منتعشة ومزدهرة كما هى اليوم ، وإذا كانت السوق الماليزية تبدو

جاذبة للاستثمارات اليوم ، فذلك بسبب الاستخدام العادل للقوى المنظمة للحكومة ؛ لتشجيع المحليات والمنتجات الوطنية ، وكذلك تقديم حوافز للاستثمارات الأجنبية المباشرة ، وبدون هذه القوى ، لما كان بالإمكان توفير معاملة متساوية ، ولكان من المرجح أن تصبح ماليزيا عاجز ة ، تعتمد على مساعدة وكرم الآخرين .

ولو أن العاجز متوقع منه أن يمنح المعاملة نفسها لنفسه ، كما يفعل مع الأغنياء والأقوياء فإنه سيخسر كل مرة وطوال الوقت ، إن أرض الملعب المستوية تكون عادلة عندما يكون المتسابقون متساوين فى البنية والقوة ، ولكنه سيكون الظلم بعينه ! عندما يواجه الأقزام العمالقة .

وفى منظمة الجات و منظمة التجارة العالمية ، ومنظمة العمل الدولية وغيرها نجد أن ، ضغط الأقوياء هو من أجل عدم تكافؤ حقيقى ! فالعمال فى الدول المتخلفة والنامية يجب أن يحصلوا على الأجر نفسه الذى يحصل عليه العمال فى الدول المتقدمة ، كما يجب إنفاق أموال طائلة على حماية البيئة فى الدول النامية كما هو مفترض أن يتم فى الدول المتقدمة للغرض نفسه ، وينبغى أن ينظم العمال إضرابات كدليل على أنهم أحرار . . . . . إلخ . وإذا فشلوا فى تحقيق كل ذلك ربما ينجم عنه إجراءات مضادة لإغراق الأسواق ، أو غرامات تعويضية ، أو مجرد لىِّ ذراع اقتصادى فاضح . ولا يخطر ببال الأثرياء الأقوياء أن المساواة يمكن أن تتحقق بتخفيض الأجور المتضخمة وتخفيض الفوائد والمزايا .

المساواة شىء عظيم ، ولكن المعاملة على قدم المساواة قد ينتج عنها تفاقم أوجه التباين بين الأطراف المعنية ، ومن ناحية أخرى فإن التمييز وأفضلية المعاملة والإجراءات الحازمة هى الأكثر احتمالاً لتحقيق المساواة والعدالة .

وهناك حالة كلاسيكية توضح ازدواجية المعايير بالنسبة للمساواة ، وهى المعاملة الممنوحة للتجمع الاقتصادى لشرق آسيا ، والمفترض أنه منتدى لدول شرق آسيا سواء أكانت

متطورة أم نامية لمناقشة المشاكل الاقتصادية المتبادلة ، والعمل على المساعدة فى تنمية البلاد الأقل تطوراً ونمواً . وعلى الرغم من ذلك ، فإن بعض دول شرق آسيا قد تلقت بالفعل تعليمات من بعض الدول الغربية التى كونت بالفعل تكتلاتها التجارية ، بأن ترفض هذا المنتدى .ومن الواضح أن كل ما هو فى صالح الدول الغربية ليس فى صالح الدول الشرقية ؛ فالمساواة ليست بالمبدأ العظيم الذى اختارته الدول الغربية من أجل أن يُتّبع . المساواة جيدة فقط لو نجم عنها مكاسب اقتصادية ومنافع أخرى للغرب ، ولكن لو توقعوا منها تهديداً لهم ولمصالحهم ، إذن فلا يجب مناصرة المساواة ولا الدفاع عنها ! !

لسنوات عديدة لم يكن مسموحًا لدول شرق آسيا أن تتحاور مع بعضها ! واللقاء الأوروبى - الشرق آسيوى يعقد فقط ؛ ليظهر من خلال مشاركة مجموعة دول شرق آسيا على أنها مجموعة مفككة ! وهناك مؤشرات على أن مثل هذه اللقاءات ستشمل فى المستقبل دولاً غير شرق آسيوية أيضًا .

الآسيويون متهمون بأنهم عنصريون ، وماذا يفعل المرء حيال الاعتراض على أن يتحاور الآسيويون مع بعضهم البعض ، عندما يفعل المعترضون أسوأ من ذلك مثل : تشكيل تكتلات تجارية ، أو احتكارات أو اتخاذ إجراءات منفردة لمنع السلع الواردة من شرق آسيا للوصول للأسواق دون أن تصغى لصوت العدل؟

الحرية ما هى إلا بقرة مقدسة أخرى يجب على كل فرد أن يعبدها . الدول الآسيوية متهمة دائمًا بأنها لا تعطى شعوبها الحرية ! وماذا عن حرية الدول الآسيوية المستقلة؟ ، إذا لم يكن مسموحًا لهم بتكوين مؤسساتهم فهل يمكن أن يكونوا أحرارًا؟ وما الفرق إذن بين تصرف روسيا فى إرغام تشيكوسلوفاكيا أو المجر على البقاء داخل المعسكر الشيوعى وبين إنكار حرية دول شرق آسيا فى تكوين مؤسساتها؟ على الأقل فإن الإمبرمالية الروسية قد تقلصت ! هل يستطيع أى فرد أن يقول الشىء نفسه عن القوى المسيطرة والمهيمنة فى العالم؟ أم ستنتشر ازدواجية المعايير مع الحرية كما تنتشر مع المساواة؟

لقد انطلقت شرق آسيا فى نهضتها ، والعملية التى بدأت مع المعجزة الاقتصادية اليابانية انتشرت الآن فى شمال شرق وجنوب شرق آسيا . إن ازدهار الدول يجب أن يسهم فى تنمية الدول أخرى ، ولقد ازدهرت ماليزيا بسبب الاستثمارات اليابانية الضخمة ، ولن تتمكن اليابان من الاستثمار فى ماليزيا وفى دول أخرى مالم تكن اليابان نفسها مزدهرة .

واليوم بدأت دول جنوب شرق آسيا فى الاستثمار فى دول نامية أخرى ، تساعدهم فى خلق وظائف ، وتساعدهم فى النمو والتطور ، وفى الوقت نفسه أصبحت دول جنوب شرق آسيا أسواقًا رائجة للدول المتقدمة ، ومن الواضح أنه موقف «الكل رابح» والذى لن ينتج عنه مفهوم : (افقر جارك) .

وليس من قبيل المصادفة أن تكون دول الآسيان كلها وبشكل متسق مزدهرة ومتقدمة ، فقد تعلمت هذه الدول من بعضها الصيّغةَ الصحيحةَ للنمو والتطور ، لقد فتحوا بلادهم للاستثمارات الأجنبية المباشرة . وفى أفريقيا وأمريكا اللاتينية ، حيث انتشرت الأفكار الاشتراكية ، أدى التأميم ورفض الاستثمارات الأجنبية إلى اضمحلال وضعف اقتصادهم . والاقتصاد الاشتراكى المركزى موجود أيضًا فى آسيا ، ولكن دول الآسيان قامت بدور متوازن ، واليوم حتى لو أن البعض مازال متمسكًا بالأيديولوجيات الاشتراكية والشيوعية ، فإن اقتصاد السوق الحرة الذى تتبعه دول الآسيان أصبح مقبولاً عالميًا .

لو أن المؤتمر الاقتصادى لدول شرق آسيا قد أطلق العنان لنظام السوق الحرة وانتشر بحق ، لاستفادت منه الدول الضعيفة اقتصاديًا فى المنطقة . سيعم الرخاء شرق آسيا ، وستعمل بوصفها محركات إضافية للنمو لبقية العالم .

إن المؤتمر الاقتصادى لدول شرق آسيا هو فكرة حان وقتها ؛ حيث يمكنه أن يعجل بإعادة ميلاد شرق آسيا من جديد ، بشباب متجدد يمارس دوره فى نظام السوق الحرة ليمحو آخر آثار الشيوعية ونظريات الاقتصاد الاشتراكى إن لم تكن الأيديولوچيات نفسها . لو كان الأوروبيون والأمريكيون يؤمنون حقًا بنظام السوق الحرة والديمقراطية ، فإن أفضل شىء

يمكنهم أن يفعلوه هو دعم إنشاء التجمع الاقتصادى لدول شرق آسيا ، أما التصدى له ومنعه من النمو والاستمرار أو إثارة الشكوك حوله أو التقليل من شأنه بإضافة عناصر غير آسيوية ، فلن يؤدى إلا إلى إبطاء مسيرة رفاهية شرق آسيا ، وربما يسبب الإحساس بالمرارة وتصاعد مشاعر العداوة بين الدول التى تريد أن تقيم علاقات ودية مع الغرب .

إن اللقاء الشرق آسيوى الأوروبى بداية طيبة . وسوف يساعد على تبديد مخاوف لا مبرر لها حول بعث شرق آسيا من جديد . إن شرق آسيا تريد تجارة نزيهة بالقدر الذى يريده الاتحاد الأوروبى ، ولو اختلفنا فى وجهات نظرنا ؛ فذلك لأننا ننظر من جانبنا و من خلال مرحلة التطور التى وصلنا إليها ، ولكن بعض المناقشات ستساعد فى تبديد الشكوك لدى الطرفين .

إن اللقاء الشرق آسيوى الأوروبى مثال على شبه المساواة ، فليست أرضية الملعب فقط ولكن المتنافسين أيضًا متقاربون ومتساوون إلى حد كبير ؛ فلا يستطيع أحد أن يستأثر بالآخر ، أو أن يكون عرضة لأعمال البلطجة . ولن نجنى سوى الخير من هذا الحوار ، وعندما تولد منطقة شرق آسيا من جديد ، فلن تكون شرق آسيا حاقدة تدير ظهرها للدول التى حاولت أن تؤخر أو تمنع انبعاث نهضتها . سيتذكر شرق آسيا من ساعده وسوف يسهم فى تقدمه عندما يتطلب الأمر ذلك .

لا يجب أن يقتصر الأمر على حفل شاى ببوسطن ! وليكن هناك تمثيل كامل ذو معنى ، لتكن هناك ديمقراطية فى إدارة العالمية ، دعونا نتذكر أن الدول الفقيرة والأقاليم الفقيرة لا تساعد أحدًا ؛ لا الدول المزدهرة ولا الدول الفقيرة . اعملوا على ازدهار جيرانكم ، وهكذا تزدهرون أنتم أيضًا .

١٨- نَهْضَةٌ آسْيَوِيَّةٌ مِنْ أَجْلِ آسْيَا الْجَدِيدَةِ *

آسيا الجديدة قادمة ومن يفشل فى أن يلحظ ذلك فهو إما أعمى أو فى عقله صمم ، ولا يمكن لأى قوة أن توقف آسيا ، وآسيا الجديدة هذه لابد أن تستمر لتكون آسيا الإنجاز ، وقارة التقدم ، وتحقق تقدمًا هائلاً وشاملاً لكل الآسيويين ،آسيا الجديدة هذه يجب أن تكون آسيا الإسهام . قارة تسهم ليس فقط فى تقدمها الثابت والمستمر ، إنما فى تقدم البشرية بأكملها . ولكى تؤدى آسيا دورها على الصعيدين عليها أن تكون متمكنة ، وقارة فاعلة ومحركة للأمور وليس مفعولاً به . قارة لها دورها المؤثر فى الشئون الدولية ، ليست ناتجًا ، بل سببًا فى صنع الأحداث .

ولكى يتحقق كل ذلك لآسيا ، ولكى تستحقه ويتوفر لها القدرة ، لابد من أن يكون هناك إدراك وشعور بنهضة آسيا ، بميلاد جديد يعيد صنع آسيا ويعيد تشكيل العالم . حتى الآن تطورت الدول الآسيوية بشكل منفرد دون رؤية موحدة للأدوار التى يجب عليهم أن يقوموا بها من أجل آسيا والعالم ، وفى الوقت الذى يجب أن تحاذر آسيا من فكرة الهيمنة والسيطرة الآسيوية ، لابد من الإصرار على أن تكون شريكًا على قدم المساواة مع أوروبا والولايات المتحدة . وعلى آسيا أن ترفض سيطرة كل منهما عليها .

ففى خلال ٥٠ سنة نهضت (اليابان) من رماد الحرب لتصبح ثانى أكبر وأقوى اقتصاد فى العالم بعد الولايات المتحدة لقد ترددت مؤخراً بعض الشكوك فى قدرة اليابان ، ولكنى أعتقد أن اليابان ، مع الوقت ، سوف تتغلب على تلك المضايقات المستمرة ، وتصبح فى كامل عافيتها ونشاطها .

* ألقى هذا الخطاب فى منتدى آسيا الجديدة ، كوالالمبور : ماليزيا . فى ١١ يناير عام ١٩٩٦م .

وخرجت الصين من حرب أهلية ومن صراعات أهلية ومن أعماق الفقر والفوضى لتفجر مسيرة حيوية ندر أن يشهد تاريخ العالم مثلها . إن حركة تحديث الصين تنطلق بسرعة قصوى إلى الأمام .

ونهضت كوريا من بين خرائب حرب أهلية مريرة ، ومن دمار تام للبنية التحتية وفقر مدقع ، ومن مجرد حالة عجز لا أمل ولا رجاء منها ، لتصبح واحدة من المعجزات الاقتصادية فى القرن العشرين وفى أى قرن بالتأكيد .

وظهرت تايوان بوصفها تنينًا آخر من شمال شرق آسيا ، لقد حققت نجاحًا كبيرًا لدرجة أنها تعانى من متاعب إخفاء احتياطياتها الهائلة .

وفى جنوب شرق آسيا كانت سنغافورة أول نمر آسيوى . وقبل أيام قليلة أدرجت منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية سنغافوره رسميًا فى صفوف العالم المتقدم . وجاء ترتيبها التاسع ضمن أعلى دخول فى العالم بالنسبة لمتوسط دخل الفرد بالدولار الأمريكى ، ناهيك عن مستوى القدرة الشرائية .

وإندونيسيا وهى واحدة من أكبر دول العالم حققت خلال سنواتها العشر الأولى معدل تنمية حوالى ٥ر١ ٪ سنويًا ، وكان الجميع بلا استثناء ينظر إليها على أنها حالة ميؤوس منها حتى منتصف الستينيات ، اليوم وبعد ٣٠سنة من النمو الاقتصادى البارز تقف إندونيسيا فى مكانها راسخة لتصبح من أكبر الاقتصادات فى العالم بعد أن تبددت الشكوك تقريبًا فى دينميتها فى الحاضر والمستقبل .

وكانت الصحافة مغرمة بأن تردد عن تايلاند بأنها بلد الانقلابات ، وأنها استطاعت أن تبقى على قيد الحياة فقط ؛ لأنها قطة بتسعة أرواح . إنهم مخطئون ولم تتمكن تايلاند من البقاء على قيد الحياة فقط ، بل انتعشت وازدهرت وليس لأنها قطة ولكن لأنها نمر .

ولم تتمكن الفلبين من تحقيق نجاح كبير مثل جيرانها لأسباب لا داعى للخوض فيها

الآن ، ولكن احترسوا من نمر الآسيان هذا ، إنه إحدى معجزات شرق آسيا الاقتصادية القادمة ! واحترسوا من ڤيتنام أيضًا ؛ فإنها فى طريقها لأن تصبح نمرًا حتى قبل أن تنضم إلى الآسيان ! لقد انطلقت فى سرعة فائقة ، واحترسوا أيضًا من دول جنوب شرق آسيا الأخرى ، واحترسوا من الهند ومن الاقتصادات الأخرى فى الغرب منها .

أما بالنسبة لماليزيا فإننى أتذكر دائمًا أنه عندما أصبحت ماليزيا ؛ دولةً مستقلة فى عام ١٩٥٧م كان معظم العالم الغربى يرى أن مصيرنا هو سلة مهملات التاريخ . يجب ألا أن ننسى أننا لم نتمكن سوى فى عام ١٩٦٠م من أن نلحق بمتوسط دخل الفرد فى هاييتى وهى أفقر اقتصاد فى الأمريكتين ! واليوم وبعد جيل فإن مستوى المعيشة فى ماليزيا ؛ أعلى منه فى أى دولة فى نصف الكرة الأمريكى و أعلى منه فى أى دولة فى جنوب أمريكا الجنوبية ، وأمريكا الوسطى أو الشمالية باستثناء الولايات المتحدة وكندا . واليوم فإن هذه الأمة المكافحة التى يبلغ تعدادها ١٩ مليون نسمة من الكادحين ، يأتى ترتيبها الثالث عشر باعتبارها أكبر وأضخم دولة تجارية فى العالم . فى مجال التجارة فإن ماليزيا أكبر من روسيا أو أستراليا وأكبر مرة ونصف من إندونيسيا أو البرازيل ، وأكبر مرتين من جنوب أفريقيا أو الهند ! وبلغة رأسمال السوق فى سوق الأوراق المالية يأتى ترتيبنا الثالث عشر أيضًا . والمؤكد أننا نصف حجم ألمانيا ، أما فى آسيا فنحن بعد اليابان وهونج كونج وتايوان . وهذا ليس سيئًا بالنسبة لمن كان مرشحًا لسلة مهملات التاريخ ، وليس سيئًا بالنسبة لدولة كان الكثيرون يعتقدون أنها بلا مستقبل !

ونحن نعيش الحاضر ونتأمل المستقبل فإننا ننسى الماضى . يجب ألا ننسى أننا بالرغم من النظر إلينا الآن على أننا إقليم مولدات كهربائية (دينامو) كان النظر إلينا حتى وقت قريب على أننا قطع (دومينو) على وشك السقوط ! قبل نصف قرن كان كل اقتصاد آسيوى بما فى ذلك اليابان ينظر إليه بقليل من الأمل أو التفاؤل بأن يكون نظامًا حيويًا يحقق تقدمًا ! كنا كلنا حالات ميؤوس منها . وكانوا ينظرون إلينا فى وقت ما كما ينظرون إلى الصومال وأثيوبيا

اليوم والأسوأ أن الكثيرين منا صدقوا الصورة التى رُسمت لنا ولمستقبلنا !

والآن هناك توجه مثير نحو التقليل من شأن ما أنجزناه ، وللقول بأننا حتى وإن كنا قد حققنا نجاحًا فى الماضى ، فليس أمامنا فرص كثيرة فى المستقبل ، وأننا هبوط وأن المعجزة الشرق آسيوية ليست معجزة فى الحقيقة ؛ إنها زوبعة فى فنجان ومهما كانت ، فهى إلى زوال !!

ولا يستطيع أحد أن يشكك فى حقيقة أننا خلال الجيل السابق كان متوسطُ نمونا أسرع مرتين ونصف من سرعة نمو الدول الأوروبية ، وأمريكا اللاتينية ، وخمسة وعشرين مرة من الدول الواقعة جنوب الصحراء الأفريقية . والاحتمالات الحسابية لنا جميعًا فى توقع نمو الإقليم عندنا تعادل نسبة ١٠,٠٠٠ : ١ .

وأنا فى دهشة دائمة من عدد العقول النيرة من خارج آسيا ، التى تعتقد أن الإنجازات الإيجابية المذهلة التى تمت فى شرق آسيا خلال النصف الثانى من القرن لا يمكن أن تستمر ، وفى الوقت نفسه هناك افتراض جدير بالملاحظة وهو أن كل فشل وضعف خلال الخمسين عامًا الماضية لا يمكن إلا أن يستمر معنا !

وبمعنى آخر ؛ يفترض أننا فى شرق آسيا التى حققت تلك النتائج والتى لم يحدث لها مثيل فى تاريخ العالم ، لا يمكن أن نستمر فى ذلك ، ومن ناحية أخرى يمكن أن يفترض دون شك أن تستمر كل الأشياء السيئة .

هذا الاعتقاد بأن قدرتنا المطلقة ستفشل ، وبأن قدرتنا المحدودة يمكن أن تنجح ، النجاح أمر مؤسف ، وهناك تنبؤات عديدة وكثيرة ، فعلى سبيل المثال : الاستقرار السياسى لماليزيا لا يمكن أن يستمر ، وهو مجرد ظاهرة سطحية ، أما ما يجرى تحت السطح فهو حالة من الفوضى والاضطرابات ، والمتوقع أن ينفجر الموقف فى أية لحظة ، حتى البرجين اللذين بنيناهما يتأرجحان ، وسوف ينهاران قريبًا . . . كيف تمكنوا ، وكيف تجرأوا على محاولة أن

يكونوا أندادًا لأسيادهم؟ ! ولكنه سيحدث يومًا ما وإن لم يحدث . .فانتظروا . . ولسوف يحدث .

ولو كنا فى شرق آسيا نجيد شيئًا ، فإننا نجيد التصدى للمشكلات ومواجهة التحديات وتخطى العقبات . كثيرًا ما كنا أفضل من الآخرين ليس لأننا أكثر ذكاءً ، إذ غالبًا ما يكون الآخرون أكثر ذكاءً منا ، وإنما كنا أفضل لأن أداءنا أفضل ، كنا أفضل فى تحقيق ما ينبغى تحقيقه من احتياجات ، حتى ولو كان ذلك ضد ما يسمى بالمعايير والمبادئ المتعارف عليها ، تلك المعايير التى تشكلت ؛ لأن من وضعوها قد نسوا ماضيهم ، ولم يكونوا بأية حال من الأحوال فى وضع يسمح لهم بخرقتها ، بعد أن فقدوا مستعمراتهم وادعاءهم بالتفوق والسيادة !

ولو أننا نعتقد بأن الحملة الاقتصادية الكبرى القادمة التى يجب علينا أن نشنها لابد من أن تكون حملة من أجل الكفاية والإنتاجية ، وليس فقط من أجل تنمية الموارد البشرية أو الاستثمارات الأجنبية ، فسنكون مخطئين ، إلا أن لدى بعض الشك أننا سنشهد حملة ضخمة للكفاية والإنتاجية فى هذا الإقليم . وأشك أيضًا فى إمكانية أن تكون هناك كفاية أعلى أو إنتاجية أعظم !

وحتى فى وجود أولئك الذين يقبلون بإنجازاتنا الاقتصادية الفذة ، ويمضون فى جدالهم بأننا لن نستطيع مواصلة النجاح ؛ فإن هناك الكثيرين ، خاصة ممن يسيطرون على الصحافة الغربية الذين يسلمون بأن بيئتنا الاستراتيجية هى أفضل حالاً الآن منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وربما منذ منتصف القرن التاسع عشر ، بالرغم من ذلك نجدهم مستمرين فى جدالهم بأن سلامنا يمكن ألا يستمر ، ويتصورون سيناريوهات كثيرة لذلك .

قد تتمكن كوريا الشمالية من امتلاك أسلحة نووية . كان ذلك هو الاعتقاد الأرجح فى عام ١٩٩٤م ، وربما تتقاتلون على شبه الجزيرة الكورية ، وكان ذلك أكثر الاختيارات

سخونة من قبل كثيرين لعدة أشهر فى عام ١٩٩٥م ، وربما تعلن تايوان استقلالها . فتجد الصين نفسها مضطرة للقيام بعمل عسكرى . كان ذلك سيناريو آخر للحرب المحتملة ، ويبدو أنه من العسير أن نركن للراحة بالرغم من أن جمهور الناخبين التايوانيين قد أكدوا مؤخرا ؛ أنهم لا يريدون حربًا مع الصين ، وهكذا فلا يجوز الاستغفال مع الاستقلال .

وبالإضافة إلى سيناريو الحرب الكورية المتكرر والمستخدم على مدى أكثر من ٤٠ سنة فهناك ثلاثة أشباح حقيقية ؛ **أولاً** : تكديس السلاح فى شرق آسيا ، **ثانيًا** : بحر الصين الجنوبى ، **ثالثًا** : وهو ما يمكن اعتباره قنبلة شديدة الانفجار متعددة الأغراض ألا وهو «الخطر الصينى» .

تتضح سذاجة المتصرين فى حرب الباسيفيك عندما يتصورون أنهم بتحديد ١٪ من إجمالى الناتج المحلى لليابان للإنفاق على التسليح كحد أقصى ، أن اليابان ستكون ضعيفة للأبد ، واليوم يعرفون أن الواحد فى المائة من إجمالى الناتج المحلى لليابان أكثر بكثير مما يمكن أن تخصصه دول أوروبية كثيرة للتسليح .

ومن الواضح للكل أنه مع نمو اقتصاد أى دولة فإن إنفاقها على التسليح سيزيد بالتالى . أما النسبة لإجمالى الناتج المحلى أو خلافه ستظل ثابتة ، ولكن فى المحصلة النهائية الإنفاق كبير جداً .

ولم يتحسن الموقف مع عملية تسويق السلاح الشرسه التى يقوم بها الغرب ، يشير تجار السلاح فى الغرب إلى الأخطار التى تواجهها كل دولة آسيوية لكى يقنعونا بشراء أسلحتهم ، وبمجرد أن نشترى نجدهم يخبروننا بأن عدونا المحتمل لدية أسلحة أفضل ! ويمكن مواجهة ذلك بأسلحة جديدة فقط ، سمحت لنا حكوماتهم بأن نمتلكها ! وبالطبع فهم يبيعون للعدو أسلحة بالأسلوب نفسه ، ومن غير المستبعد أن يكرروا عليهم القصة نفسها ، وهى أننا نمتلك الآن سلاحًا فتاكًا ، وأن لديهم الآن سلاحًا معينًا تم رفعه مؤخرًا من

قوائم الأسلحة المحظور بيعها ، يمكن الحصول عليه . وهكذا تستمر الأمور على هذه الوتيرة مع مزيد من الأسلحة المؤثرة التى تخترع وتصنع بتكاليف باهظة الثمن ، ويتحتم بيعها على نطاق عالمى حتى يستردوا ما تم إنفاقه .

وفى الوقت نفسه تنشر ما يسمى بالصحافة الحرة التى يتحكم فيها الغرب تقاريرَ صحفيةً عن سباق التسلح الذى يجرى فى آسيا ، متجاهلين تمامًا تورط الغرب فى بيع هذه الأسلحة ! ولم يخطر أبدًا ببالهم أن يوقفوا أبحاث أسلحة الدمار التى يجرونها فى بلادهم والتى تتكلف بلايين الدولارات !

ولو أن هناك خطرًا فإن هذا الخطر ليس من جانب آسيا ، آسيا تعرف أن الخطر يأتى من دول تطور باستمرار من قدراتها على القتل والتدمير ، وكل الدول الآسيوية مجتمعة لا يمكن لها أن تضاهى الميزانية التى تبلغ ٢٦٥ بليون دولار والتى تنفق على القوات المسلحة فى دولة غربية واحدة فقط ! ولنا أن نتساءل : من هو العدو إذن؟ هل هو أى منا فى آسيا؟ إن احترام آسيا ووضعها فى الاعتبار يتجسد فى اختيارهم لمواقع إجراء التجارب على أسلحتهم النووية ، ومع ذلك يقال للآسيويين إن عليهم أن يتسلحوا ضد آسيويين آخرين وليس ضد أولئك الذين يعتبرون الآسيويين بجلاء أعداءً لهم ، وعلى الآسيويين أن يقدروا القوى الموجهة ضدهم .

نعم ، الآسيويون يسلحون أنفسهم ، ولكنهم يسلحون أنفسهم بقدر متساوٍ مع مستوى نموهم الاقتصادى وتلبية لاحتياجات الأمن المشروعة ، وكان ممكنًا ألا يتسلحوا ، ولكنهم لا يعرفون متى يتوقفون عن ذلك؟ فهم رغم استقلالهم معرضون بشكل دائم إلى مضايقات مستمرة بأن يفعلوا كذا ولا يفعلوا كذا ، أو كذا ولابد من أن يشعروا بأنهم مهددون خاصة عندما تصدر تعليمات لبعض الاقتصادات الآسيوية القوية بأن تتوقف عن الحوار مع بعض الدول الآسيوية التى ليس لها كيان تقريبًا ؛ لأن قادتها لا يرتدون البدل والمعاطف وأربطة العنق عندما يقوم مبعوث الأقوياء بزيارتهم .

وبالرغم من هذا التوجه المستبد ممن هم خارج آسيا ، إلا أنه لا ينبغى على آسيا والآسيويين أن يتخذوا موقف التحدى والمواجهة ! لابد من أن تبشر النهضة الآسيوية بعالمٍ أفضل ، عالمٍ متحرر من سياسة القوة ، من الإمبريالية المستترة ، ومن التهديد والقسر .

لقد أغضبت كثيرين فى الماضى بالحديث عن آسيا الجديدة وبتصورى لآسيا الإنجاز . وأغضبت كثيرين بتصورى لآسيا الجديدة المستقلة والفعالة والمشاركة ، ومن الواضح أنه من غير المقبول أن يكون لها دور ومساهمة فاعلة ،و أعتقد أنه قد حان الوقت لكى تتوقف آسيا عن تقديم الاعتذارات ولأن تنهض وتقف على قدميها .

ويعتقد آسيويون كثيرون أن لدينا بالفعل من القيم والأساليب التى من الأفضل أن يقال عنها «آسيوية» ، وهذه هرطقة بالنسبة لأولئك الذين يعتقدون فقط فى قيمهم وأساليبهم ويعتبرونها عالمية ، ألا يمكن أن تشكل القيم الآسيوية أساسًا لقيم عالمية؟ هل هو حكر على غير الآسيويين بأن يقرروا ما هو صواب وما هو خطأ ، ولا يجوز ذلك للآسيويين؟ ! !

وعندما يكون الشىء عالميًا فلابد من أن نجده فى كل مكان فى هذا العالم إن لم يكن الكون كله ، وإذا لم يكن موجودًا فى جزءٍ كبيرٍ من العالم مثل آسيا فهل يمكن أن يقال عنه إذن إنه عالمى؟

يؤمن الآسيويون حقًا بحقوق الإنسان وبحرية الصحافة وبالديمقراطية وحكم القانون ، ونؤمن بنعمة أن نكون طيبين ، وبنقمة أن نكون أشرارًا ،ولكننا معنيون أيضًا بالنتائج . وعندما حدثت مواجهة مؤخرًا بين الحكومة والجمهوريين فى الولايات المتحدة أسفرت هذه المواجهة عن توقف الحكومة وكان أول تعليق من شخصية أمريكية إعلامية هو أن ذلك يعبر عن الديمقراطية . أما المصاعب التى تواجه مئات الآلاف من موظفى الحكومة فهى غير ذى بال وليس لها علاقة ، طالما أن فى ذلك دعم للديمقراطية .

تصوروا أن يحدث لحكومة آسيوية مثل هذا الخلل ، هل سيوصف هذا بأنه ديمقراطى؟

وأغلب الاحتمالات أن ذلك سيوصف بالفوضوية . وعدم الكفاءة والإخفاق السياسى والأنانية واللامبالاة فى آسيا .

ولم يحدث خلل فى آسيا وليس ذلك لأن الآسيويين يفسرون حقوق الإنسان وحكم القانون على أنه لصالح الأغلبية ، وليس من أجل حرية بعض الساسة ، أو أنه يهم قادة أحزاب الأقلية الساخطة و النقابات العمالية . يمكنهم ممارسة حريتهم وحقهم فى الديمقراطية ولكن حقهم هذا مقصور على الإضرار بأنفسهم ، ولكن إذا أضروا بالآخرين الأبرياء ، عندئذ فإنهم يسيئون استخدام حقوقهم الديمقراطية . لا ينبغى أن يكون المجتمع بأسرة رهينة لديهم .

هل هذا خطأ فادح؟ هل يعتبر مراعاة أغلبية الشعب وحماية حياتهم و حريتهم من قهر القلة خطأً جسيمًا؟ وهل من الخطأ أن يرفض الآسيويون ما يوصف بعالمية القيم الغربية و أن يتمسكوا بقيمهم؟ ألا يستطيعون ادعاء أن قيمهم أيضًا يجب أن تكون مقبولة عالميًا؟

ولكن لا يجب على الآسيويين ولا الدول الآسيوية أن يسعوا لفرض قيمهم ، بالقدر نفسه الذى يرفضون به فرض الآخرين قيمهم عليهم ! على الآسيويين أن يثبتوا صحة قيمهم وكذلك أخلاقهم وثقافاتهم ، وأن لها فائدة ومزايا لمجتمعهم ، وأفضل السبل لذلك هو الحفاظ على سلامنا ، ونمو وتطوير اقتصادنا ، وممارسة الديمقراطية بطريقة عملية .

إن نهضة آسيا مستمرة فى هدوء ، وقد حان الوقت لأن نعى ذلك . علينا أن نتجمع ، ليس لمواجهة الآخرين ، ولتشكيل تكتل تجارى يجب ألا نكون متعنتين ، ولا أن نكثر من الاعتذار وألا نحمل ضغينة لأحد . علينا فقط أن نؤكد حقوقنا الديمقراطية بوصفنا دولاً على قدم المساواة مع دول العالم الأخرى ولا نكون عرضة للبطش بنا فكريًا أو إعلاميًا ، و دبلوماسيًا . ويجب أن نوضح أنه ليس من الديمقراطية ؛ أن يمنعنا الآخرون من إقامة منتديات حوارية مثل المؤتمر الاقتصادى لدول شرق آسيا فى الوقت الذى يقيمون فيه

تكتلات حماية تجارية خاصة بهم !

إن النهضة الآسيوية ينبغى أن تكون بعثًا وميلادًا نفسيًا وثقافيًا يحررنا من قيود عقلية التبعية والعبودية ويثرى فنون وثقافات آسيا . لابد من أن تكون نهضة اقتصادية تدفع بقوة حياتنا المادية إلى الأمام مؤكدين فى الوقت نفسه على توفير العدالة الاجتماعية والاقتصادية لكل مواطنينا ، ينبغى أن تكون نهضة سياسية مؤسسة على أكثر الأشكال الديمقراطية تطوراً وثراءً وتكن عظيم الاحترام لكل حقوق الفرد وعلاقتها بحقوق المجتمع الذى يعيش فيه .

هذه النهضة الآسيوية يجب أيضًا أن تكون نهضة اجتماعية لتصحيح أخطاء القرون وتحقيق الكرامة والمساواة والفرص المتساوية للجميع بغض النظر عن النوع والوضع الإجتماعى والجنس واللون والعشيرة . ولن تكون فى مواجهة مع أى فرد أو دولة أو منطقة أو قارة .

لن تكون المهمة سهلة ، ولابد من أنه سيكون هناك معارضة . والتفويض المخول لمن هم ضد النهضة الآسيوية سيتحول إلى أداة بطش وطغيان فى يد وسائل الإعلام العالمية التى يسيطر عليها الغرب . ولهم مصلحة مؤكدة فى أن يجهض ميلاد آسيا الجديد ؛ لأن الأخبار السيئة تدر عليهم مالاً وفيراً هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأن الغرب الذى ينتمون إليه يشعر بالخطر .

إنهم يريدون الإبقاء على ما هو قائم ؛ لأن ذلك يبقى على سطوتهم وطغيانهم وحقهم فى بث أخبار تناسب أجندتهم و الترويج لوجهات نظرهم القيام بدور صناع الملوك فى كل مكان فى العالم !

من الخطر أن نقول للطاغية : أنت طاغية فى وجهه . فى الأيام الخوالى كان الفرد يوضع فى السجن ويترك فيه حتى يتعفن ، أما المقابل لذلك فى العصر الحديث فهو المعاداة وتشويه السمعة ، وتحريف الأخبار التى تضعف مكانة القادة وتسىء للأمم وتعرض صحتهم

السياسية والاقتصادية للخطر ! لقد اعتاد رجال الصحافة الغربيون ومقدمو البرامج الإخبارية على جعل ضيوفهم يرتعدون خوفًا في أماكنهم خلال المقابلات التي تجري معهم على الهواء . وهم قطعًا يستمتعون بالإحساس بالقوة ، ولن يترددوا في استخدام كل إمكانياتهم الإعلامية لمنع النهضة الآسيوية .

إذن فإن إعادة ميلاد آسيا لن يكون سهلا بأية حال ، ولكن على الآسيويين أن يعملوا بجد من أجل تحقيق هذا الهدف . والنجاح وحده هو الذي سيضمن لنا أن نعامل على أننا أنداد ومساوون لهم وأن نأخذ مكاننا على هذا الكوكب ، لابد من المضي قدمًا من أجل تحقيق النهضة الآسيوية ، ليس ردًا على أحد وليس تحديًا لأي قارة ، وإنما استجابة لمطالب شعبنا ، وتكريسًا لواجبنا تجاه أمتنا ، ونحن إذا لم نفعل ذلك فإننا نخون وعد مستقبلنا .

١٩- إصلاح الأمم المتحدة من أجل المستقبل *

تنعقد الجمعية العامة وسط جداول مشحونة بالأحداث لتحتفل بالذكرى الخمسين للأمم المتحدة ، وقد انشغل بعضنا بهذه الاحتفالات ويحق لنا أن نتسأل ما إذا كانت هذه الأنشطة فعلاً مجرد أحداث إعلامية أو أنها تسهم بحق فى تحسين الأمم المتحدة . وما إذا كان هذا الاحتفال الكبير بمرور خمسين عامًا على تأسيس الأمم المتحدة سيكون مجرد لقاء خاص لإحياء هذه الذكرى ، ويختزل فى إعلان نوايا حسنة لا يهتم بها أحد ، أم أن علينا أن نقاوم الميل للاحتفال وإنفاق الملايين على اللقاءات والمهرجانات وكيل المديح والإطراء لذكرى مرور خمسين عامًا على تأسيس الأمم المتحدة . على أية حال نحن لا نستطيع أن نجيب عن الأسئلة الأساسية من قبيل أين نقف؟ وما هو دور الأمم المتحدة؟ هل هى لاعب أساسى أم مجرد حامل سوط؟ .

وأعترف أنه من السهل طرح الأسئلة عن إيجاد أجوبة عنها ! ولكن هذه الأسئلة يجب أن تطرح و هى تستحق الإجابة عنها ، ففى الذكرى الخمسين تجد منظمة الأمم المتحدة نفسها عرضة لنقد شديد ؛ لأنها غير قادرة على تناول مسائل أساسية وحرجة سياسيًا ، واقتصاديًا واجتماعيًا . بالرغم من الآمال المبشرة بنظام عالمى عادل يأتى بعد الحرب الباردة إلاَّ أن ما نراه الآن هو «أمم متحدة» مازالت ترقص على موسيقى القوى الكبرى مع إغفال تام للمبادئ العليا والأهداف السامية التى كانت ترجى عند تكوينها ، وعلينا أن نخلص إلى أن المصالح الوطنية الضيقة للقلة مازالت هى كل ما تسعى إليه الأمم المتحدة ، كما أن المبدأ الذى يحرك القوى الكبرى إلى حد كبير هو أن ما يحتاجونه لأنفسهم لابد وأن يؤثر على تعاملهم مع

* خطاب ألقى فى الدورة الخمسين للجمعية العامة للأمم المتحدة فى نيويورك- الولايات المتحدة ، فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٩٥م .

احتياجات الآخرين ! وهو مبدأ يعمل بقوة تمامًا لدرجة أن ما يسمى بالمنافع المتبادلة بين الدول أصبح لغوًا لا معنى له ، وكذلك العدالة والتعاطف الاجتماعى .

وعليه فيجب أن ننسى الوعود بقيادة سياسية دولية يمكنها أن تتناول بقوة القضايا المهمة من أجل العيش المشترك ، فالمواجهات بين الدول ، والصراعات بينها والتهديدات العسكرية والاقتصادية والآثار اللا إنسانية للفقر ، كل ذلك تفاقم بدلاً من أن يقل ويتلاشى بانتهاء الحرب الباردة ! إن الدوافع المتناقضة للمنافع المتبادلة بين الأمم والانعزالية هى أكثر وضوحًا عن ذى قبل ؛ فالإنسانية لا تتلاشى على نحو سريع فقط ، بل إن ما بقى منها أصبح محاطًا بكل أنواع القيود والشروط المجحفة . إن الأمم المتحدة تقدم صورة مشوهة لسلطة أخلاقية بالية ، بالرغم من النجاح الباكر فى إنهاء الاستعمار والقضاء على التفرقة العنصرية .

إن الذين خرجوا منتصرين فى عام ١٩٤٥م يتمسكون بدوافع القوة بشدة ، ويسيطرون على المناطق الحاكمة ويمارسون السلطة والنفوذ بلا مواربة كما كانوا وهم قوى استعمارية ، إن ما تغير هو الأقنعة ! فالمنظمات متعددة الأطراف التى خلقت عشية نهاية الحرب كانت وماتزال مؤسسة للعمل على تنمية مصالحها الاقتصادية ، ومواصلة تحقيق أهدافها السياسية الاستراتيجية ، وأصبح كل من مجلس الأمن والبنك الدولى ومؤسسة النقد الدولى مجرد أدوات للقوة الدائمة . وقبل أقل من ستة أشهر مضت كنا شهودًا على استغلال الأمم المتحدة وبقوة لفرض اتفاقية منع الانتشار النووى ، وقبل أن يجف الحبر الذى كُتبت به الاتفاقية أقدمت بعض القوى النووية على إجراء تجارب على أسلحتها الجهنمية !! وإذا أذنتم لى فى السؤال : ما الذى يؤهل بعض الدول لامتلاك وسائل أسلحة الدمار الشامل بشكل دائم؟ لقد حان الوقت لأن تلزم الدول التى تمتلك أسلحة نووية نفسها بنزع سلاحها النووى من خلال برنامج لخفض ترساناتها النووية خلال زمن محدد الإطار مبتدئة بالتوقف الفورى لكل التجارب النووية ؛ حتى تصل إلى الحظر الشامل ، وفى القريب العاجل سيكون الثمن فادحاً ، إن لم تفعل ذلك ، ويكون الوقت قد فات .

وعلى العكس من ذلك ، تستمر القوى الكبرى ليس فقط فى التسابق من أجل تطوير أسلحة تقليدية أكثر دماراً ، ولكنها تتسابق أيضًا فى بيع الأسلحة . وعندما تشترى بعض الدول النامية أسلحة تتهمها وسائل الإعلام التى يسيطر عليها الغرب بالتورط فى سباق التسلح !!

يبدو أننا ورثنا عالمًا لم يعد للاعتبارات الأخلاقية دور فيه ، حيث أعمال السياسة الحقيقية ليس لها عواقب أخلاقية ، ويبدو أن الدموع تذرف بسبب المآسى الإنسانية الفاجعة فى البوسنة والهرسك ورواندا وليبيريا والصومال وشيشينيا ، ولكن الكثير منا أصبحوا متحجرى العواطف تجاه الآلام والفواجع التى تبرق عبر شاشاتنا بشكل روتينى . إن الميثاق الذى يتضمن المثاليات والأحلام التى انطلقت عام (١٩٤٥م) هى عرضة للانتهاك أكثر من الالتزام به ، فكيف كانت مبادىء هذا الميثاق التى تنص على عدم استخدام القوة ، وعدم شرعية المطالبة بأراضٍ اكتسبت للبوسنيين؟ وما الحماية أو السلوان اللذين توفرهما معاهدة الإبادة الجماعية لأولئك الذين ذبحوا فى رواندا والبوسنة وكمبوديا وشيشينيا؟ إن الدرس لشعوب تلك البلاد واضح ؛ فالقوى الكبرى لن تحمى نظامًا عالميًا أو روحَ شعبٍ ما لم تشعر أن مصالحها الحيوية فى خطر !

لقد كانت الأمم المتحدة طرفًا فى الكلام الخادع فى البوسنة ، وبإصرارها على أن الأخلاقيات ليس لها مكان فى حفظ السلام ؛ لأن النزاهة التى يجب على قوات حفظ السلام المحافظة عليها تتطلب منهم تجنب إصدار أى أحكام عما هو خطأ ، أو صواب فى الموقف . وأنا أسأل الأمم المتحدة ما إذا كانت هناك أرض وسطى ، خاصة بالإبادة الجماعية والتطهير العرقى . وأسأل السكرتير العام للأمم المتحدة ما إذا كان ملزمًا بالدفاع عن المبادئ الأخلاقية الموجودة فى ميثاق الأمم المتحدة ، أم أن عليه فقط أن يقدم تعازيه فى الموتى ويواسى المضارين بقوله إن غيرهم فى أماكن أخرى يواجهون مصائر أكثر سوءًا .

ألا يوجد فى إطار الصورة الأكبر دور خاصٌ للأمم المتحدة لإفراز قيادة دولية؟ ومن

الواضح أن القوى الكبرى قد فشلت فى تقديم قيادة ، واختارت فقط أن تتصرف لتعزيز مصالحها الوطنية ، أو مصالحها السياسية الداخلية ، يواصلون العزف على أوتار حقوق الإنسان وقداسة الحياة الإنسانية ، ولكنهم لا يتخذون أى إجراء فاعل إلا إذا كان ذلك بعيداً عن المخاطرة !

وإحقاقًا للحق فإن اللوم يقع على الكثير منا أيضًا فى العالم الثالث ؛ فالبعض منا يقود شعبه إلى اليأس والبؤس . مع زوال الاستعمار كان هناك وعد بالحرية والتقدم إلا أن الكثيرين استسلموا للدعة والراحة الشخصية ، وفشلوا فى تأمين حقوق ورفاهية شعوبهم ، وعندما كنا مستعمرات كان الأسلوب الوحيد الذى عرفناه للحكم هو الاستعمار المتسلط ، ومن المبالغ فيه أن يتوقع بعضنا أن نصبح ديمقراطيين ومتقدمين هكذا بين عيشة وضحاها .

إن التهديد بعالم تسوده الأعمال الوحشية لم يكن أكثر وضوحًا من برنامج الصرب للتطهر العرقى فى البوسنة والهرسك ، وتلك المذابح فى رواندا . وقد ظلت القوى الكبرى لمدة طويلة معارضة لاتخاذ أى إجراءات قوية ضد الصرب . وأدركنا فى وقت متأخر الغرضَ من قصف الناتو ، والجهود فى التفاوض على إيجاد حل . ومع ذلك فعلينا أن نحاذر من الاندفاع تجاه الحلول التى تكافئ العدوان والإبادة الجماعية ، ومن الممكن أن يكون هناك البعض فى الغرب وفى الأمم المتحدة ممن يتوقون إلى هزيمة سريعة للبوسنة ؛ فإن ذلك يوفر عليهم إتخاذ أى قرار ! ولكن البوسنيين رفضوا أن يجبروا على الهزيمة . وفى رواندا انسحبت القوات الأوروبية عندما بدأت المذابح ، وأدى الفشل فى فهم الموقف فى الصومال إلى أن يحارب الضحايا منقذيهم الذين أرسلتهم الأمم المتحدة .

ويجب أن يقع بعض اللوم على سكرتارية الأمم المتحدة بسبب الأعمال الوحشية التى شهدتها تلك المناطق . ففى رواندا تهربت من واجبها بينما أرسلت قوة حماية إلى البوسنة ومعها تعليمات بعدم حماية البوسنيين ، وكان تسميتها بقوات حماية ، غامضًا حتى وقت قريب ، فقد كانت هناك لا لشىء إلا الحماية نفسها ! هناك فرق بين حفظ السلام ودعم

السـلام ، ولو أن هناك سلام لتحفظه ، فلماذا أرسل قوات عسكرية؟ أليس ذلك بسبب احتمال انتهاك السلام؟ وعندما يكون هناك انتهاكات ؛ فعلى القوات أن توقفها ،لكى يكون هناك بالفعل معنى لحفظ السلام وعندما يتحطم السلام فإن الأمم المتحدة تهدد بالانسحاب وترك الضحايا لمصائرهم بدلاً من أن توفر لهم الحماية !

ولحسن الحظ فالجهود مستمرة فى فلسطين ؛ وهى منطقة التهاب تاريخى أخرى ، من أجل صنع سلام دائم ، يجب أن تثمر عملية السلام عن وطن قومى للفلسطينيين ؛ عن دولة قابلة للنمو تعيش فى سلام مع جيرانها ، والمحاولات الدائرة الآن لإضعاف القيادة الفلسطينية بالتقليل من شأنها ، وإضعاف مصداقيتها لن تسفر إلا عن زيادة التطرف وإطالة الصراع الدموى الذى ينعكس على إسرائيل وأماكن أخرى بالمنطقة !

وغياب القيادة الدولية والالتزام بالشرعية الدولية يتضح أيضًا فى مجال التنمية . إن خطاب التنمية بلا مضمون ، فقد أدار الغرب ظهره لكل التعهدات الخاصة بالمساعدة من أجل التنمية لدرجة أن الاهتمام ببقاء الحشرات والنبات أصبح مقدمًا على التنمية الإنسانية أحيانًا ، فلابد من أن تتوقف هذه التنمية الإنسانية لو أن هناك احتمالاً لتعرض حياة بعض الحيوانات والنباتات للخطر ، وإذ قيل إن هناك الكثير من هذه الأنواع فى أماكن أخرى وبكثرة ، فهذا أمر لا علاقة له بالمسألة ، وهكذا يظل خمس سكان العالم يتمرغون فى وحل الفقر بسبب منع الأغنياء والأقوياء لمساعدات التنمية البشرية من ، لقد انسحب الأغنياء والأقوياء إلى أنديتهم الإقليمية الدافئة والمريحة للمحافظة على مستوياتهم الاستهلاكية التى لا يمكن تصورها .

وقد حاولت بعض دول الجنوب أن تنمو معتمدة على نفسها وبصعوبة بالغة ولكن فى اللحظة التى يبدو فيها أنهم نجحوا ، يتم جذب البساط من تحت أقدامهم ، وسُحبت الامتيازات التى منحتها لهم الدول الكبرى ، وتفحص سجلاتهم لحقوق الانسان والديمقراطية . . إلخ ، بغرض إعاقة نموهم وتقدمهم .

وتم إغواء بعض من دول الجنوب الناجحة بالانضمام إلى الأغنياء والأقوياء ؛ حتى لا يقدموا يد العون بما لديهم من قوة ضئيلة لمواطنيهم !

إن الالتزام نحو البيئة لا يجب أن يتحول إلى مناسبة للإشارة بأصابع الاتهام إلى دول الجنوب وتجريمها ، كما لا يجب أن يوظف سياسيًا لإلحاق الضرر بدول الجنوب . التنمية يمكن أن تتم دون إحداث تلفيات يتعذر إصلاحها للبيئة ، وإجبار الدول النامية على أن تظل متخلفة من أجل الحفاظ على البيئة لصالح الأغنياء هو الظلم بعينه ! إلا أن العقبات التى توضع فى طريق فقراء الجنوب لن تؤدى إلا إلى زيادة الفقراء فقرًا على فقرهم وزيادة الأغنياء ثراءً فوق ثرائهم .

الفقر فى حد ذاته يخلق بيئة مدمرة للإنسانية مثل أى نوع آخر من التلوث البيئى . ومن الواضح أننا نريد أن نحدد أولوياتنا ؛ هل نبقى الفقراء على فقرهم ؛ لكى يستمتع الأثرياء بالبيئة ، أو أن نضحى قليلاً بالبيئة للتخفيف من حدة الفقر؟

ونحن فى ماليزيا نقبل ألا تكون التنمية الاقتصادية على حساب جماعات أخرى أو على حساب الأجيال القادمة . المحافظة على البيئة والمساواة الاجتماعية والثقافة التى تسمح بإشباع الحاجات الإنسانية لابد من أن تحل محل الثقافة المادية . إن المجتمع الغربى الاستهلاكى الذى ينتشر فى جميع أرجاء العالم ، يتطلب زيادة مستمرة فى الاستهلاك ؛ حتى يستمر الإنتاج والأرباح فى ازدياد ، ولهذا فإننا نحتاج إلى المزيد من الوقود ، والاتجاه نحو زيادة استهلاك وقود البترول فى السنوات الأخيرة يثير الإزعاج ويدق ناقوس الخطر . وبالرغم من ذلك لا يبذل سوى جهد قليل للحد من الاستخدام المسرف لهذا المصدر الناضب فى الوقت الذى تقابل فيه تطوير وتنمية مصادر الطاقة المتجددة - مثل الطاقة الهيدروليكية - بكل أنواع المعارضة ! إن ماليزيا التى تتقدمة صناعيًا بشكل مضطرد لديها القدرة والموارد لتصميم وابتكار وتطبيق نموذج للتنمية يراعى الاحتياجات والقيم الثقافية للدول النامية دون تقليد النموذج الغربى المعيب . كل ما نطلبه من أصحاب الحملات

المضللة أن يبتعدوا عنا ويتركونا فى حالنا . والأجدر بالمهيِّجين ومثيرى الشعور على الطريقة الشيوعية هذه الأيام أن يهتموا ببلادهم وبالاستهلاك المسرف وانبعاثات ثانى أكسيد الكربون فى بلادهم .

إن التفكك الاجتماعى يعد مشكلة خطيرة ؛ مع تحول معظم سكان العالم إلى الحياة الحضرية ، والغرب لا يساعد الغرب فى هذا الشأن ؛ بمحاولته فرض قيمه الأخلاقية على الآخرين . إن المؤسسات التى تجعل المجتمع متماسكًا تتعرض الآن للتآكل ؛ ففى قمة بكين للمرأة عام ١٩٩٤م ، وبالرغم من الإجماع على تخفيف معاناة المرأة ، فإن البحث المسعور عن الحرية الشخصية اتخذ خطوة وجهت فيها ضربة قوية للتقاليد والأعراف ؛ فالناس كما يبدو لهم ، لن يكونوا أحرارًا ما لم تتوفر لهم الحرية الجنسية ! حرية ترفض الضوابط والتقاليد والقيم الدينية للزواج والأسرة بوصفها مؤسسات اجتماعية ، فالحرية الجنسية تجعل الإخلاص لا معنى له ، كما أنها تجعل من الزواج أمرًا ينطوى على مفارقة تاريخية ! وانتهت الليبرالية الجديدة إلى تعريف جديد للأسرة يتضمن زواج الشواذ جنسيًا من بعضهم ونساء غير متزوجات ولهن أطفال من آباء مجهولين ، ومجموعات من النساء و الرجال يعيشون معًا دون أن يكونوا شركاء ثابتين مع ممارسات شاذة أخرى لا حد لها .

و إذا كان الغرب يريد أن يكون ليبراليًا وحرًا جنسيًا فيما يتعلق بالجنس فهذا حقهم ، ولكن الخطأ هو محاولة فرض أخلاقياتهم (أو بالأحرى لا أخلاقياتهم) على بقية العالم ، وهذا ما حاولوا أن يفعلوه فى بكين . ولا يجوز أن تكون الأمم المتحدة وسيلة لهذا النوع من الإهمال اللاديمقراطى لحقوق الآخرين .

لقد كان هناك فى الفترة الأخيرة كلام كثير عن إصلاح الأمم المتحدة ، من الواضح أن هناك حاجة لذلك بعد مرور خمسين عامًا من حمل الأمم المتحدة لحقيبة الملابس الرثة للحرب العالمية الثانية ، وبالتأكيد فإن نتائج الحرب لا يمكن أن تنعكس على بنية وأساليب الأمم المتحدة للأبد ، فلابد من أن تنتهى يومًا ما ؛ والذكرى الخمسون هى الوقت المناسب

لدفن رفات حماقات الماضى .

ولأن الديمقراطية قد حلت محل الدين بوصفه عقيدة كما يبدو ، فمن الأجدر أن تكون هناك إصلاحات ديمقراطية فى الأمم المتحدة . بعض الدول كانت تتصور أنها معصومة من الزلل أو السقوط من مكانها إلاّ أنها أصبحت الآن دولاً من الدرجة الثانية ، وظهر لاعبون جدد يستحقون الاعتراف الدولى بهم ، ولا بد من تمثيل أكثر مساواة فى مجلس الأمن ، وهذا يعنى أن المقاعد الدائمة يجب أن تعطى لأقاليم بآلية إقليمية إن أمكن ، كما يجب إسقاط قوة حق النقض (الفيتو) ، ولا يجب تحت أى ظرف من الظروف أن يصبح مجلس الأمن أداة فى يد دولة واحدة فقط .

كما يجب أن يمتد الإصلاح أيضًا إلى تمويل الأمم المتحدة فليس من المقبول بالمرة أن تتأخر الدول الأعضاء وخاصة الغنية فى الوفاء بالتزاماتها المالية ، خاصة أن الدول الأعضاء الأغنياء تقع فى وهدة المتأخرات المالية وتتمتع بحصانة ، ومع ذلك وبالرغم من ذلك تمارس نفوذا و حقوقًا خاصة . يجب تطبيق قواعد العضوية على الجميع دون استثناء ، ويجب إرساء قواعد جديدة للتقييم آخذين فى الاعتبار توفر الثروة أو نقصها لدى كل من الدول الأعضاء .

وهناك مشاريع ضريبية كونية مقترحة بما فى ذلك ضريبة بسيطة على السفر جوًا ، وضريبة على التدفق المتوقع لرأس المال عالميًا ، وضريبة على استغلال البحار وهى أصول ثابتة ملك للبشرية كلها ، وضريبة على تجارة أسلحة الحرب والتى أقتراحها عملاً بمبدأ أن من يستفيد من أدوات الحرب ، لابد من أن يسهم فى تكلفة صيانة السلام وهى تستحق الاهتمام والتبنى السريع .

كما يتطلب إصلاح الأمم المتحدة التخلص من البيروقراطية والأساليب القديمة فى السكرتارية ، والترهل الموجود فى هذا الجهاز كما أن الفشل فى القيام بذلك لا يجب أن

يكون عذراً لعدم دفع المستحقات أو الانسحاب .

ومن المشجع أن مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية وغيره من الوكالات الاقتصادية الأخرى التابعة للأمم المتحدة قد أقرت بأن ربط التجارة بقضايا غير تجارية لا يخدم أى هدف مفيد لأى طرف سواء الدول المتقدمة ،أو الدول النامية ، فالبطاله فى الدول المتقدمةليس سببها أن العمال فى الدول النامية يعملون بجد لتعويض افتقارهم إلى المزايا التنافسية ولكنها ترجع إلى الإسراف والتبذير فى الدولة المتقدمة المتطورة وإلى الأجور العالية وتعويضات البطالة ، لماذا يفترض أن العمال فى الدول المتقدمة سيعملون إذا كانوا سيحصلون على أجور عن عدم العمل ! إن ذلك لشئ غامض ، وكأن الناس سيكونون سعداء لو أن من يعمل ومن لا يعمل يحصلون على أجور متساوية !

ولابد من أن يشمل إصلاح المؤسسات الكونية منظمات (بريتون وودز) كذلك ولابد أن توجه طاقاتهم ومواردهم فى معاركهم ضد التلوث الذى يسببه الفقر فى جميع أرجاء العالم ، ولابد أن تتوقف منظمات (بريتون وودز) عن القيام بدور محصل الديون لصالح أصحاب البنوك الأقوياء الأغنياء ، الذين عليهم بدورهم أن يتعلموا العيش فى إطار القواعد التى وضعوها بأنفسهم ؛ وهى أن يتحملوا المخاطرة التجارية التى تسير جنبًا إلى جنب مع السعى وراء الربح . وعودة إلى تعهداتهم الأصلية بانتهاج تنمية متوازنة فى حالة البنك الدولى وبدعم مسئوليتهم المالية والنقدية فى كل الدول بغض النظر عن وضعها ومركزها فى الاقتصاد العالمى واعتبار ذلك أولوية و يجب أن يشمل الإصلاح إعادة تقييم لكل الإجراءات التى تحكم العمل البنك الدولى ، وصندوق النقد الدولى من خلال إعادة تنظيم وتوزيع الحصص ، و الأسهم مع مراعاة تغير هيكل الاقتصاد العالمى . ولابد من أن تعترف الإجراءات والترتيبات الجديدة بالنمو القوى للأنظمة الاقتصادية الصاعدة ، والتى تسهم الآن بنصيب وافر فى الإنتاج العالمى وفى التجارة وتدفق رأس المال .

إن العبء الثقيل للديون الذى يرزح تحت وطأته الفقراء ، هذا العبء لابد من تخفيفه

وخاصة بالنسبة للدول الأفريقية الأكثر فقراً . وتأمل ماليزيا أن تتخذ إجراءات فعالة ومؤثرة تضع في الاعتبار القرارات التي اتخذت في الجلسة ٤٩ للجمعية العامة من أجل إيجاد حلول دائمة لمشكلة الديون الخارجية للدول النامية .

وبينما الديون الثنائية التي امتدت عبر السنين للدول المانحة يعاد هيكلتها وجدولتها- في ظل شروط مهينة فرضها نادي باريس للدائنين ، إلا أن المؤسسات متعددة الجنسية التي يتزعمها البنك الدولي ترفض بعناد النظر في إعادة جدولة الديون المستحقة لهم ، ويستمر البنك الدولي في زيادة معدلات فوائد الديون ويكدس احتياطيات تزيد اليوم عن ١٦ بليون دولار أمريكي ، فلماذا لا تستخدم كل هذه المدخرات التي تكونت من الأموال التي تدفعها الدول النامية ، في تخفيف الدين؟ ولماذا نسمح بالموقف المتعنت من قبل دولة أو دولتين للحيلولة دون إصدار حقوق سحب عن طريق صندوق النقد الدولي؟ هذه المسائل وغيرها يجب أن تتضمنها إصلاحات في مؤسسات بريتون وودز .

إن نتائج جولة أورجواي وتأسيس منظمة التجارة العالمية تعطي بصيصاً من الأمل في علاقات قائمة على أساس التجارة ، وقد شجعت ماليزيا ورحبت بالمبادئ الواضحة و نعد بتنفيذ التعهدات بيننا وبين الأطراف الأخرى .

ومما يدعو للأسف أن الدول التجارية القوية تهدد باتخاذ إجراءات من جانب واحد للتقليل من شأن الاتفاقيات التي تم التوصل إليها ، وتعمد خلق تكتلات تجارية إقليمية وإدخال تجارة محكومة ، ومحاولات الربط بين حقوق الإنسان والاعتبارات البيئية وقوانين العمل بالتجارة ، كل هذا يعتبر تهديدات كبرى ، يمكن في حال تطبيقها ، أن تضعف الأمل في خلق بيئة حرة للتجارة . إننا نرفض مثل هذه المحاولات . إن إجراءات الحماية الجديدة سوف تعيد العالم إلى حقبة قد خلت ، عندما كانت الحروب التجارية تؤدي إلى مواجهات عسكرية .

وأخيراً ، علينا أن نواجه التهديدات الجديدة القادمة مع عصر المعلومات . لقد عانت الدول الفقيرة كثيراً من التقارير الصحفية المتحيزة التى تنقلها وسائل الإعلام العالمية الخاضعة للدول المتقدمة . والآن أصبحت شبكة الكمبيوتر التى خلقت لنشر المعارف والمعلومات ، أصبحت ملوثة بتلك القاذورات التى يتم نشرها دون مسئولية . وهناك من يثرون من تلك البذاءات . على المجتمع الدولى أن يجد وسيلة للتخلص من هذا الفحش وأن يعمل على سن القوانين واتخاذ كل ما يلزم من إجراءات قانونية ضد أولئك المارقين من قبل الدول المتضررة حتى ولو كانوا يبثون من خارج الحدود . كما يجب أن يسمح للدول المتضررة بتقديم أولئك الآثمين للمحاكمة لديها وتحت طائلة قوانينها . وعلى أية حال فلدينا فعلاً العديد من الأمثلة على تطبيق قوانين بعض الدول خارج حدودها دون استئذان !

لا بأس بالنسبة لحرية المعلومات ولكن حتى فى عصر الحرية هذا لا يمكن أن نسمح بأن تنهار الأخلاق وتنحدر حتى يثرى بعض تجار الجنس والإباحية والبذاءة .

وفى النهاية ؛ علينا أن نقر ونعترف بأن الأمم المتحدة هى المنظمة الوحيدة متعددة الجنسية بحق و التى يمكن سماع أصوات الأمم الصغيرة فيها . إننا ندعم ونؤيد الأمم المتحدة ، ولكن يجب أن نصحح الاتجاه لكى لا تكون أداة للأغنياء والأقوياء .

يجب أن تقف الأمم المتحدة إلى جانب الحاجات الجماعية للشعوب والدول ؛ لكى تخدم كل الجنس البشرى .

٢٠- مُستَقبَلُ آسيَا *

أعتقد أننى مؤهل للحديث عن مستقبل بلادى ، ماليزيا ، وإن كنت لست متأكدًا من أن بإمكانى أن أستطلع مستقبل آسيا ، إلا أننى سوف أحاول ، ما دمت قد دعيت إلى هنا .

قبل فترة قصيرة كانت كل الدول الآسيوية تريد أن تتشبه بالغرب ، لم تكن تلك الدول تريد أن تكون دولاً صناعية أو أن ترفع مستوى متوسط دخل الفرد ، كانت تريد فقط أن تتحول إلى مجتمع أوروبى يرتدى المعاطف وأربطة العنق ، كما تضع نساؤه القبعات فوق رؤوسهن . لم يكن تقدير الآسيويين ولا الدول الآسيوية لأنفسهم كبيرًا آنذاك ، بل إنهم كانوا يحتقرون أنفسهم وكأنهم لا يستحقون الحياة .

كانت هناك بالطبع أسباب كثيرة لعقدة النقص هذه ؛ فقد كانت أجزاء كبيرة من آسيا مستعمرة من قبل الأوروبيين ، الذين كانت قلة قليلة منهم كفيلة بأن تحكم الملايين . كان الأوروبيون يملكون المهارة والمعرفة والتكنولوجيا الصناعية ، أما الآسيويين فلم يكن لديهم سوى الحرف البدائية ، وفى الوقت نفسه كان الأوروبيون أقوى عسكريًا وأفضل تنظيمًا ويستطيعون فرض إرادتهم . وكان الآسيويون يعتقدون تمامًا أن الأوروبيين كائنات فوق مستوى البشر ، وأن بإمكانهم أن يقلدوا أسلوبهم فى الحياة ، بينما من المستحيل تحقيق مثل إنجازاتهم .

وعندما تحدت اليابان الأوروبيين فى حرب الپاسيفيك ، كان معظم الآسيويين يعتقدون أن اليابان قد أقدمت على مجازفة طائشة . كانت هزيمة اليابان متوقعة ، وبعد الهزيمة ، بالطبع ، لم يكن متوقعًا أيضًا أن تتعافى اليابان مرة أخرى ، بل كان المتوقع أن يظل

* ورقة مقدمة للمؤتمر الدولى عن "مستقبل آسيا (Nihon Keizai Shimbun) طوكيو - اليابان ، ١٩ مايو ١٩٩٥ .

الآسيويون خاضعين للأوروبيين .

أما بالنسبة للأوروبيين ، فقد كانت لديهم الأفكار نفسها ، وهى أنهم متفوقون ، وسوف يظلون هكذا ، كانوا كلهم ثقة فى عدم إمكانية أن تلحق بهم أية دولة إلا بما يمنحونه لها على سبيل الصدقة ، ولذلك فتحوا أسواقهم الضخمة أمام اليابان بلا قيود ، ولكنهم لم يدركوا - إلا متأخرًا - أن أعمال الصدقة هذه لم تكن فى موضعها ؛ فقد تعافت اليابان ، وليس هذا فقط بل إن دولاً متخلفة مثل كوريا الجنوبية وتايوان بدت قادرة على محاكاة المعجزة الاقتصادية اليابانية .

على مر التاريخ ، كان للأوروبيين تجارب سيئة مع الآسيويين ؛ فقد سبق أن قام المغول والأتراك العثمانيون والعرب باحتلال مناطق من أوروبا أو الإغارة عليها وأحرقوا وقتلوا وأسروا أهلها ، كما عاشوا عدة قرون يملؤهم الخوف من تكرار هجمات المغول والأتراك . كان الخوف من الخطر الأصفر قائمًا بشكل حقيقى ، وبالرغم من أنهم لا يتحدثون عنه كثيرًا الآن ، إلا أنه ما زال جاثمًا .

استعادة الدول الآسيوية لقوتها فى حالات عديدة ، ولقدرتها على طرد الأوروبيين من الأسواق العالمية لا يمكن إلا أن يوقظ ذلك الخوف من الخطر الأصفر . قد لا يحب الآسيويون ذلك ، ولكن العداء الأوروبى تجاه التوسع الاقتصادى الآسيوى سيكون له أثر كبير على مستقبل آسيا .

إن آسيا -حتى الآن- لا تحقق تقدمًا بشكل متماثل أو متسق . معظم التقدم يحدث فى شرق القارة ؛ أى فى شمال شرق آسيا وفى جنوبها الشرقى ، إلا أنه من الواضح أن الدول الآسيوية تتعلم بسرعة من تجارب بعضها . ربما لم يعودوا يشعرون بضرورة محاكاة الدول الغربية ، إلا أنهم أصبحوا يؤمنون بأن أية دولة آسيوية يمكن أن تحقق ما حققته أية دولة آسيوية أخرى .

وبدءًا بمحاولة كوريا الجنوبية وتايوان لتقليد اليابان ، انتقلت العملية إلى دول جنوب شرق آسيا الأخرى ، بل إن هناك أثرًا كبيرًا لنجاح دول جنوب شرق آسيا فى عملية التصنيع ؛ فإذا كان أبناء جنوب شرق آسيا -وغالبيتهم من ذوى البشرة البنية- يستطيعون أن يفعلوا ذلك ، فإن بمقدور الجميع أن يفعله . لم تعد التنمية أو التقدم سرًا . وهكذا فإن الصين ودول الهند الصينية وبورما ودول جنوب آسيا ، كلها بدأت عملية التنمية الصناعية ؛ حتى جمهوريات آسيا الوسطى المستقلة حديثًا قد أبدت اهتمامًا ، وتتبع خطوات شرق آسيا فى التقدم ، الأمر الذى يبين لنا كيف أن بإمكان الدول المتخلفة أن تعيد بناء نفسها ، وأن تنمو .

وفى الوقت نفسه ، فإن دول شرق آسيا تحقق تقدما كبيرا لدرجة أن حجم التجارة بينها يصل إلى ٤٠٪ من إجمالى نشاطها التجارى . صحيح أنهم ما زالوا فى بداية الطريق ، بيد أن إمكانيات التقدم هائلة .

إجمالى الناتج المحلى- GDP بمقاييس زيادة القوة الشرائية- PPP فى الصين الآن هو ٥٨٨ , ٢بليون دولار ، بينما متوسط دخل الفرد من إجمالى الناتج القومى- GNP هو ٤٣٥دولارا ، وبالمقارنة نجد أن متوسط دخل الفرد فى ماليزيا هو ٣٥٠٠دولارا . من المؤكد أن الصينيين يستطيعون اللحاق بماليزيا ، وعندما يتحقق ذلك لابد من أن يكون إجمالى الناتج الصينى المحلى حوالى ٢٣٠٠٠بليون دولار . إجمالى الناتج المحلى الأمريكى الآن هو ٦٣٨٧بليون دولار ، وحتى لو تقدمت الولايات المتحدة بمعدل نمو سنوى ٣٪ فلن تظل متفوقة على الصين طويلاً .

وفى تقديرات البنك الدولى أن الصين بحلول عام ٢٠٢٠ سيكون لديها أكبر اقتصاد فى العالم ، ويفارق ٤٠٪ عن الثانى وهو اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية ، كما تستنتج التحليلات نفسها أنها لن تكون مفاجأة أن نجد ستة من أكبر عشرة اقتصادات فى العالم فى آسيا بحلول عام ٢٠٢٠ ؛ فإلى جانب الصين ستأتى اليابان فى المرتبة الثالثة ، والهند فى الرابعة ، وإندونيسيا فى الخامسة ، وكوريا الجنوبية فى السابعة ، وتايلاند فى المرتبة الثامنة ،

بينما ستكون تايوان فى العاشرة .

هذه التوقعات يمكن بالطبع ألا تكون دقيقة حيث إنه ستكون هناك متغيرات كثيرة قد تغير الصورة تمامًا ، ولكن مالم تشتعل حرب كبرى بين الدول الآسيوية نفسها ، أو بين الدول الآسيوية وغير الآسيوية ، ستكون الفرص كبيرة أمام هذه البلاد لكى تحقق تلك التوقعات .

كان العامل الرئيسى الذى ساعد على تحقيق هذا السيناريو ، هو سقوط الشيوعية ونظريات الاقتصاد الاشتراكى . إن افتراض أن المساواة لابد من أن تعنى العدالة ، يبدو افتراضًا منطقيًا ومثاليًا . والحقيقة أن المساواة ، فى حالات كثيرة ، قد تؤدى إلى العدالة ، مثل المساواة أمام القانون ، ولكن المساواة بين أفراد المجتمع فى الثروة لا ينتج عنها عدالة أو إنصاف فهى تؤدى فى النهاية إلى إفقار الجميع وإفقار الدولة ، ولكى يتعلم الروس هذه الحقيقة البسيطة ، كان عليهم أن ينتظروا سبعين عامًا .

بمجرد رفض الشيوعية والاشتراكية ، أصبح المشروع الخاص أمرًا ممكنًا . صحيح أن كثيرًا من الشيوعيين السابقين ما زالوا يعتقدون أن الأرباح الخاصة خطيئة ، لكنهم بمرور الوقت سيعرفون وسيقبلون دافع الربح ، ليس باعتباره أمرًا عاديًا فقط ، بل أيضا باعتباره وسيلة لصنع وزيادة الثروة .

سيكون التغيير أكثر حذرًا من الناحية السياسية ، وسوف يحتاج الشيوعيون إلى وقت أطول لكى يتخلوا عن النظام الشمولى لصالح الديمقراطية ، وهذا ليس أمرًا سيئًا فى حد ذاته . لا يوجد شيء أكثر اضطرابًا وقلقًا من أناس عاشوا مكبلين عدة عقود ، وفجأة يجدون أنفسهم وقد أصبحوا أحرارًا . الحرية تدير الرأس بسرعة وسهولة ، وقبل أن يدركها أحد تكون الفوضى قد انتشرت ، ولم يؤد تبنى الديمقراطية على نحو سريع – فى عدد من الدول الشيوعية السابقة– سوى إلى زيادة الجريمة والفساد . أصبحت الحكومات ضعيفة وأقل قدرة ، ولأنهم ليسوا على معرفة بسيادة القانون ، يجدون أنفسهم عاجزين عن فرضه كما يفرضه الليبراليون . من الصعب أن نلقى عليهم اللوم ؛ إذ أن هناك من الدول الديمقراطية

القديمة من هم عاجزون عن تطبيق الديمقراطية . حرية المواطنين مقدسة لدرجة أن بإمكانهم تكوين ميليشيات مسلحة لإسقاط الحكومات بالعنف ، وحيث إن كل ما يفعلونه هو ارتداء زى خاص وحمل السلاح بما فى ذلك المدافع الرشاشة ، فى بلاد يرتدى فيها أى شخص ما يريد ، ومن حقه أن يحمل السلاح ؛ فإن ما يفعلونه لا يمثل أى خرق للقانون . وما يحدث هو أنهم يستخدمون السلاح ضد أى شىء لا يريدونه ، قبل اتخاذ أى إجراء ضدهم . حتى العقاب فى مثل تلك الأحوال يكون هينًا لدينا . القصاص ، حياة بحياة ، سيكون ضربًا من البربرية . وجزاء قتل الأطفال والأبرياء سيكون السجن مدى الحياة ، ثم العفو عنهم بعد عشر سنوات لحسن سلوكهم .

لقد بدأت الحكومات الديمقراطية تدرك أن الحرية المفرطة خطر شديد ، إلا أنهم ليسوا مستعدين لاتخاذ أى موقف إزاءها ، لقد أصبحت الحياة غير آمنة فى كثير من الدول الديمقراطية . الثروة لا تحقق السعادة دائمًا ، والمساعدات الاجتماعية لم تحسن الصورة . هناك إساءة استخدام للسلطة وفساد فى كل مكان سواء فى الحكومة أو قطاع الأعمال . القيم الأخلاقية فى اضمحلال .

بعد إدراكها لذلك كله ، هل يكون من الغريب ألا تقتنع الدول الشيوعية السابقة فى آسيا بأن الديمقراطية – على الأقل فى شكلها الغربى – هى أفضل نظام؟ إنها ليست على استعداد حتى الآن للتخلى عن الأنظمة الشمولية وانتهاج الديمقراطية ، بقدر استعدادها لقبول اقتصاد السوق باعتباره حلاً لمشكلاتها الاقتصادية .

ومع ذلك تظل زيادة الثروة عن طريق نظام السوق الحرة لابد من أن تجعل مواطنى الدول الشيوعية السابقة يطلبون المزيد من الحرية ، ولكن بالرغم من أنه ستكون هناك حرية أكثر ، إلا أن الاحتمال ضعيف فى أن تتبنى الدول الآسيوية فى المستقبل النموذج الغربى من الحرية المطلقة . وبالفعل ، فإن الدول الآسيوية التى تبنت الأفكار الديمقراطية الغربية برمتها تجد صعوبة شديدة فى حكم بلادها . الإضرابات وأعمال الشغب والعنف تضعف

الاقتصاد ، وتجعل الحياة صعبة بالنسبة للمواطنين . إلغاء التعليم الدينى فى المدارس الحكومية ، بينما تترك الحرية المطلقة للاعتقاد ، أدى إلى فقدان الاتجاه وظهور طوائف دينية متعددة بعضها يؤمن بالعنف ، ويشهد الآسيويون الآن طوائف بوذية يمكن أن تكون على نفس الدرجة من العنف ، والمفترض ألا تتدخل الحكومة الديمقراطية إلا فى حالات القتل أو ضياع الثروة. . ربما تكون الديمقراطية الليبرالية جيدة بالنسبة للمتطرفين ولأبناء الطوائف الدينية ، إلا أن الضحايا الأبرياء ربما لايعتقدون ذلك ؛ حيث إن لهم الحق فى الحفاظ على حياتهم أيضًا .

يعتبر حق الإضراب أحد الحقوق الأساسية للعمال فى النظم الديمقراطية ، ولكن ما المقدمات الأساسية المفترضة للإضراب؟ ليست أكثر من اختبار قوة بين العاملين وأصحاب العمل ، أو محاولة لمعرفة من يستطيع أن يتحمل أكبر قدر من الضرر ، وهى شىء أشبه بأن تطلب من شخصين يتصارعان أن يستمرا فى صراعهما إلى أن يستسلم أحدهما من شدة الألم ؛ فهل هذا أسلوب لحل الصراع فى عالم متحضر؟ هل الحرب هى الوسيلة لحسم أى خلاف؟

لقد كان المرء يتصور أن الصراعات فى هذا العصر الحديث ينبغى أن تحل عن طريق المفاوضات والتحكيم أو عن طريق المحاكم ، ولكن الديمقراطية الغربية تعتمد اختبار القوة وسيلة لحل المنازعات . إنهم يحثون على ذلك بقوة ، بل إنهم يحاولون تأليب القوى العاملة فى الدول الناشئة باسم حقوق العمال ، ويعلمون جيدًا أن الممارسة الليبرالية لهذه الحقوق سوف تؤخر نمو هذه الدول المكافحة ، ولكن ذلك لا يثنيهم عن فرض تلك الحقوق على عمال تلك البلاد ، وهم يعرفون بالطبع أن القلاقل التى تحدث فى صناعات هذه الدول لن تفيد سوى عمال الدول المتقدمة . إن أحدًا لا يجرؤ على القول إن لديهم دوافع سيئة ، كل ما يريدونه هو أن يحموا عمال العالم ! !

والدول الآسيوية لها عذرها فى أن تشك فى وجود هذه الدوافع الخفية ؛ فهم ليسوا

مقتنعين بأن النموذج الغربى للديمقراطية هو أفضل شكل لها ، ومن هنا فقد بدأوا فى تحديد الشكل الذى يفهمونه . الحرية نعم ، ولكن المسئولية أيضًا . وإذا كان الأمريكيون قبل قرنين من الزمان قد صمموا على أنه «لا ضرائب دون تمثيل فى المجالس النيابية» ؛ فإن الآسيويين اليوم مؤمنون بأنه «لا حرية بلا مسئولية» .

بالنسبة للآسيويين ، يأتى المجتمع أو الأغلبية أولاً . الفرد والأقلية لابد من أن يكون لهم حقوقهم ، ولكن ليس على حساب الأغلبية بشكل غير معقول . قد يكون مسموحًا بنسبة تجاوز بسيطة ، ولكن الآسيويين لا يتوقعون من الديمقراطية حرية فردية ، مطلقة ، تقلق الأمان أو تشكل خطرًا على المجتمع . الديمقراطية أسلوب للحكم ، وهى أسلوب جيد إذا كانت النتائج جيدة . وهنا أتذكر تقريرًا تلفزيونيا عن قيام الإسرائيليين بقتل بعض اللاجئين الفلسطينيين فى لبنان قبل عشر سنوات تقريبا . لقد عبر المعلق الأمريكى عما أصابه من رعب أمام ما حدث ، إلا أنه أنهى تعليقه بالقول إن الولايات المتحدة لابد من أن تدعم إسرائيل ؛ لأنها الدولة الديمقراطية الوحيدة فى المنطقة . واضح أنك يمكن أن تقتل باسم الديمقراطية !!

لابد من أن تعترف ماليزيا - دون أية مواربة - أن ديمقراطيتها ليست من النموذج الغربى . عندما بدأت جماعة إسلامية الانحراف عن تعاليم الإسلام الصحيحة ، تم اعتقال زعمائها . كان عليهم أن يدافعوا عن أفكارهم أمام أناس ملمين تماما بالعقيدة الإسلامية ، ولكنهم فشلوا فى إقناع علماء المسلمين بأسس تعاليمهم ، وفى النهاية اقتنعوا بأنهم منحرفون ، وعادوا إلى الطريق الصحيح .

لقد تم إعادة أولئك المنحرفين إلى جادة الصواب مبكرًا ، ولو كان قد سمح لهم بالاستمرار لكى يتمكنوا من القيام بأعمال عنف ضد الشعب ، لكان الوقت قد أصبح متأخرا . والآن ، بعد أن هدأت الأمور بالطبع ، أصبح البعض يشعر بأن الحكومة لم تكن ديمقراطية ، إلا أن ماليزيا تعتقد أن من الديمقراطية أن تتوقع العنف وتقوم بحماية الناس .

وسواء اعترف الغرب بذلك أو لا ؛ فإن ديفيد كورش وطائفة «الجونز» كانوا نتاج الشكل الغربى من الديمقراطية ، وكذلك التفجيرات الأخيرة فى أوكلاهوما ، ولكن ميليشات ميتشجن المسلحة لم ينتج عنها أى ضرر حتى الآن ، إلا أنك تستطيع أن تراهن على أنهم عاجلاً أو آجلاً سوف يستخدمون الأسلحة التى يمتلكونها بشكل ديمقراطى !

إن ظلم الديمقراطيين ليس أقل إيلامًا من ظلم المستبدين ، كلاهما ينبغى إدانته ، وآسيا لا يمكنها أن تقبل القيم الغربية بجملتها ، عليها أن تختار الجوانب الديمقراطية التى تريد ، وليس شرطًا أن تكون الملامح الديمقراطية متشابهة فى كل دول آسيا ، بل يجب أن تقوم كل دولة بتطويع ديمقراطيتها بما يتفق مع خواص شعبها واحتياجاته ، ومن خلال العملية الديمقراطية الأساسية يحدد كل شعب نوع الديمقراطية التى يريد ودرجتها ، كما أن الشيء نفسه ينطبق على حقوق الإنسان التى يجب ألا تكون طبق الأصل من حقوق الإنسان فى الغرب . لابد من أن ينعم الفرد والأقلية بالحرية ، ولكن هذه الحرية ينبغى ألا تحرم الأغلبية من حقوقها .

ونجد إلى الآن أن بعض الدول الآسيوية قد رفضت أن تنحنى أمام الضغوط الغربية فيما يتعلق بالديمقراطية وحقوق الإنسان . والبعض بالطبع يساوى بين التحديث والتغريب الكامل والقبول التام بقيم الغرب بما فيها ما هو شديد الخصوصية ، ولكن معظم الدول الآسيوية الحديثة فى الغالب ، ستكون فى المستقبل دولاً ديمقراطية على نحو مختلف ، ليس فى علاقتها بالغرب فقط ، بل وفى علاقتها ببعضها ، على أمل أن يتعلموا تجاوز الاختلافات وعدم الشعور بالذنب لاختلاف نظمهم الديمقراطية .

وبصرف النظر عن كونهم أكثر ديمقراطية وملتزمين بتصوراتهم الخاصة عن حقوق الإنسان- وبصرف النظر عن قبول سياسة الاقتصاد الحر- إلا أن أحدًا لا يستطيع أن يتنبأ بمستقبل آسيا على نحو أكيد . هناك عدة سيناريوهات محتملة ، وكلها ممكنة بناءً على تاريخ آسيا وأوضاع دولها فى الوقت الراهن .

ولنتناول أولاً أسوأ هذه السيناريوهات ، وهو أن تقوم حرب بين الدول الآسيوية ، وهذه الحرب قد تبدأ بنزاعات حول مصائد أسماك الرنجة . الصين مصرة على أن بحر الصين الجنوبى ملك لها بما فيه من جزر وشعاب ومعادن ، ولتأكيد هذا الادعاء تقوم ببناء سلسلة من المصدات للصيادين الصينيين على نحو يجعلها تبدو مثل التجهيزات العسكرية . مجموعة دول «الآسيان» التى تضم دول الهند الصينية تصبح فى حالة قلق ؛ فتتطلع هذه الدول إلى اليابان ؛ لأنها لا تستطيع أن تواجه الصين التى ستكون قد أصبحت أقوى اقتصاد فى العالم ، ولكن اليابان تتخذ موقفًا حياديًا صارمًا ؛ لأن السوق الصينية شديدة الأهمية بالنسبة لها . تعرض الولايات المتحدة الأمريكية المساعدة التى ترحب بها دول «الآسيان» ، ويبدأ الأسطول الپاسيفيكى جولاته فى بحر الصين الجنوبى ، وتحدث صدامات بين الأسطولين الصينى والأمريكى تعلن الأمم المتحدة أنها لا يمكن أن تتدخل ، وتناشد الدول أن تسوى خلافاتها عن طريق التفاوض . الكل يتجاهل الأمم المتحدة . تعلن الصين الحرب على الولايات المتحدة ، وتنشب حرب شاملة . تلقى قنبلة نووية على بكين ، قنبلة تقتل- فقط- عشرة ملايين شخص ! تنتقم الصين بأن تطلق صواريخ نووية على الساحل الأمريكى الغربى ليسقط أحد الرؤوس بالقرب من طوكيو عن طريق الخطأ ، وسأترك التفاصيل لخيالكم ، هذا أحد السيناريوهات المستقبلية لآسيا .

وهناك سيناريو آخر ، وهو أن تقبل كل دول آسيا بالوضع الراهن . قد تحقق نموا إلا أنها لن تتجاوز الغرب أبدا . قد لا تتحاور دول آسيا معا حول أى قضية أو تعمل معًا فى أى مجال ، كلهم أعضاء فى «الأبيك» (منظمة التعاون الاقتصادى الآسيوية الپاسيفيكية) التى تقودها الولايات المتحدة .

التجارة العالمية ستكون تحت إدارة الاتحاد الأوروبى والنافتا (اتفاقية التجارة لدول أمريكا الشمالية) اللذين سيكونان قد شكلا آنذاك أكبر تكتل تجارى عالمى ، وهذا ما يسعى إليه أحد الأعضاء البارزين فى الاتحاد الأوروبى وحدوثه ليس مستبعدًا . وبقوة هذا الاتحاد

بين النافتا والاتحاد الأوروبى ، سوف يتمكنان من إملاء شروطهما على بقية دول العالم .

ستكون منظمة التجارة العالمية ؛ تحت سيطرة الاتحاد الأوروبى والنافتا ، وعن طريق منظمة التجارة العالمية سوف تدار التجارة العالمية بحيث تحصل كل دولة من دول العالم على حصتها منها . ستكون الصين ما زالت قوية ، ولكن ليس بقوة الولايات المتحدة ، وسوف تكون تجارتها مع الاتحاد الأوروبى والنافتا منظمة بشكل تام .

كل الأسواق ستكون مفتوحة أمام الجميع ، وسيكون من حق البنوك الصغيرة فى الاقتصادات النامية مثل ماليزيا مثلاً ، أن تفتح فروعًا لها فى القرى الأوروبية والأمريكية ، وبالمثل سيكون من حق البنوك الأمريكية أن تفتح فروعًا لها فى القرى الماليزية ، وسوف تستمر عمليات الدمج بشكل يومى لتصبح هناك فى نهاية الأمر قلة من البنوك العملاقة التى تتحكم فيها الدول المتقدمة .

سوف تتجه بعض الدول الآسيوية إلى إنتاج السلع ، بينما سيزدهر البعض بفضل تجارة السياحة وخدمة السياح والمسافرين من الدول الغنية . أما فى التصنيع ، فسوف تنجح الدول التى تمتلك التكنولوچيا ورأس المال وشبكة الأسواق والخبرة الفنية . لن يكون هناك خطر قيام حرب ؛ حيث إنه لن يسمح للدول بأن تتسلح بأكثر مما هو مطلوب لبقاء تجارة السلاح مستمرة . لن تكون هناك مجازر من وقت لآخر على نحو ما حدث فى رواندا . لن يقتل سوى بضعة آلاف من البشر ، وحيث إن ذلك لا يعتبر حربًا فلن تفعل الأمم المتحدة شيئًا أكثر من تقديم الاعتذار . أعتقد أن هذا القدر يكفى من السيناريو الثانى .

هل يمكن أن يكون هناك سيناريو ثالث لمستقبل آسيا؟ نعم ! والحقيقة أن السيناريو الثالث هو الأكثر احتمالاً .

فى هذا السيناريو ، سوف تقوم كل دول آسيا بتبنى نظام السوق الحرة فى الوقت الذى تتبع فيه أسلوبها الخاص من الديمقراطية . لن تكون فى عجلة من أمرها بالنسبة

للإصلاحات السياسية ؛ فهم يرون الفوضى والعنف فى النظم الغربية ، ويرجعون ذلك للتطرف فى الديمقراطية . الإفراط سيء حتى فى الأشياء الجيدة بما فى ذلك الديمقراطية . الدول الآسيوية تفضل الحذر ، وأن تتحول إلى الديمقراطية ببطء مع رفض الممارسات الديمقراطية الغربية المدمرة ، ونتيجة لذلك ستظل الدول الآسيوية مستقرة إلى حد كبير وقادرة على النمو بمعدل سريع .

ومع التبنى الجماعى والشامل لنظام السوق الحرة ، سيكون هناك تدفق كبير لرأس المال والخبرة الفنية ، وسوف تنمو الاقتصادات بمعدلات أسرع بكثير منها فى الدول الغربية . الدول الآسيوية المتقدمة سوف تساعد الدول الأقل تقدمًا عن طريق الاستثمار ونقل الخبرة الفنية . وبانتعاش الدول الآسيوية ، ستقوم بالاستثمار فى غيرها ، بل وفى دول أفريقيا وأوروبا وأمريكا ، الأمر الذى يدفع بالاقتصاد العالمى بشكل عام . ستصبح الدول الآسيوية غنية لدرجة أن يعتمد بقية العالم على السوق الآسيوية ، وهكذا تصبح آسيا هى قاطرة النمو بالنسبة للعالم ، ويتم التغلب على المحاولة المبدئية لإعاقة نمو الدول الآسيوية ، بواسطة اتفاق هذه الدول على الحوار والعمل معا ضد تنظيم التجارة الذى تقترحه بعض الدول غير الآسيوية . وبعد أن أدركت الدول غير الآسيوية احتمال أن تفقد السوق الآسيوية الغنية توقفت عن محاولاتها لإعاقة نمو الدول الآسيوية . وعن طريق منظمة التجارة العالمية تم التوصل إلى اتفاق بأن تكون التجارة العالمية حرة ، وألا يكون هناك أى شروط اجتماعية مرتبطة بذلك ، وأصبح واضحًا على أية حال أن الانتعاش أدى إلى حصول العمال الآسيويين على أجور وظروف عمل أفضل ، وعلى مزيد من الديمقراطية واحترام لحقوق الإنسان .

فى ظل هذه الظروف ، تنمو الدول الآسيوية على نحو أسرع ، ولكن بقية العالم يفيدون من ذلك أيضًا ؛ حيث يبدأ الآسيويون فى زيادة مشترواتهم منهم والاستثمار فى تلك الدول ، ويقدمون أخلاقيات عمل أفضل ، ويدعمون صناعة السياحة بكثرة أسفارهم .

كل التكتلات التجارية تفككت . الكتلة التجارية الوحيدة هى منظمة التجارة العالمية ، إلا أن الظروف ليست دائمًا مثالية . النزاعات يتم تسويتها عن طريق منظمة التجارة العالمية أو عن طريق طرف ثالث أو عن طريق التفاوض ، كان ذلك هو السيناريو الثالث .

نحن الذين نستطيع أن نحدد شكل مستقبلنا إلى حد كبير ، ولا أستطيع أن أتنبأ به أكثر من غيرى ؛ حتى أشهر علماء المستقبليات تعوزهم الدقة دائمًا . لقد جاء عام ١٩٨٤م ومضى دون أن نرى تحكم الدولة أو الأخ الأكبر كما وصفه چورچ أورويل ، وبدلاً من ذلك نشهد كثيرًا من المعجزات التى لم يتنبأ بها أحد .

إلا أننا إذا كنا نريد أن نحصل على شىء فلابد من أن نعمل من أجل ذلك . السيناريو الثالث مثالى ، ولكن يمكن تحقيقه كما قلت . سيكون عالما أكثر مساواة . يجب ألا يحاول الآسيويون الإثراء على حساب بقية العالم ، ولابد من أن يكونوا مستعدين لاقتسام ثرواتهم . بالاقتسام والمشاركة لن يخسروا ، بل سيزدادوا غنى .

فى أواخر الستينيات ، بدأت اليابان تستثمر فى ماليزيا بالرغم من أن شروط الاستثمار لم تكن مواتية . واليوم ماليزيا إحدى الدول النامية الأكثر انتعاشًا ، وهى المستورد السابع عشر بين أكبر الدول استيرادًا فى العالم . كثير مما نستورده يأتينا من اليابان . الثروة التى صنعها اليابانيون من استثماراتهم فى ماليزيا تعود اليوم إلى اليابان ، بالإضافة إلى أن ماليزيا مدين جيد ، حيث إنها تسدد قروض الين الرخيص بالين الأكثر قيمة اليوم .

إن إغناء شركائك فى التجارة يغنيك أيضًا ، وهذا ما يجب أن يتذكره الآسيويون دائمًا . ليس ضارًا على الإطلاق أن تشترى الأشياء التى لا تريد من شركائك فى التجارة بغرض تقليل نسبة الخلل فى الميزان التجارى ، أى بغرض إغنائهم . إن الانغماس فى الدفاع عن نفسك بحروب تجارية مثل إعادة التقييم المستمر لعملتك سيكون أكثر تكلفة بالنسبة لك .

يجب على الدول الآسيوية ألا تكون جشعة عندما تصبح غنية . ينبغى ألا تلجأ إلى تشكيل تكتلات تجارية وألا يحتفظوا بثرواتهم داخل بلادهم فقط ، يجب أن يستثمروا فى الخارج ، وأن يفتحوا أسواقهم أمام المنافسة المشروعة . لو فعلت ذلك كله سيكون مستقبلها مشرقًا أيضًا .

يمكن أن نحقق السيناريو الذى نريد . نحن الذين يمكننا أن نحدد المستقبل إذا أردنا ، وإن لم نفعل فسوف يحدده لنا غيرنا . لا يمكن أن نلومهم إن جاء ذلك المستقبل لصالحهم ، والأمر متروك لنا !

٢١- حُقُوقُ الإِنْسَانِ *

أستئذنكم فى أن أعود قليلاً إلى التاريخ . من المعروف جيداً أنه منذ أن بدأ الناس يعيشون فى جماعات أو مجتمعات صغيرة ، فإن مفهوم حقوقهم والتزامهم تجاه المجتمع كان دائمًا مصدر قلق بالنسبة لأعضاء الجماعة ؛ إذ أنهم لم يكادوا أن يضعوا مجموعة من القيم لحماية أبناء المجتمع من بعضهم ومن أولئك الذين يملكون سلطة فرض قواعد العيش الاجتماعى ، حتى وجدوا أنهم إما غير مضطرين لتنفيذ القواعد أو أن هناك من يسىء استخدامها من بين من هم فى موقع السلطة .

هكذا كانت المفاهيم والقواعد تراجع مراراً وتكراراً ، ولذلك فإنها كانت تختلف من فترة إلى أخرى أثناء تطور المجتمع . وبينما كان مجتمع ما يعتبر شنق شخص بسبب جريمة سرقة شاة مثلا فى مرحلة ما ، عملاً طبيعيًا وعادلاً ، فإن هذا المجتمع نفسه فى يوم آخر وعصر آخر قد يعتبر عقوبة الشنق عملاً بربريًا وغير إنسانى ، حتى وإن كانت الجريمة هى قتل شخص آخر .

وحيث إن العالم يوجد به مجتمعات كثيرة ، درجات تطورها مختلفة ، فمن الطبيعى أن نتوقع أن تختلف مفاهيمهم عن حقوق الإنسان أو العدالة ، أو الالتزام تجاه المجتمع .

ربما يكون التركيز على حقوق الإنسان بشكل جماعى قد تبلور أثناء الحرب العالمية الثانية . قبل ذلك كان الأوروبيون الذين قسموا العالم فى إمبراطورياتهم حيث كانت أيديهم مطلقة فى المستعمرات ، لا يومنون بعالمية حقوق الإنسان . كان من حق الرجل الأبيض أن يحكم غير البيض ، وأن يقوم بتحضيرهم ، وأن ينشر دينه بينهم . كان ذلك هو عبء الرجل

* بمناسبة المؤتمر الدولى للعدالة الخاص بإعادة التفكير فى حقوق الإنسان كوالالمبور - ماليزيا ، ٦ ديسمبر ١٩٩٤م .

الأبيض الذى كان يتم تمجيده باعتباره واجبًا كلفه به الرب .

أما أبناء المستعمرات من غير البيض فلابد من أن يقبلوا حكم الرجل الأبيض تمامًا . وإذا كان هناك سوء استخدام للسلطة أو للموقف من قبل البيض ، كان على أبناء المستعمرات أن يقبلوا ذلك باعتباره جزءًا من عملية تحضيرهم وتعويدهم على النظام وعلى قدر من التقدم . لم يكن لهم أن يسألوا سادتهم المستعمرين ، وبالتأكيد لم يكن لهم أن يحاولوا تحرير أنفسهم ، وعمليًا لم يكن هناك وجود لما يمكن أن يسمى بحقوق الإنسان بالنسبة لهم . أما بالنسبة لدول أوروبا الاستعمارية فقد كانت تلك الحقوق مقصورة على شعوبها . لم تكن حقوقًا عالمية ، وبذلك لم تنطبق على شعوب المستعمرات .

إلا أن الحرب العالمية الثانية شهدت رعب معسكرات الاعتقال النازية ؛ حيث قتل ستة ملايين يهودى أوروبى بعد فظائع ضدهم لا يمكن تصورها . وفى الشرق ، كان اليابانيون يديرون معسكرات الأسرى للأوروبيين الذين استسلموا . وبالرغم من أنهم لم يكونوا قساة بنفس القدر إلا أنهم أيضًا أساءوا معاملة أسرى الحرب .

وبعد أن صدمتها هذه الفظائع ، قررت قوى الحلفاء ألا يحدث مثل ذلك مرة أخرى ، وقرروا أن يحددوا حقوق الإنسان العامة التى كان على منظمة جديدة أن تفرضها وهى منظمة الأمم المتحدة . وهكذا أعلنوا بانتهاج صيغتهم لحقوق الإنسان العالمية متجاهلين تمامًا الفظائع والأهوال التى أحدثوها فى هيروشيما وناجازاكى وغير خجلين منها . وكانت مقدمة ميثاق الأمم المتحدة كما يلى : «نحن شعوب الأمم المتحدة عازمين على تأكيد إيماننا بحقوق الإنسان الأساسية بأن يعيش فى كرامة ، وبالحقوق المتساوية للرجال والنساء وللدول صغيرها وكبيرها ، وأن نعمل من أجل التقدم الاجتماعى ومستوى معيشة أفضل بحرية أكبر» .

بعد ذلك مباشرة ، دخل الحلفاء المنتصرون الذين أسسوا الأمم المتحدة فى مشكلات مع حقوق الإنسان العالمية التى وضعوها ، كانوا يعتقدون أن الانتصار الذى حققوه سيسفر

عن استعادة إمبراطورياتهم فى آسيا وأفريقيا ومنطقة الكاريبى . كانوا يعتقدون أنهم مؤهلون لفرض قوانينهم على رعاياهم . كانت تلك هى نظرتهم كما يتضح من كلام ونستون تشرشل العظيم الذى أعلن بكل تشامخ أنه لم ينتخب لكى يكون رئيسًا على اضمحلال الإمبراطورية البريطانية .

لكن ما حدث هو أن المناطق المستعمرة ردت على ذلك بأن طالبت بالاستقلال بناءً على عالمية حقوق الإنسان ذاتها التى جاءت فى ميثاق الأمم المتحدة . وباختصار فإن المستعمرات السابقة حصلت على استقلالها واحدة تلو الأخرى . وفى معظم الأحوال كانت القوى الاستعمارية تذعن على مضض ، وكانت أحيانًا تماطل فى منح الاستقلال ، الأمر الذى يجعل توقيعهم على مبادئ حقوق الإنسان بلا معنى .

ولم تتوقف الأساليب الاستعمارية القديمة ، وإنما أخذت شكلاً آخر . بمجرد أن استقلت المستعمرات بدأ الاستعمار بوسائل أخرى ؛ حيث استمرت القوى الاقتصادية والإعلام الغربى والمنظمات غير الحكومية بعد أن رحلت الحكومات الاستعمارية . قد تتكلم الأمم المتحدة عن «حقوق متساوية . . . للدول صغيرها وكبيرها» ، ولكن بات من الواضح أن الدول الكبيرة أو بالأحرى القوية كانت هى الأكثر مساواة من الدول الصغيرة . لقد واصل الاستعمار الجديد عملية السيادة السابقة .

ولكن القوى المتحالفة الرئيسية ، والتى أنشأت الأمم المتحدة ، ووضعت مسودة ميثاقها انقسمت إلى «شرق» و«غرب» ، أو الكتلة السوفيتية والكتلة الغربية . ولخوفها من إمكانية تحول الدول الجديدة إلى الكتلة السوفيتية ، كانت حكومات الدول الغربية المتحالفة شديدة الانتباه وهى تقوم بالضغط على هذه الدول الجديدة .

بعد ذلك بوقت طويل ، انتهت الحرب الباردة ، وسقط الاتحاد السوفيتى مخلفًا عالمًا أحادى القطب ، وسقط كل ادعاء بعدم التدخل فى شئون الدول المستقلة . بدأ نظام عالمى جديد ، تدعى فيه الدول القوية الحق فى أن تفرض نظم الحكم وسوقها الحرة ومفهومها عن

حقوق الإنسان على كل الدول .

جميع الدول لابد من أن تتحول إلى نظام يعتمد على تعدد الأحزاب ، وأن تمارس الأفكار الليبرالية عن حقوق الإنسان كما تتصورها أوروبا وأمريكا الشمالية . إن معظم الدول متفقة على أن الشكل الديمقراطى للحكم أفضل من النظم الإقطاعية أو الشمولية ، إلا أن الممارسة تختلف حتى فى الديمقراطيات الغربية . وهكذا نجد أنه بينما نظام التعدد الحزبى هو الذى يحظى بالتأييد، إلا أننا نجد أن الموجود بالفعل - فى كثير من الدول الغربية - حزبان يمارسان العمل .

نظام التعدد الحزبى يمكن أن يؤدى إلى عدم حصول أى حزب على أغلبية كافية لكى يشكل حكومة ، كما أن التمثيل النسبى للأحزاب يمكن أن يكون له النتيجة نفسها ، حتى نظام الحزبين قد يؤدى إلى أكثريات ضعيفة ، الأمر الذى يضع الحكومة تحت رحمة الأعضاء عديمى الضمير وتهديداتهم بالتمرد والانسحاب وإسقاط الحكومة .

الدول المتقدمة يمكن أن تعمل بحكومات ضعيفة وربما دون حكومات ، لكن الدول النامية لا يمكنها أن تعمل دون حكومة لديها سلطة قوية . والحكومة غير المستقرة والضعيفة ستؤدى إلى الفوضى ، والفوضى لا يمكن أن تسهم فى تنمية ورفاهية الدول النامية . السياسات الانقسامية سوف تكون هى الشغل الشاغل لوقت وأذهان الجميع ، كما نشهد فى كثير من الدول النامية اليوم .

إن الدول النامية كلها تريد أن تمارس الديمقراطية ، ولكن هل لزام عليها ألا تمارس سوى الأشكال الليبرالية التى يضعها لها الغرب ، الأشكال التى ستؤدى إلى تأخير نموها إعاقة استقلالها؟ إن الدول النامية مفزعة دائمًا عن طريق الضغوط الاقتصادية بما فى ذلك سحب المعونات والقروض وبتوجيه النقد القاسى والتشويه الإعلامى وعن طريق الحملات التى تقوم بها الجمعيات الغربية غير الحكومية التى تمول جماعات الضغط أحيانًا داخل الدول لتعرقل عمل الحكومة التى ينعتونها بأنها غير ديمقراطية ، وحتى لو جاءت حكومة

جديدة فسوف تظل أيضًا مفزعة .

ولكن هذا ليس كل شيء ، بينما يستفز الليبراليون الغربيون الناس لكي يختاروا الديمقراطية ، وحيث وجدوا أنه من المناسب أن يسقطوا حكومتهم «غير الديمقراطية» ، يجب ألا يتوقعوا أي مساعدة عندما يواجهون الصعاب أثناء محاولات التحول الديمقراطي في بلادهم . هكذا حثوا الأكراد على التخلص من حكم صدام حسين وإقامة دولتهم . وبعد أن طردت الدول الغربية العراق من الكويت ، وبعد أن تمرد الأكراد لم يقدموا لهم أي مساعدة سوى بعض التقارير الخفيفة في الإعلام الغربي بخصوص المشكلات التي يسببها الأكراد ضد حكومة صدام حسين ، وتم إخماد التمرد دون رحمة ، بينما اكتفى الديمقراطيون الغربيون بالمشاهدة .

وفي يوغسلافيا تم تشجيع مختلف دول الاتحاد على الحصول على الاستقلال بالأسلوب الديمقراطي ، وكان على كل الدول أن تواجه معارضة مسلحة من قبل الصرب المسيطرين . وفي كرواتيا والبوسنة والهرسك قام الصرب بهجوم وحشي ، وأعلنوا عن نيتهم صراحة للقيام بعملية تطهير عرقي ، وهو تعبير مخفف عن الإبادة الجماعية . وقتل مئات الألوف من الكروات والبوسنيين المسلمين وغير المسلمين ، واغتصبت عشرات الألوف من النساء ، وتشرد الملايين ، واضطروا للهجرة ، إلا أن الليبراليين الغربيين لم يفعلوا شيئًا لضمان أن يحترم الصرب العملية الديمقراطية .

إن سجل الحكومات الديمقراطية الغربية ليس مشرفًا . إذا لم تتعرض مصالحهم للخطر - كما حدث في الكويت - فإنهم لن يغامروا بأي شيء في قضية الديمقراطية ؛ فهل من المستغرب أن تتعامل كثير من الدول بحذر شديد مع النظام الليبرالي الذي يقترحه الديمقراطيون الغربيون؟

وإذا كان سجل الديمقراطيين الغربيين في الترويج لأيديولوچيتهم بهذا السوء ، فإن سجل حقوق الإنسان لديهم أكثر سوءًا . إن تفسير الغرب لحقوق الإنسان معناه أن لكل فرد

الحق فى عمل أى شىء يريده متحرراً من أى قيد تضعه الحكومة ، ولا يهم إن كانت الحكومة منتخبة ديمقراطيًا بواسطة أغلبية الشعب . الحكومات - كما يرى الديمقراطيون الليبراليون- لا يمكن أن تقف ضد الرغبات الشخصية لأى فرد فى المجتمع .

ربما لا تكون النتيجة كما كان يتوقع الديمقراطيون الليبراليون فى الأصل . لقد قرر الأفراد أن يكسروا القوانين والقواعد التى تحكم مجتمعهم . بداية بأشياء بسيطة مثل تقاليد الملبس ؛ أصبحوا يرفضون الزواج كمؤسسة اجتماعية . أصبح الجنس خارج إطار الزوجية أمرًا عاديًا . أعيد تعريف الأسرة لتصبح العيش المشترك بين رجل وامرأة مع تغيرات متعددة فى الشركاء ، أو بين رجلين أو بين امرأتين . الأطفال يولدون دون آباء معروفين ، الأمر الذى سيؤدى فى النهاية إلى زواج المحارم بين الإخوة والأخوات ، وربما بين الأب وابنته أو بين الأم وابنها ، ولن يكون زواج المحارم خطأ فى نظرهم طالما كانت تلك هى رغبة الأفراد . المتعة والفجور هى معايير الحرية المطلقة بالنسبة للفرد وللكل . ومع ذلك فإن النساء اللاتى يرتدين ثيابًا مستفزة ، ويسلكن سلوكًا مستفزًا يعترضن على التحرش الجنسى بهن ، بينما ينتظر أن يكون القادة ذوى سجلات غير ملوثة بفضائح الجنس والمخدرات . الواضح أن المجتمع الغربى لا يعرف ما يريده . إنه يريد حرية كاملة لكل فرد ، ولكنه يرفض الحرية عندما يعترض الفرد أو المجتمع . إذا كان الأفراد أو المجتمع يمكنهم أن يعترضوا على التحرش الجنسى أو الخيانة الزوجية بين القادة ، فلن تكون هناك إذن حرية تامة . ومع ذلك يصر الغرب على ألا تكون الحرية مقيدة على أى نحو ، وأن على الكل أن يقبلوا بالقيم الغربية ، إنهم باختصار لا يرون أى تعارض فى هذه التوجهات المتناقضة .

أما بخصوص تحول الغرب من الظلم والوحشية إلى الحرية ، فإننا نجد النفاق الغربى فى أسوأ حالاته ؛ فالحكومات الغربية والإعلام والمنظمات غير الحكومية لا تكف عن إدانة الدول غير الغربية بسبب سجلاتها فى حقوق الإنسان ، ويهددون بفرض العقوبات وسحب المعونات وإيقاف القروض والمقاطعة الاقتصادية والتجارية ، بل والتدخلات العسكرية ضد

من يتهمونهم بانتهاك حقوق الإنسان . وربما وصل بهم الأمر إلى اختطاف أشخاص فى بلاد أخرى لمحاكمتهم فى بلادهم وتحت قوانينهم عندما يرون ذلك مناسبًا . وفى حماسهم لمبدأ حقوق الإنسان فإنهم لا يحترمون استقلال أى بلد ولا حرمة حدوده الإقليمية .

بعد سقوط الاتحاد السوفيتى والانتصار الذى يتبجحون به ضد العراق أعلنت القوى الغربية أن من حقها التدخل فى الشئون الداخلية لأى دولة عندما يتوفر دليل على انتهاكها لحقوق الإنسان ، على الرغم من استقلالها . قد يكون ذلك عملاً نبيلاً ، إلا أن الأسلوب موضع شك ؛ فما هى مؤهلات الديمقراطيين الليبراليين فى الغرب لكى يصبحوا القاضى والجلاد بالنسبة لسلوك الدول الأخرى ومواطنيها؟ وإذا كان لابد من التدخل فى الشئون الداخلية لأية دولة ، ألا ينبغى أن تكون الأمم المتحدة هى المسئولة عن وضع الضوابط لذلك والقيام بالتنفيذ؟ إلا أن الاعتراضات المتواضعة من بعض الدول الصغيرة قد أهملت تمامًا . وهكذا نجد -من بين أشياء أخرى- أن بعض الناس فى بلاد بعيدة ، والذين يخرقون قوانين الدول القومية دون علم ، تتم محاكمتهم غيابيًا وتصدر ضدهم الأحكام ، وهذا أمر مخيف ؛ لأنك عندما تحاكم فى ظل قوانين دولة أخرى ليس لك فيها حقوق تكون قد فقدت حريتك واستقلاليتك . لقد أصبحت محتلاً مرة أخرى .

ومن بين الأمور الأخرى هناك النفاق الغربى فى البوسنة والهرسك ؛ إذ بعد أن أعطوا أنفسهم حق التدخل فى أى مكان تنتهك فيه حقوق الإنسان ؛ فمن المؤكد أن أبطال حقوق الإنسان لن يسمحوا للصرب بارتكاب الفظائع والمذابح الجماعية . أرسلت القوات المسلحة بأحدث الأسلحة والدبابات والطائرات من قبل أبطال حقوق الإنسان ، ولكن من أجل ماذا؟ ذهبوا لكى يقفوا ويشاهدوا الصرب وهم يذبحون ٢٠٠٠٠٠ من مسلمى البوسنة والكروات ، ويغتصبون عشرات الألوف من النساء ، ويقيمون المعتقلات التى لا تقل فظاعة عن المعسكرات النازية ، ويطردون الملايين من منازلهم وبلادهم ، وما زال الصرب مستمرين

فى عمليات التطهير العرقى على مرأى من جنود وجنرالات الدول التى تعهدت

بوضع نهاية لانتهاك حقوق الإنسان فى كل مكان .

من وقت لآخر كان الصرب يتلقون التهديدات ممن يسمون بالمدافعين عن حقوق الإنسان ، وبأنهم سيقصفونهم إن لم يتوقفوا ، وبعد عرض للتفوق الجوى الغربى وللمقاتلات الحديثة ، انسحبت كل قوات حلف شمال الأطلنطى متذمرة ، ومرة أخرى كانوا يحثون الضرب على قبول التفاوض . قام الصرب مرة أخرى بضرب البوسنيين بالقنابل والصواريخ وقتل وجرح الأبرياء والمرضى فى المستشفيات . أما أبطال حقوق الإنسان فلم يفعلوا شيئًا حرصًا على سلامة جنودهم !

الصرب مسلحون . البوسنيون عزل . أبطال حقوق الإنسان يرون ذلك وضعًا مثاليًا . لو سلحوا البوسنيين ، فبدلاً من أن يكون هناك قتلى من البوسنيين فقط ، قد يصاب بعض الصرب ، وبذلك تصبح هناك خسائر أكبر ، وسيغضب الصرب من الأمم المتحدة لأنها قد تسلح البوسنيين الذين قد يوجهون أسلحتهم نحو قوات حلف شمال الأطلنطى ، وذلك لن يحدث . الأمم المتحدة هناك لحفظ السلام وليس لفرض السلام ، وإذا لم يتوقف الصرب عن القتال فلن يكون هناك سلام لكى يحفظوه . وبالتالى فإن قوات حلف شمال الأطلنطى لا تستطيع أن تفعل شيئًا . الصرب يمكن أن يواصلوا قتل البوسنيين واحتلال أراضيهم . والآن يواجه الصرب أقوى تهديد ، إذا لم يتوقفوا عن مهاجمة البوسنيين فسوف يسحب حلف شمال الأطلنطى قواته ويترك الصرب يحتلون البوسنة . إن الليبراليين الغربيين ليسوا جبناء فقط ، ولكن منطقهم أعرج أيضًا .

هذه إذن حقيقة حقوق الإنسان الغربية وواقعها الذى يدعو للسخرية . من ناحية ، يوجه التهديد للحكومات الأخرى بسبب أى خرق بسيط لحقوق الإنسان ، ومن ناحية أخرى عندما لا تكون المصالح الغربية مهددة ، فإنهم يسمحون بأكبر الانتهاكات لحقوق الإنسان أمام أعينهم .

من الصعب علينا أن نوافق على هذه المعايير المزدوجة أو أن نقبلها ، وقد جلب عدم

استعدادنا للرضوخ سيلاً من الاتهامات لآسيا بالتمرد . ويبدو أنه ليس من حق الآسويين أن يحددوا ويمارسوا قيمهم الخاصة عن حقوق الإنسان . ويسألوننا : وما القيم الآسيوية؟ وهو سؤال بلاغى لا يتطلب إجابة ؛ حيث تدل صيغته الضمنية على أن الآسيويين لا يفهمون حقوق الإنسان ، ناهيك عن وضع قيم لهم .

هذا مؤتمر عن حقوق الإنسان ، ولو أن حقوق الإنسان كانت قد تقررت بالفعل وبقى فقط أن نقبلها ؛ ففى اعتقادى أنه ما كانت هناك ضرورة للمؤتمر . بعقد هذا المؤتمر لابد من أنكم تعتقدون أن حقوق الإنسان فى حاجة إلى مناقشة ، إلى تعريف أو بالأحرى إعادة تعريف وإلى أن تنشر . لا أحد ولا دولة ولا شعب ولا حضارة من حقه (أو حقها) أن تدعى احتكار الحكمة أو معرفة ما يمثل حقوق الإنسان . وعلى ضوء سجلات وآداء الليبراليين الغربيين يتضح لنا أنهم آخر من يستطيع تعريف حقوق الإنسان أو التحدث عنها . والحقيقة أنهم فى هذه اللحظة ليس من حقهم ذلك ، ناهيك عن الحكم على الآخرين بهذا الخصوص .

إلا أنه من المسلم به أن الآسيويين ليسوا أفضل نموذج لتزعم حركة حقوق الإنسان كذلك . لقد كانوا مذنبين فى الماضى ، وربما فى الفترة الأخيرة أيضًا ، وإن كان ليس بالصورة التى ينقلها الإعلام الغربى .

أتمنى أن يتمكن مؤتمركم من بحث حقوق الإنسان ، ليس باعتباركم آسيويين أو أوروبيين ، وإنما باعتباركم تنتمون إلى الجنس البشرى ، وهو يجيء فى وقته ؛ حيث إن الثقة فى الحضارة الحديثة تتناقص بشكل سريع . نستطيع أن نضع إنسانًا على سطح القمر ، نستطيع أن نستكشف النجوم والكواكب ، يمكن أن نكون على اتصال بكل أرجاء العالم ، يمكن أن نخترع الآلات الذكية وغيرهامن العجائب ، إلا أننا ما زلنا غير متحضرين . عندما يصل الأمر إلى حد قتل بعضنا البعض ، فإننا نكون أسوأ من الحيوانات . الأفكار الليبرالية الغربية بشأن حقوق الإنسان وغيرها من القضايا ، لا تقدم إجابة عما يواجهه عالم اليوم من

أهوال . الكل ، بما فى ذلك المجموعة الآسيوية ، لابد من أن يكون له الحق فى تقديم مقترحاته والإسهام فى صياغة مجموعة قيم جديدة ، قد تساعد فى حل ما نواجهه اليوم من مشكلات . أتمنى أن تستطيعوا الإسهام فى ذلك .

فهرس

١- الأعلام

٢- الأَمَاكِنُ

٣- المُنَظَّمَاتُ وَالْهَيْئَاتُ وَالْمُؤتَمَرَاتُ وَالْمُعَاهَدَاتُ ..إلَخ

٤- الأحداث الكبرى

٥- مصطلحات وعبارات أساسية